خالد الخميسي

سفينة نوح

رواية

الطبعة الخامسة



دار الشروق

سفينة نوح سوف تمنحك كل ما تطمح إليه من معرفة

أولاً: انتبه! لا تدع السفينة تفوتك.

ثانياً: تذكر! إننا جميعاً في الهوا سوا.

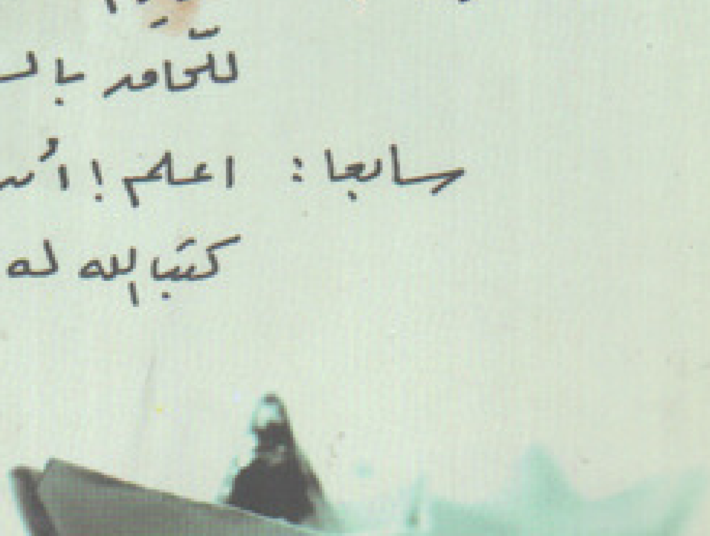
ثالثاً: كن مستعداً! ففي أي لحظة يمكنك أن تضطر إلى القفز داخل السفينة.

رابعاً: سافروا أزواجاً! لأسباب نحن في غنى عن شرحها.

خامساً: أقدم على ما ينبغي أن تقدم عليه.. ولا تلتفت لما يكتب أو يقال.

سادساً: لا يهم من أين جئت! الجميع يسعى للتواجد بالسفينة.

سابعاً: اعلم! أن من خرج ولحق بسفينة نوح كتب الله له النجاة.



الرياض
3 يونيو
2010

دار الشروق
www.shorouk.com

6 221102 024938

تصميم الغلاف عمرو الكفراوي

خالد الخميسي

سفينة نوح

رواية

دار الشروق

المحتويات

أحمد عزالدين

أبوحميد شاب مثل الورد، جميل، عذب القسمات، ذو نظرة عميقة تطل من عينيْن في استدارة المحيط لا يمكن أن ترى إلا سوادهما، أما بشرته فقطعة من سطح البدر، وكأنه نجم سينمائي في مرحلة ما قبل عادل إمام وهنيدي والمرحوم علاء ولي الدين. تسكن في أعماق روحه جوهرة غير زائفة من الخصال والمشاعر الصادقة. جادت السيدات الحارسات على دقائق زمانه فأودعن في قرارته دفئًا لا ينضب. تخرج في كلية الحقوق جامعة القاهرة عام ٢٠٠٣. درس القانون بناء على وصية المرحوم والده، لكنه بعد التحاقه بالكلية عشق دراسة الحقوق ما عدا المواد الاقتصادية والمالية التي وقفت في حلقه كالشَوْكة التي لم تُجْدِ لبلعها أي كميات من المياه.

حلم بالنيابة العامة على مدار أعوام الكلية، ورأى نفسه في مرآة أحلامه وكيلا للنيابة ناجحًا ومحققًا للعدل. قرر أن يضع هذا الحلم نصب عينيه فذاكر وتفوق بجد حسده عليه زملاؤه وصم أذنيه عن

كل ما قيل له. نظر إلى السماء، فابتسم البدر، وهنا وعد والده بأنه سوف يراه قريبًا وكيلًا للنيابة كما تمنى.

لم يصمد رجل في عائلة أحمد عز الدين الصغيرة؛ توفى والده وهو في الثالثة عشرة من عمره. ثم توفي زوج خالته الذي كان له بمثابة الأب بعد وفاة والده، وظلت خالته على حالها لصيقة به وبأختها بعد أن فشلت في الإنجاب عبر حياتها الزوجية، وظل هو مع والدته وأختها كديك البرابر ينعم برعاية قطيفية. لم يكن له خال ولا عم، أما جدوده فقد رحلوا عن الدنيا قبل مولده، ولذلك كان يقول دائمًا: لو حكمت العالم النساء لأصبحت الدنيا مكانًا أجمل للحياة، ثم يستدرك ضاحكا: ولكن نساء لا يشبهن من قريب ولا من بعيد «كونداليسا رايس»!

حصل على شهادة الليسانس بتفوق، وتقدم بقلب جسور ليقبض على حلمه بالالتحاق بالنيابة العامة. لم يكن يعرف وقتها أنه بتخرجه في الجامعة كان عليه أن ينتقل من فوره من عالم الطلبة إلى عالم الكبار. من كونه طالبًا دوره في الحياة أن يذاكر ويحلم ويحب إلى كونه بالغًا وراشدًا عليه أن يبدأ في فك لوغاريتمات الحياة، تلك الأكواد شديدة التعقيد التي تشكل ضفيرة المجتمع من الشَعر المصري الإفريقي المجعد الخشن، التي لا يمكن لأحد أن يفكها إلا بألاعيب الفساد والمداهنة. لكن مع تتالي ضربات الزمن الممهور بختم القاهرة، كانت كل موجة تذيب بفضل أملاحها، وبعض أحماضها بعضًا من سذاجته التي لا شك قد ورثها عن والدته داخل جيناته الوراثية التي منحته أيضًا عينيها الساحرتين. استيقظ في يوم على آذان الفجر، قام ونزل إلى المسجد الملاصق

لمنزله وصلى الفجر واكتشف بعدها فجأة أنه فقد سذاجته، سقطت منه وهو نصف نائم في لحظة خروجه من بوابة عمارته المهدمة. فقد بكارة طفولته وولج إلى عالم لا يعرفه.. عالم عليه أن يفتح آفاق حواسه لمحاولة اكتشافه، فقد أدرك في الساعة الخامسة وسبع وخمسين دقيقة بالضبط وهو جالس على الحصيرة بجانب العمود الأيمن للزاوية التي صلى فيها أنه يحتاج إلى ٧٠ ألف جنيه رشوة لتحقيق حلمه. هبطت البصيرة على عينيه، ورأى ما لم يستطع رؤيته على مدار أعوام الكلية، على الرغم من نصائح كل أصدقائه. ظهرت له الحقيقة كرؤيا بعد أن لعبت أمواج الزمن الدوارة دورها في جلاء ذهنه وأدرك بوضوح الحقائق المقدسة لفك رموز مفاتيح الحياة:

«المرور من بوابة النيابة العامة بعيد عن شنبك يا خفيف. ولا في بطنك الكشكوش، ولا ليك ضهر. اتعلم يا حلو إن على قد لحافك تمد أحلامك».

صعد إلى منزله بعد صلاة الفجر، واستغرق لأول مرة في نوم عميق هادئ دون أحلام جميلة تنغص عليه حياته.

✧ ✧ ✧

بالنسبة لينا كشباب.. وبعد تجريب وتدبير وتفكير وتمحيص.. ما قدمناش حل غير إن احنا نفكر في السفر. إحنا تايهين، تايهين وسط حالة هرجلة وفوضى وفساد، ومش عارفين نتحرك خطوة واحدة لقدام؛ لأننا أصلًا مش شايفين نور في آخر النفق.. عمالين هنا بنحلب في ضرع حجر فرعوني من النوع الجرانيتي المعتبر واحنا في نفس الوقت بنتفرج على الحياة اللي الناس عايشاها برة..

شغل الصبح وسفر وسهر في الويك ـ إند، جد جدًا بس في نفس الوقت خروج وحياة وفلوس.. ونرجع نشوف الحياة اللي إحنا عايشينها هنا في مصر شغل مفيش، فلوس مفيش، خروج وفسحة بجد مفيش. إحنا ومن خلال الدش والانترنت أصبحنا متشبعين بأسلوب حياتهم هناك. عاوزين نعيش زيهم ونكسر السقف الكابس على الراس وخانق أي حركة وأي نفس. هناك فيه هواء وبنات وولاد وحب وانطلاق. حتى الروحانية عندهم بقت حقيقية أكثر من اللي احنا عايشينها هنا النهاردة. كل العادات والتقاليد في بلدنا بتنهار قدام كل اللي بنعيشه وبنشوفه، أنا مش عايز أتكلم، بس إحنا بقينا من برة هلاّ هلاّ ومن جوه يعلم الله. أنا كمصري وبحب بلدي وبحب الشارع اللي أنا اتربيت فيه شايف إن أنا لازم أسافر خدمة لبلدي.. البلد مش عايزاني أصلًا، مش عارفه تشغلني، أنا حاسس إن أنا حِمل على البلد.. مفيش مشاريع كفاية تلمنا.. والحكومة عمالة تقول في كل حتة: إن احنا كترنا قوي ومش عارفين نتصرف فيكم ازاي. بصي على اليفط في كل الشوارع، «نحَكّم عَقلنا.. ناكل كلنا» وطبعا اتحولت فورا على لسان كل الناس إلى «نِحَكّم عقلنا.. نهاجر كلنا».

أنا لو استقريت بره وعشت حياة كويسة، أكيد حاكون منهم وحتكون هي دي حياتي الجديدة والبلد اللي حاروحها حتبقى بلدي. يعني أنا بأفكر لو سافرت النهاردة وقعدت فترة كبيرة هناك، يا ترى حارجع مصر تاني ولا لأ؟ سؤال محيرني جدا.. يعني أنا لو خلفت بره معقولة حارجع بيهم هنا علشان أعلم ولادي في مصر؟

طبعًا مش معقول. لكن أرجع وأقول: أكيد برضه ح آجي زيارة لمصر مش اكثر.

✦ ✦ ✦

استيقظ أحمد مساء. دخلت عليه أمه وخالته أكثر من مرة على مدار اليوم ولكن كان تنفسه عميقًا وعضلات وجهه في حالة استرخاء. ملست كل منهما على جبينه، ومسحت أمه بمنديل وردي معطر عرقًا كان يتفصد من جسده. خرج إلى الصالة غير مصدق عقارب الساعة التي في يده.. كانت المرأتان جالستيْن على كنبة إسطانبولي، كلٌ في مواجهة الأخرى وبينهما الكوتشينة مفتوحة وهما تحملقان في أوراقها: «أريح طيبة سوف تهل.. أم ريح نتنة؟» «هل يا ترى سوف تفوح رائحة مسك السوء أو أن البخت سوف يكون في هذه المرة عطوفا؟».

عندما أهَلَّ بوجهه كانت المرأتان تفتحان الكوتشينة على وجه أحمد. نظرت إليه خالته وقالت له: «وشك ولا وش القمر يا واد.. ناموسيتك كحلي الساعة عشرة بالليل». جلس إلى جانبها وحملق في التلفزيون المفتوح. كان مسلسل أمريكي يُعْرض على إحدى قنوات الدش. قامت أمه لتعد له الإفطار والغذاء والعشاء ولكنه استأذنها في الخروج فورًا ليلحق بموعد في الثامنة مع جاره وصديقه ياسر.

كان لقاؤهما كالعادة في المقهى الملاصق لمنزلهما بشارع ناهيا، وجد ياسر في انتظاره واضعًا الدومينو على الطاولة أمامه. كان ياسر لاعبًا لا يمكن هزيمته في الدومينو؛ فهو من العباقرة الأفذاذ في الرياضيات، تخرج في كلية الهندسة قسم كهرباء وساعدته دراسته

في أمر واحد لا ثاني له: ياسر يعرف كل الأرقام التي في حوزة غريمه وكذلك كل الأوراق على الأرض وكأنه يمتلك النظارة التي حلم بها مراهقو مصر والتي تسمح لك أن ترى من خلالها كل النساء عاريات. ولكنه في ذلك اليوم سمح لأحمد بأريحية أن يهزمه، فرحًا بزوال الغشاوة عن عينيْه بعد أن سعى طويلًا إلى رفعها عنه قبل أن يكتشف أن هذا طريق يجب أن يسير فيه الأعمى وحيدا حتى يصل إلى نقطة النور؛ فتظهر له الحقائق القبيحة كالبدر في وسط الصحراء.

في اليوم التالي مباشرة لبزوغ البدر، وضع أحمد أحلامه برفق في صندوق القمامة وبدأ البحث الجاد عن مكتب محام للعمل به. بعد شهريْن من المشاوير، اكتشف أن خريجي كلية الحقوق في مصر يفوق عددهم كل مجرمي العالم قاطبة. سار في طرق غير مرصوفة يعلوها الضباب الكثيف، وفي انتظار هبوطه بالباراشوت على شارع عرف يومًا أعمدة الإنارة عثر على عرض عمل صرافًا في كافتريا كان صاحبها يبحث عن شخص ثقة يتولى خزانته في الساعات الثماني الصباحية التي لا يوجد فيها. قبل أحمد العمل فورا. ولكن بعد أيام معدودات فهم أحمد أن جنيهات راتبه الثلاثمائة تطير مع الحافلات التي كانت تقله من منزله في ناهيا إلى مدينة نصر كطيور اليمام، حتى جاءته أخيرًا هدية من السماء.

✧ ✧ ✧

أخيرًا اتفقت مع الأستاذ جمعة عبد السلام علشان أتدرب عنده. الأستاذ رجل عظيم بكل معنى الكلمة ومحامي ممكن الواحد

يتعلم منه كثير. وبصراحة عظمته تكمن أساسًا في ان مكتبه مش بعيد قوي عن بيتنا. حيث ان المرتب كان مائة وخمسين جنيه في الشهر باضطر أدفعهم كلهم في المواصلات للمحكمة، فلو كمان دفعت فلوس المواصلات من بيتنا للمكتب ح أبقى باستهبل وأمي بصراحة مش ناقصة، في الأيام دي كانت بتصوَّت من اللي بيحصل عمالة تقول: «لا شافت ولا حتشوف». يضحك أحمد ضحكته الصافية. أصلها طول عمرها ست متفائلة. كان أملي بعد لما اتخرج إني أساعد في مصاريف البيت، أصبح أملي إن أنا أقلل شوية من المصروف اللي باخده منها.. قعدت أقنع نفسي بالمحاماة بعد ما ربنا شفاني من النيابة، وأسَمَّع لنفسي الصبح نشيد المحاماة وأنا باحلق دقني قدام المراية:

المحاماة يا أستاذ مهنة عظيمة، مهنة الدفاع عن المظلومين في مجتمع ظالم، دورك حيكون إرجاع الحق لأصحابه. ممكن حد في الدنيا دي كلها يقول لي إيه أهم من كده؟

✦ ✦ ✦

بعد أشهر قليلة أبدت له الدنيا بصوت جهوري ما هو أهم من التحاقه بمكتب المحاماة؛ حين ترك المستأجر الأشقر شقتهم في الزمالك وفشلوا في إيجاد مستأجر جديد وبدأت المدخرات القليلة الكائنة في درج التسريحة الصغير داخل حجرة والدته تتبخر ببطء وسط حرارة الجحيم . كانت شقة الزمالك هي ميراثه الوحيد من والده والأرض الوحيدة التي تقف عليها أسرته حتى الآن. فبعد وفاة والده أمسكت أم أحمد بالورقة والقلم وأدركت أن معاش

زوجها المرحوم لن يسمح لهم بحياة كريمة أو حتى بحياة غير كريمة، كما كانت واثقة من عدم قدرتها على أن تمد يدها لأخوات زوجها اللائي رفضن بعنف زواج أخيهم من امرأة «بلدي» اتخذت القرار الصعب، وقامت بتأجير الشقة لصحفي إسباني بمبلغ محترم وانتقلت هي وابنها إلى شقة قامت بتأجيرها في بولاق الدكرور حيث نشأت وترعرعت مع المرحوم والدها. ونقلت أحمد من مدرسة ليسيه الزمالك إلى المدرسة التجريبية الإعدادية الواقعة بجوار منزلهم الجديد في بولاق. كان القرار حينها قاسيًا على الابن ولكن كان عبقريًا للعائلة في الوقت نفسه؛ حيث إن إيجار شقتهم في الزمالك كان يرتفع سنويًا بمعدلات تفوق أحيانا معدلات التضخم، واستطاعت أن تدير الدفة وتقود سفينة الحياة باطمئنان في المياه الدافئة الهادئة. بالطبع كانت هناك منغصات رجّت جنبات سفينتهم وإن لم تهددها بالغرق. فقد استمرت الشقة أكثر من شهر دون مستأجر ولكن حيطتها جعلت من مدخراتها القليلة سندًا في تلك الأيام العصيبة. واستقر وضعها بعد أن قام كهل سويدي عاشق لمصر بالسكنى في شقتها لأمد غير منظور. ولكن في السنوات القليلة الأخيرة، ابتلع الغلاء المجنون بفمه الشيطاني كل القفزات الكبيرة في القيمة الإيجارية للشقة وخافت أن تطالب المستأجر الأشقر بزيادة جديدة. فكرت لوهلة عندما سألها أحمد عن إمكانية تدبير مبلغ السبعين ألف جنيه رشوة للالتحاق بالنيابة في بيع الفرخة التي تبيض لها ذهبًا. ولكن بحرصها التقليدي رأت أن بيع الشقة قد يكون نوعًا من الانتحار، وخطوة غير مدروسة.

فمن أين لها اليقين من أن هذا المبلغ سوف يعينه فعلًا على الالتحاق بالنيابة كما يقول؟

ولكن جاءت اللحظة التي أدار لهم فيها البخت ظهره.

✦ ✦ ✦

المصائب لما تهل بتيجي جماعة. فعلى الرغم من كل الشحن المعنوي قبل الفطار وبعده:

«وإن المحاماة وحلاوة المحاماة».

لكن ما اقدرتش نهائي. كل يوم علشان أقوم بشغلي لازم أخالف ضميري، وأخالف كل اللي اتعلمته في كلية الحقوق. دي مهنة بتناقض كل اللي أنا اتربيت عليه طوال حياتي من اللي بيحصل في المحكمة على اللي بيحصل في النيابة. المفروض إنهم يجيبوا قتالين قتلى علشان يشتغلوا محامين مش أقل من كده.. أول مشكلة حصلت لي مع الأستاذ جمعة إنه حصل على حكم محكمة، والمفروض إن إحنا ننفذه، ونزلت أنا علشان أجيب قوة التنفيذ وهي المحضر، وأمناء الشرطة والعساكر، زي ما المحامي طلب مني. قابلت المحضر قال لي: تعال بكره وفضلت من بكره لبكره مش عارف أتصرف. المحامي إتخانق معايا خناقة كبيرة وسألني قاولتهم على التنفيذ بكام؟ وده معناه إن المحامي لازم يتفق مع قوة التنفيذ على مبلغ مالي يقبضوه لتنفيذ الحكم، والمبلغ ده بيختلف على حسب الموضوع وحسب الشطارة. المهم إني قلت له إن أنا مش عارف أقاوله، الراجل قافل تماما. شخط فيَّ وقال لي: والله ما

انت نافع. وبعت محامي تاني وبصراحة خلّص الحكاية قوام قوام. بعدها بأسبوع رحت لتنفيذ حكم باستلام شقة وكانت شقة صغيرة في الملك فيصل وصاحبها غلبان جدًا وقاولت القوة الجبرية على تلات آلاف جنيه بالعافية لتنفيذ الحكم الصادر. استكترهم الأستاذ جمعة وأكد لي أن مبلغ ألف وخمسمائة كان كافيا جدا للشقة دي. وقال لي: بصراحة يا أحمد أنا مش حأعرف أفيدك.. رأيي تشوف محامي تاني. أنا ممكن أكلم لك أستاذ حسين قورة.

خرجت من عنده وأنا حالتي زي الزفت.

✦ ✦ ✦

حكى لي أحمد أنه خرج من عمارة الأستاذ جمعة في شارع السودان كهلًا لا يقل عمره عن الألف عام. خرج إلى الشارع واستنشق ثاني أكسيد الكربون المركّز وبدأ في السعال. لم يجد في صدره هواء يكفي للقيام بأي حركة، فاضطر أن يجلس على الرصيف.

كان الشارع كعادته في السابعة مساء يشبه كثيرًا صالة الانتظار في الجحيم. حركة مستمرة من شياطين الإسفلت وبوابين وسماسرة عقارات جالسين على الرصيف يشرب بعضهم الشيشة، يلعبون دور سكرتارية الاستقبال في مكتب الجحيم الدولي، وسط صراخ لا ينقطع ولا يمكن معرفة كنهه، وحافلات تهزأ من ميكروباصات، وميكروباصات تبصق على سيارات، غابة الصاج والحديد والإسمنت، البقاء فيها للأضخم والأكثر وقاحة والأعنف إجرامًا. لم يكن مزلقان بولاق الدكرور يبعد أكثر من مائة متر عن

الحجر الجيري الأبيض المستطيل الذي يريح أحمد عليه مؤخرته، ولكنه نتيجة لإصابة روحه بتلك الكهولة المفاجئة ظن بصورة يقينية أنه لا يمكنه بأي حال من الأحوال اجتياز تلك المسافة. كان صراخ الأطفال وكلاكسات السيارات وخناقات السائقين، وهدير المحركات، وأصوات ضرط المركبات بثاني أكسيد المنجنيق قد بدأ يعلو تدريجيًا ويضغط بصورة لا إنسانية على طبلة أذن أحمد حتى كادت تنفجر. بذل جهدًا خارقًا لإغلاق حواسه بالضبة والمفتاح وضم أذنيْه إلى الداخل كما يضم النسر جناحيه. فجأة لم يعد يسمع شيئًا إلا شخللة رئتيْه من حركة دخول وخروج الهواء الملوث إليها. أغلق عينيْه ونفذ بكل هدوء إلى داخله. تذكر مشهدًا في فيلم كاراتيه عندما قام البطل هو الآخر بإغلاق حواسه للتركيز في الضربة القادمة. مصيبته أنه لا يعرف لمن يوجه ضربته القادمة، وهل يستطيع وهو في هذه السن أن يوجه أي ضربة على الإطلاق؟

✦ ✦ ✦

أمي عظيمة، أعظم من العالم كله. رمت في روحي ألف طاقة أمل وأمل. رجعت يومها البيت الساعة ثمانية بالليل، وأنا في العادة ما كنتش بأرجع قبل الساعة عشرة. رجعت باجرجر رجلي. كنت حاسس إن وزن كل فردة جزمة بيجي ميت طن. أول ما دخلت البيت وبصّت هي في عيني، حسّيت إنها نفدت إلى روحي كلها. أمي بتعرف كل حاجة من مجرد نظرة. والله ما أنا عارف ازاي؟ قالت لي بصوتها الحنّين:

ـ «ولا يهمك يا حبيبي.. الخيرة فيما اختاره الله».

وحطت إيدها على قورتي مدة، وبعدين باستني:

- «الدنيا يا أحمد دوّارة زى السواقي. مانتاش عارف في اللفة الجاية حتطلع من جوفها إيه بالضبط؟ والسواقي يا أحمد حتجيب إيه غير مية. والمية دايما خير. أما شوية الطين اللي شابكين في المية دول أنا يا حبيبي حاشيلهم من على حياتك».

اتفرجنا ليلتها على فيلم السهرة، كان «سي عمر» وهي بتموت في نجيب الريحاني وقالت لي بعد ما خلص «شفت.. ما ضاقت إلا ما فرجت». قعدت أسبوع في البيت مش عايز أتحرك، كنت مبسوط بالقعدة مع أمي، حسيت بأمان. فضلت شهر بعد كده أدوَّر على شغل وفي نهاية الشهر ده قررت أقطع علاقتي بهاجر وكانت عندي أسباب وجيهة.

✧ ✧ ✧

«هاجر» قصة حبه الأول والأخير. قصة القرن كما يسميها أصدقاؤهم في الكلية. وقعت عيناه على عينيْها الواسعتيْن في يوم الأول من يناير عام ٢٠٠٠ في الساعة الحادية عشرة وتسع وخمسين دقيقة وتسع وخمسين ثانية بالضبط. وعندما التقت عيناهما دقت ساعة الجامعة الثانية عشرة ظهرًا لإعلان مرور اثنتى عشرة ساعة على بداية القرن وتأريخ بداية قصة حبهما المشتعلة. كان هو في الكافتريا يحتفل مع أصدقائه الجدد بعيد ميلاده الثامن عشر بالتهام عشرات ساندوتشات الكبدة بقرون الفلفل الحامي، وكانت هي تسير في قافلة من البنات لاستكشاف جنبات الجامعة وأشكال الطلبة ولم يكن قد مر على التحاقهن جميعًا بجامعة القاهرة سوى

أشهر قليلة، لم تكن هاجر أجملهن أو أطولهن أو أقصرهن أو حتى أقربهن إليه ولكن أحمد لم ير غيرها في تلك اللحظة ولا فيما تلا ذلك من لحظات. أما هو فقد كان أجمل الطلاب جميعًا، تبدو على وجهه سمات العظماء دون أي قصد منه، وكأنه قد ورث العظمة من ملوك غابرين سيطروا على ممالك بعيدة. فلم تر قبيلة النساء إلا هو. وظلت الغيرة من هاجر تنهش قلوب زميلاتها على مدار أعوام الكلية.

في الساعة الثانية عشرة وثانيتين، ابتسم لها ابتسامة واسعة أربكت دورتها الدموية بالكامل فقد ضخ القلب ضعفي كمية الدم المعتادة إلى خدها الأيمن وإلى أذنها اليسرى مما انقص على ما يبدو كمية الدماء الذاهبة إلى الساق؛ فارتجفت ركبتها اليسرى وتعثرت في خطوتها. لم يفعل أحمد أكثر من هذه الابتسامة. وتكفلت هاجر بعد ذلك اليوم بالباقي. بدأت قصة حب القرن واستمرت على مدار الأعوام تحت رعاية خاصة من الإله إيروس ومناوشات من الإله هيميروس. كان هو هادئًا نقيًا، وكانت هي متيمة مع شعور عميق بأن الله كافأها هي الفلاحة بنت طمي النيل بأمير الأمراء. بعد تخرجهم كانت قاطعة وحاسمة كحد السيف مع أهلها، أعلنت أنها سوف تضع كفها تحت ذقنها إلى حين يتبسم الزمان ويتمكن هو من التقدم لخطبتها، حتى لو انتظرته من السنوات عدد تلك التي بقي خلالها الجني البائس يترقب ظهور علاء الدين ليحرره من سجنه. أدرك أهلها أنها في ذلك الأمر لا تعرف المزاح. وعندما تحدث معها والدها في بعض التفاصيل الخاصة بالشقة والمهر والشبكة؛ ردت عليه هاجر بحسمها التقليدي أنه يكفيها إشارة من إصبع أحمد

الصغير حتى تكون ملك يمينه وأن على والدها توخي الحذر فهي قادرة على قطع أي علاقة تقف حائلًا بينها وبين أحمد.

✦ ✦ ✦

قرار إني أسيب هاجر قرار مش سهل على الإطلاق، ما تفتكريش إنها علاقة زي اللي بتربط أي اثنين في الكلية وبتنتهي أول ما يتخرجوا. لأ . وكمان ما تفتكريش إن علاقتي بيها لها علاقة بالجنس. اللي بيربطني بيها الملائكة مش الشياطين. هاجر بتجري في عروقي زي الدم، هي وأمي. قصدي أمي وهي. اللي عايز أقوله إن الاثنين دول هما وطني وأرضي وسمايا. بس أعمل إيه؟ والله مش شايف حل تاني.

بعد ما وصلنا الليسانس، الآمال إن الواحد يعرف يدخل النيابة كانت كبيرة واتعلقت بيها. وبعدها اتعلقت بروب المحامي. كانت كلها محاولات جادة علشان أنسى موضوع السفر. أمي من ناحية وهاجر من ناحية تانية خلوني أقول لنفسي: لازم أحاول استنى في البلد دي.. قلت اتعلق إن شالله بقشّاية. ولكن حتى القش طلع شاحح اليومين دول. كل الطرق اللي مشيت فيها ما كانتش بتوصّل إلا لطريق واحد هو الهجرة من مصر وبأسرع ما يمكن.

هاجر من ناحيتها عارفة الوضع كويس وماعندهاش مانع أسافر، وهي تحصّلني بعد كده. بس أنا وصحابي بقالنا سنين ما بنتكلمش في موضوع تاني. عارفين كل وسيلة للسفر، درسنا كل فكرة نجحت مع أي واحد. كل طريقة ولها سعرها والمصيبة إن أرخص وسيلة هي الإنترنت. وفي الشهر ده كنت يوماتي بالليل أروح على نادي

للتكنولوجيا جنبنا هو عبارة عن دكانة مستطيلة مترصص فيها يمين وشمال حوالي عشرة أجهزة كومبيوتر متوصلة بالانترنت. قدرت أخيرًا أتعرف على واحدة أمريكانية وأنا باعمل (Chat) ويوميها بالليل قررت أقطع علاقتي بهاجر لأن ضميري ما سمحليش إني أخونها للحظة. وأخون مين؟ أخون روحي؟

✧ ✧ ✧

في اليوم الأول من يناير عام ٢٠٠٠، وفي تمام الساعة الحادية عشرة وخمس وخمسين دقيقة، جلس أحمد على مكتبه في الوزارة وطلب ألا يزعجه أحد، فخرج الجميع وتركوه وحيدًا. بالطبع ليس الجالس هنا هو «أبو حميد» وإنما الدكتور أحمد نظيف الوزير المصري للاتصالات والمعلومات. وفي الساعة الحادية عشرة وتسع وخمسين دقيقة وثمانٍ وخمسين ثانية هش ذبابة كانت قد حطت على زجاج نظارته ونظر إلى الشباك متأملا الأفق العسجدي، وفي تمام الساعة الثانية عشرة ظهرًا بالتمام اكتمل في ذهنه مشروع نوادي التكنولوجيا وكأن إلهامًا من السماء قد حط هو الآخر على رأسه، وأضاءت وجهه ابتسامة راضية. وطرأ على ذهنه (في اللحظة ذاتها التي تعثرت فيها هاجر في مشيتها بعد أن اعترت ركبتها اليسرى ارتجافة طفيفة) موضوع الحوار الذي سوف يوجهه إلى طلبة جامعة القاهرة لمشاركتهم أحلامه. وفي يوم الاثنين ١٧ من يناير عام ٢٠٠٠، توجه الدكتور أحمد نظيف إلى جامعة القاهرة وصرح في كلمته في احتفالية «مصر والألفية الجديدة» أمام أحمد وهاجر وشباب الجامعة أنه سوف يتم الإعلان خلال شهر فبراير عن برامج

تدريبية مكثفة لخريجي الجامعات المصرية في مجال تكنولوجيا المعلومات. وأن الوزارة، سوف تتبنى في خطتها مشروعات لإفادة الشباب، ومنها مشروع عمل سجل رقمي لحصر البطالة في مصر، ومساعدة الراغبين في العمل من خلال إنشاء شبكة للعمالة تتيح معلومات عن فرص العمل والأماكن المتوافرة بالجهات الحكومية والخاصة في الدولة أمام الباحثين عن العمل.

عاد د. أحمد نظيف من الجامعة وفي ذهنه أنه بافتتاح نوادٍ للتكنولوجيا في كل أنحاء مصر، تتوفر بها أجهزة حاسبات وإنترنت سريع، وبأسعار رمزية سوف يتيح للشعب المصري أن يدخل عصر المعلومات، ومن المؤكد أن ذلك سوف يفتح آفاق عمل جديدة خاصة في مجال التصدير؛ فالمنتج المصري سوف يتمكن أخيرًا من الوصول إلى أسواق عالمية جديدة.

وفي يوم ٢ من نوفمبر عام ٢٠٠٠ قام الدكتور عاطف عبيد رئيس الوزراء المصري بافتتاح نادي تكنولوجيا المعلومات بجهاز تشغيل الخريجين بالجيزة يرافقه وزير الاتصالات الدكتور نظيف والدكتور مفيد شهاب وزير التعليم العالي والدولة للبحث العلمي وحسين كامل بهاء الدين وزير التعليم واللواء مصطفي عبد القادر وزير التنمية المحلية، والسيد جمال مبارك رئيس جمعية جيل المستقبل والمستشار محمود أبو الليل محافظ الجيزة وقد عرض الدكتور أحمد نظيف خطة الوزارة في تنمية الموارد البشرية في مجال تكنولوجيا المعلومات فأكد أنه في إطار هذا المحور من خطة التطوير للاتصالات والمعلومات تم تنفيذ المرحلة الأولى

من إنشاء ٣٣ ناديًا لتكنولوجيا المعلومات في ست محافظات هي القاهرة والجيزة والمنيا وبني سويف والغربية والإسكندرية.

✧ ✧ ✧

أنا أول مرة أسمع فيها عن نوادي الانترنت كنت في أولى كلية، ساعتها كنا سمعنا عن واحد أكبر مننا بسنتين في الكلية فضل راقد على الانترنت لغاية ما اتعرف على واحدة ألمانية من خلال الـ (Chat) وقدرت تساعده علشان يسافر لها، وربنا بارك له وقدر يطلع ألمانيا. كان فاضل له على امتحان الليسانس ثلاثة شهور والقنصلية الألمانية طبعا ما صدقتش إنه حيسيب الكلية ومش حيرجع، فادوله الفيزا لمدة أسبوعين اعتبرها هو قرنين، وطبعًا لسه قاعد هناك لغاية دلوقتي. قعدنا نحلم بالموضوع ده ونقول لو جات لغيرنا يبقى حتلف وتلف ومسيرها تجيلنا، بس علينا ان احنا نقف في الطابور. لكن أول مرة رحت نادي من نوادي التكنولوجيا كان في الصيف اللي بعده مع صلاح وبيتر. صحابي في الكلية. وهناك سمعنا عن أكثر من واحد ربنا كرمه وعرف يسافر عن طريق الإنترنت. آخرهم إبراهيم.. وده بقى دفعتي وعارفه كويس جدًا ولسة مسافر من ست شهور.

✧ ✧ ✧

سافر إبراهيم بمرافقة خالته المقيمة في انجلترا منذ حوالي ربع القرن والحاصلة على جنسيتها، بتأشيرة سياحية اقتلعوها من فم الأسد بدعم غير مسبوق من خالته وزوج خالته، أقام معهما في

«هوك» وهي مدينة صغيرة في هامبشاير تبعد عن لندن بحوالي الساعة بالقطار. تخيل إبراهيم أن القرصان الكابتن «هوك» من مواليد هذه المدينة. واعتبر نفسه أحد أبطال «جيمس باري»، قرصانًا هو الآخر ذهب إلى «هوك» لنهب ثرواتها والاستيلاء على ذهبها. كان ينوي بالطبع ألا يعود أبدًا. وبدأ العمل بعد وصوله بيومين في مزرعة يمتلكها بريطاني عجوز. ولكن لا تأتي الرياح دائما بما تشتهي سفن القراصنة. مات والده فجأة واضطر إبراهيم إلى العودة فقد كان الابن الوحيد وعليه أن يقوم بالعديد من الواجبات المقدسة، بالإضافة إلى أنه في قرارة نفسه كان مطمئنًا بأنه سوف يستطيع العودة. «ولكن الخروج من الحمام أسهل من دخوله ثانية» لم يستطع الحصول على تأشيرة سياحية جديدة بعد أن ضرب بمدة التأشيرة الأولى عرض الحائط. ولم يكن أمامه غير نافذة شبكة المعلومات يمكنه من خلالها أن يطل على العالم الحقيقي. أقام أمام الشاشة قرابة ستة أشْهر إقامة دائمة شاملة الوجبات تعرَّف خلالها إلى عشرات الفتيات ولكن لم تكن واحدة منهن تصلح للدور الذي يبحث عنه. ولكنه استطاع بعد ستة أشْهر أن يتعرف على امرأة من المدينة نفسها، من «هوك»، تكبره بحوالي العشرين عامًا، وأقنعها بعد ستة أشْهر أخرى أن تأتي إلى القاهرة على نفقته الشخصية لكي يتزوجا. وبالفعل حضرت إلى القاهرة وأضاء إبراهيم أصابعه لها شمعًا وأثبت لها مدى فحولته ورقته وعشقه لها وتزوجا. ولكن على الرغم من العقد المبرم لم تستطع الحصول له على تأشيرة سفر من القنصلية البريطانية في القاهرة. عادت إلى هوك ورفعت قضية أمام المحاكم البريطانية تطالب فيها بحقها في أن ينضم إليها

زوجها. ويبدو أن القاضي عندما شاهدها في المحكمة، وأدرك استحالة أن تجد لها ذكرًا آخر، رأف بحالها وحصلت على حكم محكمة بعد أربعة أشهر من عودتها يلزم القنصلية بمنح إبراهيم تأشيرة سفر إلى انجلترا.

✦ ✦ ✦

أهي دي لو محكمة مصرية كان إبراهيم سافر برضه لكن بعد سن المعاش علشان يركِّب هناك طقم سنان، ما احنا محامين وعارفين. لكنها والحمد لله كانت محكمة بريطانية وخرج إبراهيم من وكسته السوداء. لازم احنا كمان نفكر إزاي نخرج من الحلقة اللي مالهاش آخر. كلمت هاجر وطلبت مقابلتها في جنينة الأورمان، أصلي باموت في الجنينة دي. ما سيبتش قدم واحدة في الـ ٢٨ فدان ما مشيت فيها، حددت معاها ميعاد يوم واحد يناير سنة ٢٠٠٥ الساعة ١٢ الظهر، في عيد الميلاد الخامس لأول نظرة وفي المكان اللي إحنا قضينا فيه أجمل اللحظات. المكان ده أصله فيه تاريخنا كله، أول كلمة باحبك وأول مسكة إيد وأول حضن وأول بوسة. آه يا هاجر أنا باعشق كل حاجة فيكي.. حتى التعويرة الصغيرة اللي تحت دقنك. قبل ما انزل الصبح ترددت أقول لأمي ولا لأ. بس ما اقدرتش أقول لها. كان عيد ميلادي وهي كانت فرحانة ونازلة فيَّ بوس وعمالة تحكي لي عن التورتة اللي كانت ناوية تعملها. فضلت حاطط بوزي في الجرنال لغاية ما وقعت على خبر غريب جدًا: زلزال تسونامي موّت عشرات الآلاف من الضحايا بين البشر، ولكن مفيش أثر لحيوانات نافقة. في سريلانكا وفي مكان معين

فيه أكبر تجمع للحيوانات البرية مات ٢٢ ألف بني آدم سريلانكي لكن ما لاقوش جثة حيوان واحد ولا فيل ولا حتى زرافة. واحد من العلماء قال: «أعتقد أن الحيوانات يمكنها أن تتوقع الكوارث. لديها حاسة سادسة. إنها تعرف عندما يقع شيء».

طبعًا لو كان فيه حيوانات برية في مصر زي سريلانكا كانت أكيد كلها حتهرب فالكارثة قرَّبت جدا. اللي يفقع إنهم أكيد كانوا حيدوهم كلهم فيزا. أصل الأوربيين والأمريكان بيفضَّلوا الحيوانات عن البني آدمين الوسخين اللي زي حالاتنا. نزلت من البيت وركبت ميكروباص وقعدت أدوَّر طول السكة لغاية جنينة الأورمان على كلب ولا قطة في الشارع. الغريب ما لقيتش!!. قلت: خلعوا الكلاب وسابونا.

وصلت قبل الميعاد بحوالي ساعة قعدت تحت الشجرة اللي شافت بعينيها وفروعها وأوراقها أجمل لحظات حبنا. قعدت أقوِّي نفسي وأبص للسماء أطلب مساعدة وقوة علشان أعرف أقول اللي في قلبي. قصدي اللي في عقلي. ولكن السماء حتساعدني إزاي وهي كانت شاهدة على العهد اللي قطعناه على بعض. كان عهدنا لبعض إن السماء اللي فوقيا دي بالذات حتكون شاهدة على فرحنا، علشان كمان أبويا يقدر يفرح معانا ويبص عليَّ من فوق وأنا داخل دنيا جديدة، ومن يومها اتفقنا إن حفلة فرحنا حتكون في مكان مفتوح عشان السماء تقدر تكون شاهدة علينا، وفجأة ولأول مرة أدركت إن دي ممكن تبقى آخر مرة أشوفها فيها في حياتي. ارتعشت.. لكن سألت نفسي: وأنا في إيدي إيه أديهولها غير شوية هواء محملين بتلوث ذري قاتل؟ وبدل ما تنزل عليَّ قوة تهد جبال،

نزل عليَّ هدة جسم ولقيت نفسي عمال أعيط لوحدي، لأ ماكانش عياط كانت شحتفة.

✦ ✦ ✦

ازدحم المكان.. في حديقة الأورمان.. ألف.. ألفا إنسان، لكني لم أرَ سوى اثنيْن.

كأن الهواء الذي يصفر في الحديقة جعلهما يلتحمان.. مؤكد أنه يهمس لها بكلمة: أحبك.

مؤكد أنها تهمس له بكلمة: أحبك، لكنهما لا يتواعدان، اثنان.. أرق من أن يكونا كاذبيْن.

ازدحم المكان.. في حديقة الأورمان.. ألف.. ألفا إنسان، لكني لم أرَ سوى اثنيْن..

وفجأة شرع الفتى في البكاء، وجرت دموعه قطرات مرئية..

اثنان.. يتمزقان .. بحزن أكبر من طاقتيْهما.. وقد تركا للكلاب فرصة التحكم في مصائرهما.

الآن.. الاثنان يبكيان.. وقد فقد كل منهما القدرة على الاستماع إلى أي شيء، ما عدا صوت بكاء الآخر، ثم، وببطء شديد، مثل جسدين في خشوع الصلاة، افترق الجسدان، وتمزقا في الفراق، بل أعني أنهما يصرخان، من هول الانفصال.. ثم يلتحمان من جديد، يرجعان كلًا واحدًا.. كشعلة اللهب.. ثم يفترقان، يمتزجان بالأعين الباكية، وبينما يتراجعان.. يستنفدان الوداع، يحتسيان بضع كلمات،

وتتحرك يد طائشة، وفجأة.. يولي الإدبار، من دون أن يلتفت إلى الوراء، ويختفي.. تبتلعه الحياة..

الحياة التي لا تقدم الهدايا لأحد، اما هي، فتظل مسمرة في مكانها: قلب يدمي وفم مفتوح، فقد أدركت موتها.. من دون كلمة.. من دون صرخة، أدركت موتها.

أخذت تهوي، يدها تلامس الأرض، إلى أن بلغت ألف عام، وها هي في ظلمة الظهيرة.. تدور حول نفسها، موقنة أنها سوف تدور إلى الأبد. لأنها اليوم لم تفقد حبيبها، بل فقدت الحب، إنها الآن تشعر بالوهن، قبل أن يتم بيعها لآخر، وأنا أرقبها من موقعي هنا، لكنني لا أملك لها شيئا، سوى أن أدعها ليبتلعها موج البشر.(١)

✦ ✦ ✦

لا يتذكر أحمد على الإطلاق كيف وصل من حديقة الأورمان إلى فراشه. حاول أن يسترجع لحظة، صورة، مشهدًا، لكن الظلام كان كثيفًا داخله. لا يعرف حتى أسار على قدميه تائهًا.. أم استأجر سيارة.. أم ركب على جناح رخ غاضب؟ وجد نفسه على حين غرة واضعًا رأسه تحت الوسادة رافضًا التنفس. وعندما تسرب خلسة شعاع ضوء رفيع إلى حدقة عينه اليمنى، أغلقها بتشنج متلمسًا الظلمة متوسلًا أن ترافقه حتى لحده. اضطر في نهاية الأمر إلى أن يفتح رئتيه ليُدخل قدرًا من الهواء ثم ـ بعد عناد طال ـ أخرج رأسه

---

(١) ترجمة بتصرف لقصيدة جاك بريل «أورلي» التي كتبها عام ١٩٧٧ وقد غيرت مطار أورلي وهو اسم القصيدة بحديقة الأورمان.

من تحت الوسادة ثم فتح عينيْه، وأخذ نفسًا عميقًا سحب خلاله أكسيجين القاهرة الكبرى كله. تأمل حجرته التي ضاقت بكتب القانون العملاقة التي تتراص الواحد فوق الآخر وتستند كل رصة إلى حائط تكاد تقصم ظهره.

قام وفتح دولابه حيث تستلقي مرآة طولية على ظهر إحدى ضلفتيْه. نظر إلى عينه اليمنى فقد كانت ترسل إلى مخه إشارات ألم حاد فوجدها بلون الدم. لم يهتم كثيرًا.

توجه إلى الكاسيت التاريخي في جلسته المعتادة فوق مكتبه الحبيب ووضع شريطًا لأم كلثوم وبدأ يدور في الحجرة كأسد في قفص حديقة حيوان بائسة.

أنساك.. ده كلام

أنساك.. يا سلام

لمح داخل الدولاب المفتوح القميص الكحلي الذي أهدته له هاجر منذ شهرين ينظر إليه بعينين مفتوحتين. فأغلق الضلفة وعاد إلى فراشه وتنفس بعمق ثم كتم تنفسه مرة أخرى وأعاد وضع رأسه تحت الوسادة.

✧ ✧ ✧

الخطة كانت في الراس على أساس إني جامد ومتين ولا الميلامين، طلعت خرع وحبي لهاجر ضارب حتى في نخاعي، لكن كنت مقتنع بعقلي إن ده لمصلحتنا إحنا اللي الاتنين، أنا حأعرف أهاجر وهي حتعرف تشوف حالها. أمي لما قلت لها ما

صدقتش. زعلت زعلة كبيرة وقالت لي إن الغلط راكبني من ساسي لراسي وإني خليت بيها ومفيش سبب في الدنيا يبرر اللي عملته في البنت الغلبانة اللي بتحبني دي. وإن أبويا لو كان عايش كان عرف يجوزهالي. وفي الآخر قالت لي اني ما استهيلش آكل التورتة بتاعة عيد ميلادي لأني طلعت ولد قاسي وجحود.

بعدها بكام يوم كلمتني هاجر في التليفون وطلبت مني ان احنا ننسى خالص اللي حصل وكأنه ما حصلش أصلا. لكني فضلت ثابت يا أستاذة على موقفي كأني واقف على حبل في سيرك الحلو من غير عصايا.

المهم إن أنا من يومها بطّلت أشعر بتأنيب الضمير، وأنا بأكلم «إليزا» على الانترنت. ودي كانت أهم حاجة بالنسبة لي. وقررت إن أنا لازم أشتغل أي حاجة وبأسرع وقت لغاية ما ربنا يقدرني وأخرج من البلد دي على إيد إليزا.

✦ ✦ ✦

ترتكز خطة أحمد وياسر وصلاح وبيتر وبقية الزملاء على الوجود اليومي في مراكز التكنولوجيا. يبدأون في الاتصال العشوائي عن طريق الـ (MSN Messenger) والـ(Yahoo Messenger) والـ(Skype) والـ(AOL Instant Messenger) بأي فتاة تكون على شبكة المعلومات. ويوجدون عامة فيما بين الثامنة والثانية عشرة مساء بتوقيت أوروبا الغربية أو الولايات المتحدة. يبحثون عن امرأة ناضجة يتراوح عمرها ما بين الخامسة والثلاثين والخامسة والأربعين من العمر بحيث تكبرهم بحوالي الخمسة عشر عامًا

تقريبًا، يكذبون عامة فيما يخص سنهم، يدعون أنهم يقتربون من الثلاثين. ويفضلون أن تكون تلك المرأة متوسطة أو منعدمة الجمال من الشريحة المتوسطة أو الدنيا، ومن المهم أن تكون قد عاشت قصة حب طويلة انتهت بالفشل منذ أكثر من عام. ويفضل أن تكون تلك العلاقة قد أثمرت عن طفل أو أكثر؛ بحيث تكون فرص المرأة في بلادها للدخول في علاقة عاطفية محدودة. ولو كانت عناية الرب حاضرة تكون المرأة قد وصلت إلى حالة يأس كاملة من إمكانية إقامة علاقة جنسية مستقرة مع أى رجل من بلدها. وهذه المواصفات التي تبدو شديدة التعقيد ليست كذلك. فتصل نسبة الطلاق في أوروبا من ٤٠٪ إلى ٥٠٪، وتبدأ الكثير من تلك العلاقات في سن مبكرة جدًا عندما يتركون منزل العائلة، وتنتهي بأطفال يعيشون دون والدهم أو والدتهم، ونتيجة لأسباب اجتماعية معقدة تعيش الكثيرات من هؤلاء المطلقات في حالة وحدة ثقيلة.

تختلف خطة كل شاب عن الآخر؛ فالبعض يفضلها ساخنة مثل مارلين مونرو، هؤلاء يلعبون على العاطفة وأنهم يفتقدون الحب الحقيقي في بلادهم المتجهمة التي لا تعرف الحب، وأنهم يحلمون بالحب الحقيقي مع امرأة أوروبية كاملة، إلى آخره من أسطوانات الحب المتوافرة في السوق العالمية مع إضافات كل شاب وبهاراته وإبداعاته، والبعض الآخر يفضلونها باردة كحد النصل، أنا أبحث عن فرصة للهجرة، نتزوج لفترة أستطيع خلالها الحصول على جنسية بلدك، ويمكننا الوصول إلى اتفاق يرضي الطرفيْن، قد يكون ماليًا وقد يكون جنسيًا وقد يكون إنسانيًا.

✦ ✦ ✦

أنا مصيبتي إني مش عارف أوفق بين الأخلاق والتعاليم اللي اتربيت عليها وبين الدنيا كلها. بأحاول ومش عارف. أصبح ماعنديش مانع خالص أرشي وأكذب أو أعمل مصائب الدنيا بس برضه مش عارف. الموضوع طلع مش بالنية وبس، كمان الواحد لازم يعرف يبقى وسخ وفاسد.. حاجة تقرف. ضميري بيحكمني ومش عارف ألاقي حل فيه، أنا إمبارح كان معايا واحد جنبي بيعمل (Chat) مع واحدة وكل شوية عمال يسألني على كلمة إنجليزي ويقول لها إنه بيحبها وبيعبدها ومش قادر خلاص، قال إيه.. ميّت في دباديبها ومستعد يكتب معاها عقد إنه ينام معاها مرتين في اليوم لمدة سنتين في مقابل إنها تتجوزه وطبعًا تديله بعدها الجنسية الألمانية. أنا الحقيقة قرفت منه. مش للدرجة دي. أنا رأيي إن كده تبقى دعارة رسمي. أنا مع إليزا حكيت لها عن كل ظروفي وبكل صراحة، ما حكيتش بس قصة هاجر. إنما غير كده عارفة عني كل حاجة وعارفة إن أنا عايز أهاجر علشان مفيش فرصة عمل في بلدي وهي متفهمة جدًا الحكاية دي، دي قالت لي كمان إنهم السبب في كل التخلف اللي إحنا فيه وإنها حاسة بتأنيب الضمير على اللي إحنا وصلنا له. وإن الاستعمار زمان كان أهون من اللي بيعملوه الأمريكان فينا النهاردة. واستغْرَبت جدًا إن أنا محامي وحالتي عيضة للدرجة دي. إليزا عايشة في نيويورك وبتشتغل مدربة موديلات في بيت أزياء وبتاخد تسعمائة دولار في الأسبوع مرتب، وهي فنانة ورقيقة ومثقفة جدًا وأهم من كل دا دمها خفيف وبنت نكتة.

✦ ✦ ✦

عندما حكى لها أحمد على نكتة أرسلتها له إليزا على الانترنت لم تضحك والدته، فهي لا تجد كل ما يتعلق بسفر ابنها مضحكًا، بل تراه على العكس يدعو إلى البكاء. حاول أن يشرح لها كثيرًا من استحالة البقاء وأنه لا يوجد ما يمكن عمله في أرض المخروبة. لكن أمه على الرغم من كل ما تعانيه من أزمة مالية وعلى الرغم من فشل ابنها في إيجاد عمل. لم تستطع يومًا هضم فكرة الخروج؛ فالمحروسة سوف تظل محروسة إلى يوم الدين. أجمل بلاد الأرض. الوطن الذي ذكر في القرآن. الناس الطيبة والأخلاق والروح التي لو رفعت هامتها لطاولت السماء. عاشت طوال حياتها وهي تغني بالأحضان يا بلادنا يا حلوة بالأحضان .. والغايب ما يطيقش بعادك .. يرجع ياخدك بالأحضان. عاشت انتصارات وانكسارات. وشاركت في مظاهرات. لم تفهم أبدًا أن ابنها منذ ميلاده في يناير ١٩٨٢ لم تشاهده أبدًا يشارك في أي مظاهرة. ثم تعود وتتساءل: هل حدثت مظاهرات حقيقية منذ ذلك التاريخ؟ لا تعلم. تخرجت «فوزية» في كلية الآداب قسم علم نفس عام ١٩٧٢. منذ التحاقها بالكلية بعد النكسة والجامعة في حالة فورة والطلبة في حالة ثورة. تتذكر مظاهرات ١٩٧٢ وكأنها الأمس وهي تهتف مطالبة بالحرب حتى شرخت حنجرتها وظلت صامتة بعدها لمدة أسبوع بأمر الطبيب. ماذا حدث؟ يرد أحمد بعذوبته المعتادة أن المعلومة الوحيدة التي تنقلها له الدولة منذ ميلاده وحتى الآن، أن مصر دولة بلا حول ولا قوة. وأنها تعيش بفيض خير الأمريكان علينا. فهم الذين يمنحوننا القمح ويمنحوننا المال، وأن كل المفاتيح في أيديهم، وأننا لا نمتلك إلا أبوابًا مغلقة في وجوهنا، كانت قصة

الأطفال المحببة له في زمانه الأول تحكي أن هناك بابًا واحدًا فقط لا نملك فتحه وما عدا ذلك فلننعم بالمرح في بقية الحجرات، أما أن تكون كل الأبواب في وجوهنا مغلقة فهذا أمر تستحيل معه الحياة. لا توجد يا أمي حياة سياسية ولا اقتصادية ولا اجتماعية، إنما هياكل خاوية تسكنها الأرواح الشريرة. ذكَّرها أحمد بالفيلم الذي شاهداه على قناة سعودية، «ترومان شو» الذي قام بتمثيله جيم كاري، عندما كان يتصور أنه يعيش حياة عادية ثم يكتشف ونكتشف معه أن كل حياته كانت مزيفة ومصطنعة وأن كل ما حوله مجرد هياكل خشبية للتصوير، حتى البحر بجبروت أمواجه كان صورة من أجل عرض تليفزيوني يدر أرباحًا طائلة. نحن نعيش أيضًا الحياة نفسها، والأمريكيون يتفرجون علينا وهم يضحكون.

✦ ✦ ✦

أمــي

إليزا بتحبني وأنا كمان اتعلقت بيها قوي.

وخلاص أنا ناوي الأسبوع الجاي يوم عيد ميلادها في ٥ مارس أتفق معاها إزاي ممكن تساعدني على الخروج.

✦ ✦ ✦

تعلق أحمد بأهداب الأمل. ولكنه نتيجة لسذاجته وطيبة قلبه لم يستمع مرة جديدة إلى نصائح الجميع. تعلق بإليزا التي كانت في مثل سنه، شديدة الجمال. لم تكن مثخنة بعد بالجراح، أكد له كل أصدقائه أنه يعيد مرة ثانية حلم النيابة المخادع. فإليزا لا تنطبق

عليها المواصفات والمقادير المدونة في كتاب أبله نظيرة. قالوا له إن عليه أن يكون عاهرًا لكي يستطيع الخروج. رفض أن يستمع إلى أحد، ولكن أثبتت الأيام صحة ما نصحوه به. فقد كانت أهداب وعود إليزا من الرقة بحيث انهارت سريعًا. لجأت إلى أسلوب جديد لتسريبه، بعد أن شعرت بتعلقه الزائد عن الحدود الآمنة. فقد اختفت لمدة أسبوع كامل كان خلالها أحمد في حالة يرثى لها حتى إنه حاول الاتصال بها تليفونيًا ولكن حتى هاتفها كان مغلقًا. وفي اليوم الثامن دخل على الانترنت وفوجئ بها (Online) قفز قلبه فرحًا ولكن جاءت الكلمات من والدتها من الناحية الأخرى من الأطلنطي لتعزيته في وفاتها منذ أسبوع في حادث تصادم سيارة في أثناء احتفالها مع أصدقائها بيوم عيد ميلادها.

هاجر مصطفى

أنا اتولدت في تلا يوم ٢٢ نوفمبر عام ١٩٨١ وتوفيت في حديقة الأورمان في أول يناير عام ٢٠٠٥ في الساعة الثانية عشرة تمامًا. أنا دلوقتي ميتة.

✧ ✧ ✧

وصلت هاجر حديقة الأورمان عشر دقائق قبل موعدها. متألقة والسعادة تقفز من مسام وجنتيْها، كان فكرها مشغولًا هل ستعجبه هديتها لعيد ميلاده؟ ظلت تفكر منذ فترة فيما يمكنها أن تحضره له. أهدته منذ بداية القرن وحتى ذلك اليوم كل ما يمكن أن يُهدى للذكور: سلسلة مفاتيح، محفظة، قميصًا، حزامًا وعندما تشجعت جدًا أهدته بيجاما. كانت في أثناء رحلة بحثها عن هدية تقول: «المشكلة إن هدايا الأولاد عد غنمك يا جحا، إنما هدايا البنات، ماعندوش بقى حجة». حتى وجدتها أخيرًا وصرخت فرحة كما أرشميدس: «وجدتها». هي الآن مستلقية داخل حقيبتها في علبتها

الذهبية محاطة بشريط من نور. وهي تدخل من البوابة متوجهة إلى شجرتهما المعتادة...

«ها هو حبيبي ينير الفضاء بشمسه المتوهجة».

✦ ✦ ✦

أحمد لما طفى شمسه سابني لوحدي في جنينة الأورمان ولقيت نفسي بأشيخ شوية بشوية. حاولت أنده عليه علشان على الأقل ياخد هدية عيد ميلاده لكن صوتي ما طلعش. فضل يبعد ويبعد لغاية ما بقى نقطة نور في آخر الدنيا. فضلت متسمرة في مكاني وأنا حاسة بكل لحظة روحي بتشيخ فيها.. كل دقيقة تعدي أعجّز فيها سنة لغاية ما وصلت لتسعين سنة. جيت أقوم ماعرفتش، حاولت مرة واتنين مفيش فايدة، كنت محتاجة لطبيب مداوي واتنين يسنّدوني، وبعد ما مت وشبعت موت لقيت نفسي قادرة أتحرك، كأن روحي بعد ما طلعت خلتني أحس بالخفة. ركبت المترو علشان أروَّح وأنا مش عارفة أنا مين؟

✦ ✦ ✦

لم تفكر هاجر على مدار السنوات السابقة في مستقبلها من دون أن يكون أحمد على يمينها، كل شاردة، كل حلم، كل فكرة كان أحمد بطلها. لو يعلم أحد معنى الخواء لفهم أين تقطن هاجر الآن؟ كانت كل الأصوات التي تسمعها مواء وكل الألوان بيضاء. كثيرًا ما اعتبرت هاجر نفسها محظوظة. لم تذهب لحفلة إلا وفازت في التمبولا، تلعب طاولة مع والدها فيأتمر الزهر بأمرها، تلعب

كوتشينة مع زينب أختها الصغيرة فتجد الأولاد الأربعة والسبعة الكومي بين أوراقها. وكانت زينب تداعبها أحيانًا وتقول لها: ألا يكفيك الولد «الهارت» (Heart) أريد الثلاثة الآخرين. لم تصدق هاجر المثل الشعبي «المحظوظ في اللعب متعوس في الحب» حتى يوم الأول من يناير ٢٠٠٥.

والدها على العكس كان على يقين أن علاقتها بأحمد هي مسألة وقت ليس إلا؛ لذلك كان يبحث لها عن عريس على الرغم من تدلهها في الحب. يعلم أن عليه فقط الانتظار قليلًا، وعلى أي حال فالانتظار أصبح صناعته منذ خرج على المعاش.

لقد أحيل والدها الدكتور مصطفى حسين إلى المعاش منذ عام ونصف العام. كان أستاذًا في كلية الفنون التطبيقية، قسم تصوير، تزوج بعد الأربعين من سعاد عبد الله التي تخرجت في الكلية نفسها قسم إعلان، ولكنها لم تعمل في أي يوم من الأيام. ظلت طوال حياتها نادمة على ذلك وكانت كلما حانتْ الفرصة أعلنت لزوجها في غضب أنه أضاع لها مستقبلها المهني. رزقهما الله ببنتيْن. وعلى الرغم من أنهما من المدينة نفسها إلا أنهما تعارفا عند التحاقها بالكلية. كان أستاذًا وكانت طالبة بالسنة الأولى. عرف أصلها وفصلها وتقدم بصورة رسمية إلى والدها دون حتى مفاتحتها في الأمر. ظل الأب يدرِّس التصوير طوال حياته، ولم يصور شيئًا يذكر. لكن لم يترك ذلك أي شعور بالمرارة لديه، فقد كان سعيدًا وراضيًا بما وصل إليه في حياته.

تأكد شعوره بأنه إنسان حباه الله بحبه عندما التقى أيمن صبحي تلميذه القديم أمام حديقة الأورمان عندما كان خارجًا من كلية الفنون التطبيقية في اليوم الأول من يناير عام ٢٠٠٥ في الساعة الثانية عشرة ظهرًا. فما إن وصل أمام تمثال أحمد شوقي حتى وجده يتوجه إليه بحرارة:

ـ أهلا أهلا دكتور مصطفى.. كل سنة وأنت طيب. انت مش فاكرني؟ أنا أيمن صبحي .. تلميذك يا دكتور.. اللي كنت اشتريت لك كاميرا من لندن.

ـ أهلا يا أيمن. أيوه افتكرتك. وانت طيب يا سيدي. أنا كنت سمعت إنك هاجرت.

ـ ما أنا فعلا هاجرت لأمريكا من حوالي عشر سنين.

ـ ياه ده الدنيا بتجري قوام قوام. وبتعمل إيه هنا؟ جاي زيارة؟

ـ والله يا دكتور الوحدة صعبة وجيت أدوَّر على عروسة علشان أكمل نص ديني.

نظر الدكتور مصطفى إلى أيمن لأول مرة بتمعن، فحصه جيدًا.. كان متوسط القامة ذا وجه مربع يقبع على رقبة ملاكم، وعينيْن خضراويْن، هذا الخضار المائع الذي لا شخصية له، وفوقهما حاجبان أشقران كثيفان، نظرته مستكينة تحمل من الغباء أكثر مما تحمل من أي معنى آخر. وجد أنه عريس لقطة لابنته. وعندما طرأت الفكرة في ذهنه زغرد قلبه ولكنه لعب دور «التقيل».

ـ وأخذت الجنسية يا أيمن ولا لسه؟

ـ خدتها يا دكتور.

ـ طيب لازم تيجي تزورني.. ده أنا عايز أسألك على حاجات كتير بنسمعها عن أمريكا وتبقى تقول لي إنت بقى على الحقيقة من الخيال. و لّا ما عندكش وقت لأستاذك القديم؟

ـ إزاي بقى.. ده انتم الخير والبركة.

أخرج الدكتور مصطفى ورقة وقلمًا وكتب له العنوان ولم يتركه إلا وكان الموعد قد تم تحديده.. يوم الثلاثاء ٤ من يناير الساعة السابعة مساء.

✧ ✧ ✧

سافر أيمن عام ١٩٩٦ إلى الولايات المتحدة بتأشيرة سياحية سليمة. استطاع الحصول عليها عندما قام بتأليف عمل مسرحي طريف وإخراجه: عند مقابلته للقنصل الأمريكي قام بلبس طاقية اليهود تأكيدًا على تسامحه وتقديره لثقافة الآخر أمام القنصل. توقع أن تنجح تلك التمثيلية ولم يشر كلاهما إلى ذلك في أثناء الحوار.

وصل إلى نيوجيرسي ومعه مبلغ ٨٠ ألف جنيه، تحويشة العمر من عمله تاجر شنطة محترفًا متخصصًا في معدات التصوير على مدار أعوام الكلية.

بدأت قصة خروجه من المحروسة بالتحاقه بعمل في شركة سياحية في الصيف الذي تلا حصوله على الثانوية العامة مرافقًا لمجموعات صغيرة وفي إحدى تلك المجموعات تعرَّف إلى بريطاني يهودي يدعى «جورج»، تاجر في سوهو متخصص في بيع

معدات التصوير المستعملة والمجددة. وبعين التاجر، لاحظ جورج نوعية تلك السلع وأسعارها في القاهرة في أثناء جولة مسائية قام بها بمرافقة أيمن، وأدرك من فوره أنه أمام سوق جيدة لبيع منتجاته. وأبدى أيمن استعداده لأن يتعلم الصنعة وأن يسعى لتسويق سلعه الراكدة في مصر. وتغير مسار حياة أيمن بالكامل. اختار كلية الفنون التطبيقية قسم تصوير على الرغم من أنه لم يكن قد حمل كاميرا واحدة على مدار حياته قائلًا:

«هناك أكيد ح ألاقي زباين.. وح تبقى دراسة وبيزنس ويوم لدنياك ويوم لجيبك».

ثم أبلغ جورج بخطاب طويل أنه التحق بقسم التصوير وأن هناك طلبًا كبيرًا على بضاعته، فأرسل له جورج دعوة لزيارة لندن لكي يُعرِّفَه بالمنتجات المختلفة وبالأسعار ولإعطائه دروسًا في عالم البيع واتفقا أن يتقاسما تكلفة التذكرة على أن تكون الإقامة في منزل جورج. وعلى مدار أعوام الكلية لم يأل جهدًا في تسويق وبيع كل أنواع الكاميرات من معدات للمحترفين وللهواة، ولأنه كان يضطر إلى فكها لتهريبها من الجمارك المصرية، فقد كان يستطيع بيع بعض أنواع الكاميرات التي ليس بها عداد على أساس أنها جديدة، وانتهى به الأمر إلى أنه لم يعد مضطرًا إلى فكها فقد استطاع إقامة شبكة من المرتشين الظرفاء في الجمارك خاصة أنه كان يدخل كاميرا واحدة فقط في المرة. ولم يعترف لجورج بمعلومة أنه كان يبيع المستعمل على أنه جديد حرصًا منه على الحصول على أكبر مكسب ممكن. وبالفعل استطاع خلال سنوات الكلية الأربع أن

ينجح بتفوق فقد قدم خدمات جليلة لكل طاقم التدريس وأن يدخر هذا المبلغ المحترم الذي هاجر به إلى الولايات المتحدة.

✧ ✧ ✧

بعد رحيل الدكتور مصطفى ظل أيمن واقفًا في مكانه أمام تمثال شوقي شاردًا:

«طالما طلب يقابلني بكل الحماسة دي يبقى أكيد فيه سبب. مش معقول عايز يشتري مني كاميرا، احتمال عايزني المرة دي أشتري أنا منه عروسة، يا ترى حتطلع بنته ولّا قريبته ولا حفيدته؟ أنا شفت لغاية دلوقتي ١٨ بنت في أربع أيام ومش عاجباني ولا واحدة. اللي بلدي واللي وحشة واللي شكلها متخلف. ولا آخر واحدة ممقوتة وشكلها غلاوي وطالعة فيها: «أنا شغلي أهم حاجة.. ده أنا وأنا وأنا ...» علشان كدة لابسالي نظارة كعب كباية.. نفسي يا ربي في واحدة تبقى حلوة ومحجبة وعودها معقول ومتخرجة من كلية كويسة. على العموم أنا قدامي خمس أيام كمان. وبكرة عندي مواعيد مع ٤ عائلات وربنا معايا».

✧ ✧ ✧

كان أيمن قد طلب من والدته في رسالة، بعثها مع صديق عائد في زيارة إلى القاهرة أن تبحث له مرة أخرى عن عروس مناسبة. فاته القطار وعليه أن يلحق به سريعًا، وما من عروس موجودة بالمواصفات التي يريدها في الطرف الآخر من العالم. يحلم أن يصبح أبًا، ويخاف أن يضيع حلمه. حدد لأمه موعد زيارته إلى

القاهرة ومدتها عشرة أيام. وفي المطار سلمته أمه قائمة مخطوطة بقلم حبر أزرق على ورقة صفراء اللون وقالت له:

ـ دي يا حبيبي مواعيد العرايس.

لم يكن يتصور أن أمه قد حددت مواعيد مع ما يزيد على الثلاثين عائلة، حولت الأمر إلى مزاد جوارٍ، وكانت كلمة السر: «ابني أيمن أمريكي يعيش في نيويورك وسوف يأخذها معه ويمنحها الجنسية».

وقد فتحت كلمة السر جميع الأبواب وأثبتت أنها أقوى من «افتح يا سمسم». فمغارة سمسم خلت الآن من الجواهر وهاجر الأربعون حراميًا منذ زمن، وهم يحكمون الآن هذا الوطن الجديد البعيد.

✧ ✧ ✧

أنا محتاجة أكسجين علشان أتنفس، رئتي مطَّبقة.. عارفة لما تشربي عصير برتقال في العلبة الكرتون الصغيرة، وبعدين تمسكيها وتفعصيها بكل قوتك.. مش بتبقى العلبة متشحورة كده.. أهو أنا صدري عامل كده.. مش قادرة أعيش وأنا ميتة.

فكرت أكلم أحمد وأقول له ما عنديش مانع يتجوز اللي ما تتسمى إليزا ولا كونداليزا وبعدين ياخد الجنسية وبعدين يطلّقها وبعدين نتجوز. مش مشكلة أستناه كام سنة. أنا مش مستعجلة. ولو رفض أبقى سمعت صوته وخدت لي شوية أكسجين في الرئة من

الأنبوبة الأصلية ولو أمه ردت عليَّ يبقى آديني خدت من الأنبوبة الفرعية.

- آلو

- هاجر.. أهلا يا حبيبتي

تسيل دموع هاجر في هدوء فور دخول الأكسجين إلى رئتها، تفكر: ما العلاقة بين رئتها وعينيها؟ ولكنها لا تدري.

- أنا مش قادرة يا طنط.

- والله والله ما أنا فاهمة حاجة.

- اا ل ل.

ثم تنفجر فجأة في البكاء، تحاول أن تتكلم ولكنها لا تستطيع، تعيد المحاولة ولكن يخرج صوتها خوارًا.

- ما تعمليش كدة في نفسك يا هاجر.

عندما تفشل هاجر تمامًا في النطق تضع السماعة.

✦ ✦ ✦

يوم الاثنين ٣ من يناير في الساعة الثالثة ظهرًا تمامًا، ابتسم د.مصطفى ابتسامة كبيرة واقترب من زوجته، وطبع قبلة أحدثت فرقعة مجوفة وهو يستمع لتفاصيل الفراق الذي انتظره كثيرًا. لم يكن يتصور أن العناية الإلهية تقف إلى جواره إلى هذا الحد. فموعد العريس الأمريكي في الغد، ويتأكد هو اليوم أن القطيعة باتت أبدية.

ـ عيدي لي تاني كده يا سعاد.

ـ إنت رجل سادي. بنتك حالتها قطران وإنت فاشخ بقك كده على آخره.

ـ أنا عيني يا هبلة على مصلحة بنتي .. أحمد ولد هايل وأنا بحبه جدًا .. لما يكوّن نفسه خلال العشر سنين الجاية حيبقى عريس لقطة لبنت لسة متخرجة.. هو ده العقل. الولد أكيد بيخطط علشان يكوّن نفسه. هو ده عين العقل.. كدة أثبت لي إنه بيفكر صح. هياكش البنات كده ناقصين عقل ودين.

ـ سيبنا لكم إنتم العقل يا سيدي ورونا حتعملوا إيه من غيرنا؟

ـ إحنا نقدر برضه؟.. ده إحنا نلوص من غيركم.. فهميني بس بالراحة إيه اللي حصل.

ـ خلاص بقى يا مصطفي ما أنا حكيت لك.. قال لها يا سيدي حيتجوز البنت الأمريكانية.

ـ دورنا دلوقتي نقنعها بالعريس اللي جاي بكره.

ـ يا مفتري يا بن المفتريين.. بأقول لك عينيها عاملة زي الطماطم ما تدخل تشوفها.

ـ بالعكس ده أحسن توقيت . توقيت الانتقام.

✦ ✦ ✦

في مساء تلك الليلة، اصطحب الدكتور مصطفى ابنته «هاجر» إلى كازينو قصر النيل. كانت الأمطار قد توقفت منذ قليل، وتحولت الشوارع إلى جزر سوداء داخل برك صغيرة ومستنقعات طينية. قفزوا

كالأرانب البرية قفزة هنا وأخرى هناك حتى وصلوا إلى الكازينو. كان بائع الكتب يقف كالعادة بجانب مدخل الكازينو يراقب الداخل والخارج بقدر من الصفاقة وقد فرش قطعة بلاستيكية كبيرة على كتبه النائمة على الأرض خوفًا من سقوط أمطار جديدة. حيّا «هاجر» بحركة من رأسه، هل لدعوتها لمشاهدة بضاعته.. أو أنه تصور أنه يعرفها؟ فوجهها من الوجوه المصرية المنتشرة بوفرة في أرجاء القاهرة. لم تعره اهتمامًا ولم يلحظ والدها فقد كان مهمومًا بكيفية مفاتحتها في الأمر. صفعتهم رياح باردة وهم يهبطون الدرج الطويل الذي يصل إلى النيل، ارتجفت «هاجر» من لسعة البرد التي ضخمت كرة الثلج التي ترقد في أحشائها منذ أن طلب منها والدها أن يخرجا معًا، لم تكن هذه الدعوة من عاداته خاصة في ليلة ثلجية كتلك الليلة التي تزور فيها القاهرة مرة أو اثنتين في العام. جلسا على مائدة ملاصقة لشاطئ النيل. نظرت هاجر إلى المفرش المهترئ ثم ضغطت على البالطو اتقاء البرد المتصاعد من داخلها. اقترب جرسون عجوز. طلب الأب كوبي كاساتا. لفّهم الصمت لفترة. تابعا المراكب النيلية المزعجة التي اختار ركابها بكل عناية أسوأ الأغاني العربية لإذاعتها على الملأ عبر ميكروفونات صدئت من رطوبة النيل، فخرج منها الصوت مشروخًا بألف شرخ أضاف إلى الشجن شجونًا. تساءلت هاجر: هل من الأفضل لها أن تقفز الآن في هذا النهر الساحر وتنهي الأمر؟ على الأقل لن تكلف والدها عناء أمر لا تعرف بعد كنهه، ولكنها تشعر ثقله عليه، وتصبح هي عروس النيل. اقتربت مركب حتى كادت أن تلتصق بسور الكازينو، ثم تبعتها أخرى كان يرقص فيها رجل في الخمسين من

العمر، بشكل خليع يكاد يقارب في رقصه سعد الصغير.. ابتسمت هاجر أخيرًا من الاشمئزاز ابتسامة خجولة. انتهز الدكتور مصطفى فرصة شبح الابتسامة الذي أنار وجه ابنته بنور رمادي، وتوكل على الله بادئًا بسؤال غريب حول رأيها في الولايات المتحدة وولاية نيويورك ونيوجيرسي. لم تفهم هاجر ماذا يقصد.

هل يعرف أن إليزا تسكن في نيويورك ؟

هل يُلمِّح من بعيد بما تفكر هي فيه؟

لا يهم.

ولكنها في الساعة الثانية عشرة تمامًا، وافقت على قبول الفكرة مبدئيًا إلى حين لقائه غدًا.

✦ ✦ ✦

بيقولوا الضرب في الميت حرام.

أنا الحقيقة مش فاهمة ليه؟

طالما ميت يبقى حيحس بإيه؟

✦ ✦ ✦

وقع أيمن في حب هاجر منذ أول نظرة. فقد كانت تحمل في جسدها كل المواصفات والمقادير المطلوبة كما كتبها لوالدته في الرسالة المؤرخة الاثنين ٢٢ من نوفمبر ٢٠٠٤، عندما علمت والدته بعد ذلك أن هذا اليوم هو يوم ميلاد هاجر طفرت عيناها بالدموع

وقالت: «هذا نصر كبير يا ولدي». كان جالسًا في حجرة الصالون مع أستاذه القديم عندما دخلت عليه في لقائهما الأول حاملة صينية القهوة. تأمل وجهها ولون حجابها حتى مقاس حذائها. كانت كاملة الأوصاف. منكسرة وهادئة وصوتها منخفضا وخريجة كلية الحقوق. بشرتها لا هي سمراء بصورة مزعجة ولا هي بيضاء شاهقة. لا توجد بثور على وجهها أو يديْها. تأمل أظافرها للتأكد من نظافتها. حجابها بسيط وليس متزمتا، فالأمريكان لا يحبون المتزمتين. كان يبحث عن امرأة متوسطة الجمال والقامة حتى لا تزعجه بإعجابها بذاتها. خريجة حديثة لم تعمل بعد وتزعجه بمستقبلها المهني. إنها رائعة.

خرج من منزلهم دون مفاتحة منه، ولكنه في لحظة نزوله إلى الشارع قرر تأجيل موعد طائرته لحسم تلك الزيجة التي طال انتظارها. واستكمل زياراته بناء على الجدول المحدد للزوجات المحتملات.

كان في كل زيارة يزداد ثقة وفخرًا لكونه مواطنًا أمريكيًا. رؤيته في كل زيارة للأمل في وجه الأب والأم، أو أحدهما لو كان الثاني قد تم طرده من عش الزوجية أو من الحياة. كيف كانت العروس تزين نفسها له، الجهد الواضح في تفاصيل ما ترتديه، حديثه عن إنجازاته في الولايات المتحدة وكيف استطاع أن يبدأ عملًا ناجحًا. شقته الواسعة التي يملكها. ثم التقدير النهائي الذي كان يحظى به من كل عائلة.

سخر منه أصدقاؤه في الليلة الأخيرة لماراثون العرائس. فقد حدد لهم موعدًا بعد انتهائه من موعد آخر سطر في قائمة والدته،

وقام بتحديد المكان بناء على عنوان تلك العائلة التي جاءت في ذيل القائمة. جلسوا في مقهى فرنسي بمدينة نصر وبعد الأحضان والقبلات والأشواق أغاروا عليه بوابل من الأسئلة وهم في شدة الغضب من غبائه: «كيف يمكنك أن تختار عروسك في جلسة لا تطول لأكثر من نصف ساعة؟ كيف يمكنك أن تعتمد على شكل x طول x عرض x تربيع x أس اثنين؟ هل تتزوج من سيارة يكفيك معرفة سعة الموتور وعدد الأحصنة والأجنحة لشرائها؟ أبعد ما وصلنا إليه من عمر يمكننا أن نفكر في الشكل دون الجوهر؟ أأنت متخلف أم عبيط؟

✦ ✦ ✦

بدا صوت أيمن في أذن الدكتور مصطفى وهو يطلب يد الآنسة هاجر كصوت عبد الغني السيد في أغنية «يا بتاع التفاح». وضع السماعة وهو في حالة طرب، وطلب عقد اجتماع عائلي فوري قطعته هاجر بعد نحو الساعة ودخلت حجرتها للحديث مع أحمد، ثم خرجت من باب الحجرة كالليمونة بعد عصرها.

حضر أيمن ووالدته السيدة «آمال» ودار الشربات دورته المعهودة حول مائدة صالون الضيوف الذي تمت صناعة أثاثه في دمياط منذ قرابة العشرين عامًا خصيصًا لهذا الغرض. جلست هاجر بجانب أيمن وهي تنظر إلى الفراغ.

حاولت التركيز في درجة لونية من درجات البرتقالي في لون المفرش أمامها فلم تفلح. كانت دائما تستغرب كيف أن الماء بلا رائحة ولا لون ولا طعم؟ كيف يوجد في هذا العالم شيء بلا

رائحة؟ وها هي تجد أن العالم بكل ما يحوي بلا رائحة ولا لون ولا طعم.

بدأت في اليوم التالي مباشرة المفاوضات السرية بين الرجلين. وبعد جلستين اثنتين اتفقا على كل التفاصيل الخاصة بالمهر والشبكة وخلافه، ولكنهما اختلفا طويلا على مؤخر الصداق، واستمرت المفاوضات الثنائية قرابة أسبوع آخر، وتوصلا في نهايتها إلى أن يقسما البلد نصفين وأن يكون المؤخر مبلغ خمسة وسبعين ألف جنيه مصري لا غير. ولأنه لم يكن قد نسي بعد دروس صديقه جورج في عمليات البيع والشراء، فقد تكلف أيمن حوالي الأربعين ألف جنيه مصاريف الزواج بعد مفاوضات ناجحة من طرفه شاملة الشبكة والمهر وتكلفة السفر. أما د.مصطفى فقد صمم أن يدفع لأيمن ثمن حجرة نوم جديدة على أن يشتريها أيمن قبل وصول هاجر مباشرة. وقد صمم أن يدفعها له بالدولار أخضر اللون اشتراه من أيمن شخصيًا، كما تحمل بالتأكيد الثمن الباهظ لفستان الزفاف.

✧ ✧ ✧

لم تفكر هاجر يومًا في فستان زفافها على الرغم من أنها خططت مع أحمد كل تفاصيل حفل زفافهما، حتى أنواع الورود وألوانها كان قد تم حسمها بينهما. تصورت دائمًا أنها سوف ترتدي أول رداء يصادفها عندما تفتح دولابها ذلك الصباح وسوف يتحول ولا شك بفضل أشعة الشمس الذهبية إلى أبهى حلة.

تذكرتُ شخصية «فازيليكيا» التي قرأت في يوم بعيد روايتها

واكتشفت غرابة التشابه بينها وبين هاجر. فعلى الرغم من أن «فازيليكيا» سبقت هاجر في تلك الدنيا بنحو القرن من الزمان، فهما تتشابهان في الشكل والحال ولون الحدقتيْن، وفي إحساسهما بالأشياء، وفي وقع كلمة أحبك على تدفق الدماء إلى الأذن اليسرى، إلا في موضوع فستان الزفاف. فقد بدأت «فازيليكيا» كما أتذكر في تطريز فستان عرسها منذ أن سقطت أول قطرات دماء على قميص نومها في ليلة شتاء، كانت الأمطار تعصف في الخارج. قررت حينها أن يكون فستانًا مختلفًا، يحمل روحها التي تنوي أن تمنحها لحبيبها لحظة تلاقي نجميْهما. كانت فازيليكيا ابنة بحار في قرية «إيلوندا» الواقعة في الساحل الشمالي لجزيرة كريت باليونان. ولدتها أمها ليلة رأس القرن العشرين. جاءها الطلق في ٣١ من ديسمبر عام ١٨٩٩، وظلت قرونها تزداد طولًا واحمرارًا حتى سمعت أجراس الكنيسة تعلن قدوم القرن العشرين، بدأ بعدها رأس طفلتها يطل على استحياء لتزن خير الدنيا وشرها؛ حتى تقرر خروجًا أو عودة؟ ولكن أمها دفعت قرونها دفعة أخيرة لفظت بها ابنتها إلى براثن وحش مهيب.

كانت قرية إيلوندا هي محطة توقف مراكب مرضى الجذام في طريقهم إلى مستعمرة المجذومين في جزيرة سبينالونجا. وقد تخصص والدها في نقل المجذومين من إيلوندا إلى تلك الجزيرة.

حينما بلغت فازيليكيا الرابعة عشرة، قامت الحرب العالمية الأولى وقامت في الوقت ذاته رياح شمالية عنيفة شكلت أنوثتها، وخرطت جسدها، وضربت قلبها بسهم لا يُرد، خرج من الجراب

النائم داخل عيون «إريكس» الذي يكبرها بنحو أربعة أعوام. وعلى الرغم من أن إريكس كان ابنًا لأفروديت إلهة الحب والجمال ولبوسايدن إله البحر الجبار، فإنه ذهب كغيره وقودًا لعجلة الحرب الجبارة، ولم يعد، مثله مثل جميع من سبقه ومن لحقه. انتظرته فازيليكيا طويلًا وقالت إن بوسايدن لا يمكنه أن يتخلى عن ابنه. وانتظرت الفتيات الأخريات أي عريس يطرق أبوابهنّ. ولكن من أين يأتي صنف الرجال وقد حصدت الحرب أرواحهم؟ أما الذي تبقى فقد هرب إلى بلاد بعيدة. اجتمع الرجال للبحث عن حل لإنقاذ بناتهم جميعهن من العنوسة. اقترح والد فازيليكيا تزويج بناتهم للرجال المجذومين فلم يبقَ غيرهم في هذه الأراضي. ضحك الجميع بأصوات نخرها الصدأ من هول مأساتهم، حتى هبط على القرية رجل يدعى بوريس حاملًا في جعبته الحل الذهبي.

كان وقع حضوره على الآباء جميعًا كوقع ظهور أيمن أمام تمثال أمير الشعراء أحمد شوقي على والد هاجر.

أحضر بوريس مجموعة كبيرة من الصور الفوتوغرافية لفتيان في شرخ الشباب يعيشون جميعهم في الولايات المتحدة ويعمل معظمهم مزارعين في أراض لا نهاية لها ويبحثن عن زوجات يونانيات مسيحيات مؤمنات. أعلن بوريس أن العرسان في أمريكا سوف يتحملون تكلفة الرحلة عبر الأطلنطي. وفي النهاية وبحركة مسرحية رائعة، أخرج رزمة من الأوراق، وصرخ بصوت جهوري مؤثر: «وتلك هي التوكيلات الرسمية التي أصدروها ليكون من حقي أنا إعلان الزواج باسمهم وبقوة القانون قبل أن تسافر بناتكم

من تلك الجزيرة». ثم دعا الجميع للتفكير ورحل قائلًا إنه سوف يعود بعد أسبوع.

تجمع أهل القرية الصغيرة في ليلة مطيرة أمام الكنيسة ومعهم القس «دوريـان»، وبعد مـداولات طالت قرروا الموافقة على العرض، فهو في الواقع الطريق الوحيد الذي أمامهم لتزويج بناتهم، ولكن اشترطوا أن يسافر معهم رجل واحد. ووقع الاختيار على والد فازيليكيا.

قبل صعود فازيليكيا المركب بدقائق كانت على يقين أن إريكس سوف يظهر فوق مركب نوراني صنعه خصيصًا من أجله بوسايدن. ظلت تنظر يمينًا ويسارًا بلا كلل وعندما لم تلمح أي نور منبعث من جوف الظلمة وجهت آخر نظرة لها إلى السماء قبل صعودها الباخرة.

امتلأت المركب بمئات الفتيات في طريقهنّ إلى المجهول. وفي وسط هذا المجهول الأطلنطي، لم تجد فازيليكيا فجأة أباها. قيل لها إنه سقط في المحيط في أثناء العاصفة.

ولم يعرف أحد مصيره بعد ذلك. وعلى هدى المجهول سوف تلحق هاجر بفازيليكيا على الرغم من عدم اندلاع الحرب العالمية الثالثة حتى الآن.

وكما قدم بوريس عرضه الذي كان من الصعب أن يُرَد، توصل والد هاجر والأستاذ أيمن أن هذا الأخير سوف يرسل توكيلًا رسميًا موثقًا من القنصلية المصرية لعقد القران في القاهرة خلال شهر من

تاريخه، وبعدها تلبس العروس فستان الزفاف وتطير به إلى حفل زواجها البهيج في الولايات المتحدة.

✧ ✧ ✧

الولية أم اللي ما يتسمى أيمن باين عليها مهبوشة في مخها.. بتكلمني خمس مرات في اليوم من ساعة ما ابنها سافر، فاكراني حأهرب بالمهر والشبكة. لولا أن وزنها ييجي طرناطة كان زمانها نطت لنا كل شوية. وعمالة تكلمني في تفاصيل التفاصيل. كان نفسي أقول لها «الميتين يا طنط المهبوشة ما بيهتموش بالتفاصيل.. بيهتموا بس ان هواء القرافة يبقى بحري من الخنقة اللي حسوا بيها وهما بيتقتلوا».

إمبارح ما بين مكالمة ومكالمة طلبت تكلم أمي، أمي قفلت من هنا وراحت دبا معايا خناقة لرب السماء، إزاي وإزاي إني أقول لها إن أنا مش حأسافر بفستان الفرح.. وإني حآخده على إيدي وأبقى ألبسه هناك أول ما أوصل.

بصراحة مش حأقدر ألبس فستان بالوزن ده وبالحجم ده لمدة ١٥ ساعة، ده يبقى تعذيب. أمي راسها وألف سيف إن أنا أخرج بيه من البيت علشان كل الناس في المنطقة يشوفوني وأنا خارجة بيه. وبدت تعلق الكهارب على العمارة وفي الشارع وعاملة لنا زيطة. وعمالة تقول لي لما ترجعي لنا بطنك قدامك شبرين، مش لازم كل الناس تبقى شافت بعينها إنك اتجوزتي.

قلبها طيب، كانت عملت لنا إيه المدعوقة دي علشان نفكر نرجع لها تاني.

✦ ✦ ✦

في يوم ٤ من مارس ٢٠٠٥ في الساعة الثامنة مساء، اتصلت هاجر بأحمد وسمعت صوته.

تنفست أكسجينًا صافيًا خزنته في الفص الأيسر من رئتها ثم أغلقت السماعة.

في يوم ٥ من مارس ٢٠٠٥ في الساعة السابعة والربع صباحًا، خرجت العروس من منزلها بحدائق القبة حاملة معها طقم الشوك والسكاكين الذي اشتراه لها والدها من بورسعيد وهي في الثانية من عمرها، وطقم الآيس كريم الذي اشترته لها أمها من معرض شركة قطاع عام لا تذكر اسمها وهي في الخامسة من العمر. لكنها لم تستطع السفر بطاقم الأطباق الصيني الذي انتظر تلك اللحظة التاريخية منذ ما يقرب من العقدَيْن من الزمان.

رفعت ذيل فستان الزفاف وهي تهبط الدرج بتمهل خوفًا من الانزلاق على وجهها. كان الفستان أبيض مشغولاً بالترتر من الظهر وقد روعي فيه أن العروس سوف تظل جالسة لفترة طويلة وعليها أن تكون مرتاحة فتم اختيار فستانٍ به جوبون صغيرة وليس به أسلاك معدنية تعيق جلوسها.

لم يهبط معها والدها الدرج ولم يوصلها إلى المطار؛ فقد كان غاضبًا منها بسبب رفضها البات الاحتفال بها قبل سفرها.

ـ بنتي واتجوزت.. معقولة ما عملكيش ولو حفلة على الضيق أعزم فيها أهلك يا بنت الكلب».

صممت على موقفها بحدة غير مفهومة وقال لها والدها في النهاية إنه فقد اهتمامه بها ولا هي بنته ولا يعرفها من أصله.

انتظرتها سيارة هيونداي أكسنت مزينة بالأشرطة الملونة يقودها إسلام ابن خالها. انطلقت زغرودة في الجو تلاها عدد من الزغاريد المجوفة. فتحت خديجة جارتهم شيش الدور الأول ثم أغلقت عينيْها من نور الصباح على الرغم من أن الضوء كان ما زال خافتًا وأطلقت زغرودة عالية ثم صرخت بأعلى صوتها:

ـ وصيتك يا هاجر يا بنتي تشوفي لنا دعوة لأخوكي مجدي.

نظرت هاجر إلى جارتها التي لم تحبها يومًا في لحظة دخولها السيارة وشعرت تجاهها بتعاطف غريب وكانت آخر وجه تراه قبل أن تغادر حيها.

أقلعت طائرة مصر للطيران المتوجهة إلى مطار جي إف كينيدي في موعدها في تمام الساعة العاشرة وعشر دقائق صباحًا، لتصل إلى نيويورك في تمام الساعة الثالثة والربع ظهرًا بتوقيت الساحل الشرقي للولايات المتحدة.

كانت هذه الرحلة هي تجربة هاجر الأولى في التحليق جوًّا. لم تستغرب نفسها كثيرًا فقد حلقت جوا وبحرا بخيالها كثيرًا. تخيلت نفسها آلاف المرات عبر حياتها وهي جالسة في الطائرة وبجانبها أحمد وهما يهاجران إلى الأبد إلى السويد. لا تعرف لماذا اختارت

السويد لتكون موطنها المستقبلي. من المحتمل أنها سمعت أنهم هناك ينتحرون من ملل الرخاء بعد أن ملت هي من الحياة على حد السكين. ولكنها استغربت كثيرًا من وجود مضيفين رجال، فقد كانت الطائرات في كل الأفلام التي شاهدتها وكل الأفلام التي صنعتها في خيالها بها مضيفات نساء فقط، كن ملكات جمال. المنتهى في الأناقة والرشاقة. ولكنها فوجئت أن القلة منهن الموجودات على متن الطائرة كن أبعد ما يكنّ عن الجمال أو الرشاقة.

جلست هاجر في مقعد مريح بجانب الشباك في درجة رجال الأعمال بعد أن استطاع زوجها بعلاقاته التاريخية في تهريب المعدات أن يضمن لها «تصعيدًا» (Upgrade) من الدرجة السياحية إلى درجة رجال الأعمال.

سد الإقلاع أذن هاجر تمامًا وشعرت بدوار خفيف وتساءلت أكانت خائفة.. أم أنها تفضل الموت؟ لم تعرف على وجه اليقين الإجابة النموذجية عن هذا السؤال.

ضايقها الإقلاع ففكرت في أي شيء يمكنه أن يشغل تفكيرها. تذكرت حينئذ الـ(email) الذي طبعته لها أختها زينب وطلبت منها ألا تقرأه إلا عند إقلاع الطائرة. أخرجت هاجر الورقة، وبدأت في قراءتها:

Zis is your cabten Haridi welcoming bassengers on board of Egybt Ai.

نعتذر عن التأخير الذي لم يتعد والحمد لله الأسبوع؛ نتيجة لعوامل الطقس السيء

zis is flight 717 to J.F.Kennedy Airbort.

الهبوط هناك ليس مؤكدًا ولكن سوف ينتهي بنا الأمر ولا شك في مكان ما في الكرة الأرضية

Egybt Ai has an excellent safety_record.

نعلن بكل فخر أننا حققنا خلال هذا العام المنصرم رقمًا قياسيًا جديدًا، فأكثر من ثلاثين في المائة من الركاب وصلوا إلى وجهتهم سالمين.

We regret to inform you, zat today>s in_flight movie will not be shown as we forgot to record it from z television.

ولكن يمكن للسادة الركاب الجالسين على الناحية اليسرى من الطائرة متابعة الفيلم المعروض على الخطوط الجوية الصومالية التي سوف ترافقنا في رحلتنا

sanking you vry much for choosing Egybt Ai to fly for z first and last time

نسيت أن أخبركم أن على السادة الركاب الذين لا يجدون أحزمة المقاعد، ربط أحزمتهم الشخصية في ذراع المقعد.

I wish you a nice trib,

Cabten Haridi

على الرغم من الشعور بالدوار وأذنها التي بدأت تؤلمها فإنها ضحكت من قلبها ونظرت عبر الشباك من الجانب الأيمن للبحث عن فيلم الخطوط الجوية الصومالية.

✦ ✦ ✦

لم يقم أيمن بشراء حجرة النوم التي قبض ثمنها من د. مصطفى

بعد أن تأكد أنه لم يكن معه في ألبوم الصور أي صورة لحجرة النوم. وقد شاهد الألبوم أكثر من مرة لكي يرتاح ضميره. ولكنه إحقاقا للحق، صمم أن يشتري مجموعة ملاءات وغيارات جديدة. هل يمكن أن نفهم من ذلك أنه رجل بخيل؟ على الإطلاق هو رجل عملي. تأكد من سلامة أخشاب حجرة النوم، واكتشف أنه من الغباء التخلص منها، ففي الولايات المتحدة من الأرخص أن تلقي بالحجرة في الشارع ـ بشرط ألا يراك أحد ـ عن نقلها إلى مكان لمحاولة بيعها. ولكن قام أيمن بما هو أهم. فقد قام بنقاشة كل الشقة بلون فستقي فاتح، طلب من تيفا أو عبد اللطيف الذي يعمل في محله أن يقوم بطلائها له. ولم يهتم بالمقارنة بين تكلفة النقاشة والمبلغ الذي حصل عليه من حماه. وقام أيمن بتأجير قاعة أفراح صغيرة في شارع جيرسي ودعا كل معارفه ومعارف معارفه وهو عدد لا يتجاوز الأربعين شخصًا على حفل عرسه. وقام موسى العامل السوداني الجنسية بتوصيل الدعوات إلى منازل المدعوين.

أشرف أيمن على كل كبيرة وصغيرة في أثناء التحضير لتلك الليلة التي طال انتظارها.. وأعلن لنفسه أن السعادة تخطت حدودها وقامت أخيرًا بضم أضلعه في حضنها الدافئ. وكانت آخر مشاويره إلى محل الورود الذي سيقوم بتزيين القاعة. طلب مستر هواردسون صاحب محل الزهور مبلغ ألف دولار. صدمه الرقم ولكنه دفعه في النهاية.

وبعد أن اطمأن إلى أنه أنهى كل التفاصيل الخاصة بحفل الزفاف وأعد كل التحضيرات الخاصة باستقبال هاجر في المطار شعر بإثارة جنسية عظيمة. فقد امتنع أيمن عن إقامة أي علاقة جنسية طوال

إقامته في الولايات المتحدة. كانت فكرة أنهن غير نظيفات مسيطرة عليه تماما. كما أنه كان خائفا من احتمال إصابتهن بالإيدز، واكتفى بالذهاب بشكل دوري إلى محلات تقدم فيها النادلات الطعام وهن عرايا لمشاهدة حركة أثدائهن صعودًا وهبوطًا أو يمينًا ويسارًا في أثناء سيرهن داخل المحل، ثم يعود إلى منزله سريعا للانفراد بنفسه. كانت متابعة الأشكال والأنواع المختلفة لأثداء النساء أمرًا يسعده كثيرًا، ويفخر بالقول دائمًا إنه أكبر المتخصصين في العالم في علم أجناس الأثداء. ثم بمرور الزمن أقنع نفسه أنه ممتنع عن العلاقات الحريمية لأن الزنا حرام، وأنه رجل يعرف ربنا. وأدى شعوره هذا إلى اهتمام متزايد بالورع مع شعور عظيم بالكبت الجنسي. ويمكننا أن نفهم شعوره وهو ينتظر عروسه اليوم وقد سيطرت على ذهنه هلاوس جنسية من كثرة ما شاهد من أفلام خليعة قبل النوم.

✧ ✧ ✧

شوفي.. أنا تعبت جدًا في حياتي وحفرت طريقي في الصخر. يعني ممكن تقولي عليَّ إن أنا طفحت الكوتة. كل سنت.. عملته بعرق جبيني، وكمان عمري ما أكلت عرق حد. ما كل الناس هنا جاية علشان تعيش لأن حالتها زبالة فلازم نلاقي طريقة نعيش فيها مع بعض. أنا مقتنع طول عمري بمقولة «عيش وسيب غيرك يعيش» (Live and let live)وحاسس بعد كل ده إني أستاهل أتجوز بنت كويسة وبنت ناس. أنا حاموت وأتجوز من حوالي سبع سنين على الأقل، حاولت كذا مرة وكل مرة يطلع حظي دكر. أصل الموضوع صعب. كل مرة أنزل مصر علشان أختار عروسة أقابل عُشرميت

عروسة وكلهم عايزين ييجوا على أمريكا، أختار مين؟ سؤال مالوش إجابة.

مع آخر عروسة في جدول المواعيد يبقى ميعاد سفري في اليوم اللي بعده. ألحق أتعرف على أي واحدة إزاي؟ خطبت أكثر من واحدة وكل مرة أدخل في تجربة أزفت من اللي قبليها. آخر مرة خطبت واحدة عملت معايا حركة لهّستني في الحيطة، آه والله. اللي حصل إنها ببساطة اشتغلتني. قالت لي أنا بأحبك ويا ريت نتجوز وطلبت شبكة بخمسة وعشرين ألف جنيه. بعد الخطوبة والذي منه وما أدراكي بالذي منه قالت لي أنا ما أقدرش أتجوزك قبل ما آجي أنا وماما، أصل أبوها كان ميت، ونشوف ظروف المعيشة إيه في أمريكا. طلع ديني علشان التأشيرة وطبعا دفعت لهم هما الاثنين تذاكر السفر والإقامة قعدوا أسبوعين سياحة وأكل ومرعى على قفايا. كلفتني القصة دي حوالي عشرين ألف جنيه. وبعدين قالت لي إنها موافقة بس هي عايزة تتجوز في أمريكا على أساس إنها تيجي بنفس التأشيرة السياحية، وبعد الجواز نقوم بتغيير إقامتها، أنا قلت أحسن نتجوز هنا بدل تكاليف سفري لمصر تاني. المهم حضّرت كل حاجة واشتريت أودة نوم جديدة كلفتني كتير ودفعت لها طبعا تذاكر السفر من القاهرة لنيويورك وحجزت لها في فندق ابن حلال لغاية ما نتجوز. ورحت لها تاني يوم لقيتها اختفت. يمين شمال. شمال يمين. فص ملح وداب. بعدها بست شهور عرفت إنها بتشتغل في هيوستون. رحت علشان أطب عليها. قابلتني عادي جدا وبصت لي بعين يتدب فيها رصاصة وقالت لي فلوسك

حتاخدها على داير مليم بس أنا دلوقتي ما عنديش ولا مليم. وطبعا لمَّحِت إن أنا ما عنديش ولا ورقة تثبت أي مليم دفعته.

ده أنا غلبان غلب. عامل فيها فنط وأنا بائس. لما قابلت هاجر قلت إن ربنا رضي عني. والله ما عملت أي حاجة تغضبه. أبوها أستاذي وراجل أنا عارف ومتأكد إنه ابن حلال، وقلت مش حأعيد الكَرَّة وأدخل في خطوبة تاني، وفي نفس الوقت مش حاقدر أنزل مصر تاني. دي النزلة بتقصم وسطي. إشي هدايا وإشي زفت. ده غير إن البلد بقت غالية جدا، والله الأكل بقى أغلى من أمريكا، تصوري. وطبعا مش حأجيبها من غير جواز كفاية بنت الـ.. اللي فاتت واللي عملته فيَّ. ولقيت أبوها موافق على كل حاجة. ما كنتش مصدِّق إني أخيرا حاتأهل.

✧ ✧ ✧

لم تستطع هاجر أن تنام في الطائرة حاولت أكثر من مرة ولكن دون جدوى. فتحت أكثر من مرة شنطتها للتأكد من وجود الدواء وفي كل مرة تمسك العلبة وتفكر في أخذ حبة وفي آخر لحظة تؤجل تناول الحبة قليلا. ففي الاجتماع الموسع الذي عقدته في منزلها مع ريم ونرمين، أعز صديقتيْن إلى قلبها، منذ أسبوع مضى وبعد أن طردوا أختها زينب وأحكموا إغلاق حجرة النوم كما أغلقوا الشيش. جلسوا على السرير ثم دلفوا إلى اللحاف القطني العملاق الذي يفوق وزنه وزنهم جميعًا وبدأوا النقاش في القضية الحيوية التي أطلقوا عليها قضية الشرق الأوسط الجديدة وهي تعد البند الأول والأخير من جدول أعمال الاجتماع ألا وهي:

كيف ستمارس هاجر الجنس مع زوجها؟

بالطبع لم يدخلن في تفاصيل، يعلمها جميع الحضور عن شعور هاجر تجاه أي شخص في العالم سوى أحمد. ثم طرحت ريم سؤالًا آخر: «كيف تمارس العاهرة الجنس؟» ضربت هاجر "ريم" بوسادة صغيرة في يدها قائلة: «أنا بالتأكيد لست عاهرة» نظرت إليها ريم في بؤبؤ عينيْها فاعترفت هاجر: «بموافقتي على الزواج من شخص لا أعرفه وأنا أحب شخصًا آخر فأنا من هذه الزاوية يمكن أن أكون عاهرة». هنأتها ريم على شجاعتها: «إذن كيف تستطيع العاهرة ممارسة الجنس مع أي عابر سبيل؟». استمروا في نقاش بيزنطي حتى وجدت ريم فكرة.

ـ أنا عندي فكرة، الويسكي هو الحل.. المومس ولا مؤاخذة بتشرب خمرة كتير جدًا علشان تفقد وعيها، وتقدر تنام مع أي راجل وهي سكرانة.

ـ فكرة هايلة. بس المشكلة إن الراجل ده حسب ما أنا فاكرة.. زبيبته قدامه شبرين وما أظنش خالص إنه عنده خمر ولا يمكن يجيب خمر في بيته.

ـ سيبك يا هاجر من كلام ريم الأهبل، الحل طبعًا هو إنك تشغلي عقلك.. هي المسألة إيه؟ مش قلب وعقل. مفيش قلب يبقى العقل لازم يشتغل. دلوقتي إنتي رايحة لفكرة معينة: عايزة تسيبي البلد. هايل.. علشان الفكرة دي تنجح لازم إيه؟ لازم تبقي جامدة وتستحملي، موضوع الجنس ده مش مهم قوي، ما تديهوش أكبر من حجمه، وأظن إن أكثر من تسعين في المائة من ستات العالم

عاملين زي حالتك والدنيا ماشية وكل يوم الستات عمالة تخلف.
يعني مش حتخترعي الذرة.

ـ هي مش حتعرف تخترع حاجة خالص.. ما هو المصيبة إنه إتلم المتعوس على خايب الرجاء، إحنا الثلاثة أكثر من كام بوسة على كام حضن ما جربناش، كان لازم نتشجع أكثر أيام الكلية بدل الخيبة اللي بالويبة اللي إحنا فيها دي.

ـ أنا يا أختي عملت مع أحمد أكتر من كدة شوية.

ـ جتك خيبة.

ـ لازم نلاقي حل أنا مسافرة خلاص.

ـ نسأل دكتور.

ـ والسؤال ده حنقدر نشرحهوله إزاي؟

ـ المهم مين الدكتور؟

ـ ابن عم حسين دكتور.

ـ يا نهار أسود حتقولي لحسين إزاي ما هو ممكن يقول لأحمد.. ده حسين ده ولية وما بيتبلش في بقه فولة. ده أنا كنت بأعرف كل أخبارك في الكلية من أحمد عن طريقه.

ـ حأتصرف

تصرفت نرمين وذهبوا إلى الدكتور وتفهَّم الرجل الوضع وأعطاها روشتة طبية وقال لها إن هذا الدواء له اسم شهرة في الشارع المصري كما الفنانات: «حبوب السعادة». فهو دواء مضاد

للاكتئاب ويؤدي إلى حالة من الارتخاء والسعادة وله أثر طويل المفعول، وطلب منها ألا تتناوله إلا قبل أول لقاءين بحد أقصى فهو دواء خطير يؤدي طول استعماله إلى أن يدمنه المريض. وقد كتبه لها فقط لتسهيل ولوجها إلى عالم الزوجية. ولم يستطع أن يمنع نفسه في النهاية من منحها خلاصة تجربته في الحياة: «أنا عايز أقول لك يا هاجر إن زواج الصالونات هو الزواج اللي أثبت نجاحه وعليكي إنك تنجحي زواجك بأي شكل فأبغض الحلال عند الله الطلاق».

أمسكت هاجر علبة الدواء للمرة العاشرة منذ ركوبها الطائرة وترددت للمرة العاشرة أتتناول حبة السعادة الزائفة الآن.. أم تؤجلها؟ كانت مشكلتها الأساسية تكمن في خوفها من أن يحدث أثرًا يؤثر في أدائها أمام البوليس الأمريكي في المطار؛ فكل من علم أنها سوف تسافر إلى الولايات المتحدة ألقى في روعها الرعب من مواجهة حراس بوابة الجنة، فحراسها يختلفون تمامًا عن رضوان، وهم أشرس من الكلاب الوولف. وقررت هاجر في النهاية أن تتناول حبة السعادة من فور مرورها من بوابات الرعب.

كان هناك رعب آخر يأكل في قلب أب، فمنذ ركبت ابنته الطائرة وهو يدور في حجرة نومه بلا توقف غير قادر على الجلوس ولو لوهلة. فجأة أخرج رقم هاتف أيمن المحمول واتصل به.

ـ أيوة يا أيمن، إنت فين؟

ـ أنا في طريقي للمطار أهه.

ـ معقولة يا أيمن لسة ما وصلتش لغاية دلوقتي

- فاضل لسة ساعة على الطيارة يا دكتور وأنا حأبقى هناك قبل كدة بكثير.

- ما وصيكش عليها يا أيمن. لازم تفهم إنها بنت صغيرة وداخلة على مرحلة جديدة، وأول مرة تسافر في حياتها، وأكيد خايفة ومرعوبة، لازم تحتضنها يا أيمن.

- ما تخافش يا دكتور دي في نني عيني، دا أنا محضَّر حفلة جميلة واشتريت لها كل الورد اللي موجود في أمريكا، ودخلت كمان على حصة الورد بتاع كندا، وإحنا عندنا كام هاجر.

- ربنا يخليك يا بني، حاستنى تليفونك أول ما تتقابلوا علشان أكلمها.

وانسابت من عينيه دمعتان كان يحاول حبسهما منذ قرابة الساعة. ثم نظر إلى السماء طالبا الستر لابنته الغالية.

✧ ✧ ✧

وقفت هاجر في طابور طويل لا ينتهي داخل مطار ج. ف. كينيدي تتأمل اللافتات الضخمة التي تحيطها من كل جانب تحذر من السخرية أو حتى الابتسام من أسئلة حراس الجنة: «الكاوبوي الجدد».

هنأها بالزواج كل المصريين الواقفين معها وتفرج عليها باستغراب شديد كل المسافرين الآخرين. حتى جاء دورها في التقدم إلى ضابط الجوازات.

ـ سبب الزيارة؟

ـ تزوجت من مصري حاصل على الجنسية الأمريكية وجئت للحياة معه هنا.

ـ ما اسم زوجك؟

ـ أيمن صبحي.

تأملت هاجر وجه الضابط الجميل. كان شابًا زرقة عينيه في لون المحيط وأنفه أشبه بأنف إليزابث تايلور.

ـ هل هذه أول زيارة لك للولايات المتحدة؟

ـ نعم.

ـ هل بحوزتك أي أسلحة أو متفجرات؟

منعت هاجر نفسها بصعوبة من الضحك، يبدو أن هذا الجمال يحمل قدره غباء.

ـ لا.

ـ هل بحوزتك أي مأكولات؟

ـ لا.

ـ هل بحوزتك أي أدوية؟

تحرك هاجر رأسها علامة النفي.

ـ هل أحضرت أي هدايا؟

- لا.

- ما حجم السيولة النقدية التي تحتفظين بها معك الآن؟

- حوالي ثمانمائة دولار.

- حوالي؟ هل يمكن أن نقول إنك لا تحتفظين الآن بأكثر من ألف دولار سيولة نقدية؟

- نعم.

- ما عنوان إقامتك في الولايات المتحدة؟

- هذا هو العنوان مكتوب على تلك الورقة.

- ما مهنة زوجك؟

- رجل أعمال.

- وفي أي مجال من مجالات الأعمال؟

- يمتلك مطعم بيتزا في بيترسون بنيوجيرسي.

- رجاء الاتجاه يسارًا وسوف يستقبلك أحد الضباط.

تنظر هاجر إلى أحد المسافرين مستنجدة به: «أنا مش فاهمة حاجة أنا كده خلصت؟»

يرد آخر: «لأ خلصت إيه.. ده أول وش بس.. إمشي كده على طول.. شايفه الكراسي المرصوصة دول آخر الممر؟ إدي الباسبور للست السودة المفشولة دي وأقعدي استني دورك. دول حيسألوكي على أسئلة يرجعوكي بيها لساعة ما اتولدت».

جلست هاجر قرابة الساعتيْن في الانتظار في حالة ذعر. ظلت تراجع شريط حياتها كله وتتساءل أين أخطأت؟ هل يسألونها عن الغش الذي مارسته في امتحان مادة الشريعة ولولاه ما نجحت؟ هل يفتشونها ويكتشفون أنها كذبت على الضابط وأن بحوزتها دواء حبوب السعادة؟ ظلت تفتش بكل دقة عن أي موطن ضعف في لحظات تاريخها.

ظلت تراجع بدقة كل شيء وضعته في حقيبتها وتذكرت أن هدية عيد ميلاد أحمد في حقيبتها، لم تستطع مفارقتها وأمل لقائه في الولايات المتحدة يداعب خيالها، لا بد أن تعطيها له يومًا. لكنها قالت للضابط إنها لم تحضر هدايا. ثم بدأت تفكر كيف يمكن أن تدافع عن موقفها.

فوجئت وهي منتظرة دورها أن العديد من طياري مصر للطيران ومضيفيها ينتظرون معها دورهم في عملية الاستجواب. وبدأت تتابع الوجوه المجهدة من حولها بعد رحلة استمرت أكثر من إحدى عشرة ساعة إلى أن سمعت أخيرًا اسمًا يشبه اسمها من بعيد: «آجي مستفى» «آجي مستفى» تحركت وهي تشير إلى صدرها بعلامة التساؤل: هل هذا أنا؟ حرك الضابط رأسه، فاتجهت إليه:

ـ آجي مستفي؟

تنظر هاجر إلى جواز سفرها للتأكد من أنها المقصودة، وينهمك الضابط في كتابة بيانات ما على جهاز الكومبيوتر، على الرغم من أنها لم تتفوه بأي كلمة بعد.

ـ نعم.

ـ مكان الميلاد؟

(كويس إنه ما بداش من جدي الأول)

ـ ولدت في مدينة تلا بمحافظة المنوفية بمصر.

ـ هل خضعت لأي تدريبات عسكرية؟

(مش شايف صدري قدامي قد كده، ولابسالك لبس عروسة، شايفني راجل؟)

ـ لا.

ـ هل سبق لك استعمال أي نوع من الأسلحة؟

(هل سلاح تقميع البامية يدخل من ضمن الأسلحة؟)

ـ لا.

ـ هل أنت عضو في جماعات إرهابية متطرفة؟

(كان نفسي أعمل جماعة إرهابية لخطف أحمد)

ـ لا.

ـ هل تعرفين أحدًا في الولايات المتحدة عضوًا في جماعات إرهابية متطرفة؟

(إنت يا حليوة)

ـ لا.

ـ متى كانت آخر زيارة لك إلى الولايات المتحدة؟

(حتتلائم على منوفية يا خيبتك القوية.. دا إنتم لسه سنة أولى)

ـ دي أول زيارة لي.

ـ هل تنوين القيام بأي أعمال تخريبية وإرهابية بالولايات المتحدة؟

(ناوية أدور على أحمد في كل حتة)

ـ لا.

لم تكن هاجر تعرف وهي تتقدم للبحث عن أمتعتها أن اليوم ٥ من مارس هو الموافق لعيد ميلاد إليزا وهو نفسه تاريخ موتها المعلن لأحمد، هو يوم تاريخ إجهاض المحاولة الأولى الجادة له للخروج من المحروسة، وأنها هاجر بنت مصطفى التي أصبحت منذ الآن المسئولة الأولى عن الخطوات الإجرائية لهجرة الأستاذ أحمد عز الدين.

تناولت هاجر قبل أن تأخذ أمتعتها مباشرة حبة من الدواء وتوجهت إلى باب الخروج وهي تفكر تفكيرًا جديًا وتبحث بحثًا متعمقًا داخل أروقة ذاكرتها عن شكل أيمن، أي تفصيلة من تفاصيل وجهه.. لون شعره.. لون عينيْه.. أطويل هو أم قصير؟ واكتشفت أنها لا تذكره على الإطلاق.

هل تتعرف إليه؟

ثم تساءلت: متى عرفت العاهرة وجه طاعنها؟

عبد اللطيف عوض

ينادونه «تيفا» أو (Jack of all trades) «رجل لكل الأعمال». أطلق الجميع عليه هذا الاسم بعد أن أثبت خلال الأشهر الثلاثين التي قضاها في بيترسون بنيوجيرسي أنه يستحق هذا اللقب بجدارة. فهو الطباخ الرئيسي لمحل «علاء الدين» للبيتزا (Aladdin Pizzeria) المملوك للأستاذ أيمن صبحي. وهو في آنٍ آخر نقَّاش، كانت آخر إنجازاته دهان شقة أيمن بلون فستقي خلاب على شرف زوجته المنتظرة «هاجر» وقد أصبحت الشقة بعد أن ضرب بيسراه آخر ضربتين بالفرشاة على الحائط الأيمن لحجرة النوم عروسة تتلألأ بالجمال في انتظار العروسة الحقيقية. وتيفا في أحيان أخرى يعمل سباكًا أو كهربائيًا أو حتى ميكانيكيًا وقد تم اعتماده أسطى محترفًا، بعد أن أصلح الموتوسيكل الهوندا لزميله وصديقه الحميم موسى، مسئول توصيل طلبات البيتزا بعد أن قام بفك الموتور وتركيبه بمقدرة فائقة وكأنه الحاج هوندا الياباني ذات نفسه. لكن أهم ما يمتلكه هذا التيفا يتجلى عندما يتسلطن وينطلق صوته العذب ليشجي كل المستمعين.

اليوم حصل (trades Jack of all) على مهمة جديدة تضاف إلى نشاطاته المتنوعة، فقد طلب منه أيمن صبحي العمل على إعادة بيع الورود التي تم شراؤها لتزيين حفل الزفاف الميمون «فمش معقول يا تيفا يا حبيبي نرمي ألف دولار في صالة ما نعرفهاش ولا تعرفناش.. دي حتى تبقى عيبة في حقنا».

بذل جميع العاملين في (Aladdin Pizzeria) جهدًا خارقًا طوال اليوم ليخرج الحفل في صورة تليق بمطعمهم الفاخر خاصة أن كل المدعوين من زبائن المحل. تم تعيين تيفا من قبل العريس منسقا عاما للحدث. وها هو يقف الآن داخل حلته السوداء التي تفوق حجمه مرتين، وقد أعطاها له أيمن كهدية في مقابل دهان الشقة. ينظر في ساعته الكاسيو الجديدة منتظرًا قدوم العروسين أمام باب قاعة جيرسي للأفراح.

عندما دارت عقارب الساعة لتشير إلى السابعة مساء وصل العريس القاعة ممسكًا اليد اليمنى للعروس بكلتا يديه، وقد ارتدى بذلة سوداء وبابيون كان قد اشتراهما منذ ست سنوات في أول محاولة له للزواج، وكانت هي ما زالت ترتدي فستانها الأبيض منذ عشرين ساعة متصلة.

دخلت هاجر القاعة وهي تشد شفتيْها من الجانبيْن في حركة عصبية تشبه الابتسامة وتنظر إلى السقف الواطئ متأملة السراج المنير وانعكاسات الضوء على أضلع الكريستال. كانت لحظة صمت باهرة انقطعت بتصفيق المدعوين ثم أطلقت إحدى المدعوات زغرودة جميلة انفجرت بعدها ضحكات الجميع، وبدأ

موسى الذي تقمص دور الـ(DG) في تشغيل الموسيقى وانطلقت أغنية فريد الأطرش الخالدة مع سير العروس والعريس في اتجاه الكوشة: دقوا المزاهر ياللا يا أهل البيت تعالوا.

جلس العروسان على كرسيين كبيرين في صدر القاعة. فتشجعت المدعوة مرة أخرى وأطلقت زغرودة جديدة خجولًا.

هدأت القاعة بعدها، فبدأ عبد اللطيف بعين كالصقر وللمرة الثانية يعد أسبتة الورود المنتشرة على الموائد، ويتأمل بشهوة الباقة الكبيرة من الورود مختلفة الألوان المنتصبة خلف العريس والعروس. وجد تيفا نفسه يتوجه إليها للتأكد من سلامة الحامل وإلا سوف يجد مشكلة في تصريفه. لاحظ أن الجميع ينظرون إليه في استغراب فتقدم نحو العروسين ليقدم واجب التحية وعينه على الحامل، حضنه العريس وقبّله ووقفت العروس ومدت له يدها المغطاة بقفاز من الدانتيلا. نظر تيفا إلى وجهها لأول مرة ولاحظ الحالة العصبية التي تشد الشفتيْن وتجعل وجهها شمعيًا. لم يستطع تيفا رد الابتسامة لأن ذهنه كان مشغولا في كيفية أن ينهي مبكرًا هذه الحفلة كي يستطيع أن يقوم بدوره في إعادة بيع الورود على أحسن وجه. ثم بزغت في ذهنه فكرة تصور أنها عبقرية، وسوف تضرب أكثر من عصفور في ضربة واحدة، قرر أن يقدم العشاء عن الموعد المحدد له بساعة كاملة وعندها فقط استطاع بعدئذ أن يرد الابتسامة للعروس التي بدت بلهاء بابتسامتها الثابتة التي لا تنقطع. ثم توجه إلى المطبخ بخطى ثابتة؛ لتفقّد إنجازاته في طبيخ البط الملوكي.

✧ ✧ ✧

أنا ربنا راضي عليَّ قوي، من صغري مهنيني، ما هو فيه ناس كدة محظوظة في الدنيا، يعني أنا مثلا من صغري بآكل لحمة يوماتي.. آه والله، فيه حد في الدنيا بياكلها يوماتي؟ أهو أنا بقى. ومش أي لحمة لأ بآكل لحمة بط. أحلى لحمة في الدنيا. وطبعا الحكاية الغريبة دي لها أصل. شوفي يا ستي أنا أصل أمي بعد ما أبويا سافر العراق وما رجعش وكانت لسة حامل فيَّ، اتفقت مع إخواتها الثلاثة الأصغر منها حسن وحسين وحسنين إنهم يكوّنوا مجموعة بدل ما يموتوا جماعة، واحد يقف على الشارع قدام بحيرة قارون والتاني يقف بعديه بميتين متر والتالت بعديهم بييجي كيلو ويقعدوا يندهوا على «رحلة الجزيرة». ولو عربية وقفت يجروا عليهم ويتخانقوا قال يعني بيتنافسوا فالزبون يحس كدة إنه فرخة بكشك ييجي يشوف أنهي أحسن الأسعار فطبعا ياخد السعر اللي هما متفقين عليه أصلا والزبون ينبسط إنه خد أرخص واحد في الفيوم كلها. وفضله على المنوال ده من يوم ما اتولدت.. وعشنا كلنا على رحلة الجزيرة، والجزيرة دي لا هي جزيرة ولا حاجة.. أصل بحيرة قارون حسب معلوماتي اللي على قدها.. ما أنا أصلي خرجت بعد الإعدادية.. فيها جزيرتين إنما مليانين عقارب ما حدش بيروحهم. إحنا بنودي الناس لسان كدة بنقول عليه الجزيرة، وهناك عاملين قاعدة خوص على الأرض. وعندنا فلوكة صغيرة مهربدة نركّب الناس فيها ونعديهم الناحية التانية من بحيرة قارون عند اللسان اللي بأقولك عليه ده. والناس تقضي النهار وطبعا عايزة تتغدى.. هنا بقى ييجي دور أمي، طباخة بريمو. والتخصص بتاع الفيوم سمك موسى وبط فيومي ومعاه بقى الرز والسلطة وصينية البطاطس في الفرن، وكل

يا عم بألف هناء وشفاء. وطبعا الناس ما بتخلصش الأكل كله، ييجي بقى الدور على العبد لله. أنزل على بواقي الأكل حَتَتَك بَتَتَك لغاية ما أقول يا كفى. شوفي بقى الهنا اللي أنا كنت فيه. ده حتى المدرسين كانوا غيرانين مني وبيطلبوا مني أجيب لهم أكلة من إيد أمي الله يمسيها بكل خير وسعادة.

✦ ✦ ✦

تزوج الأخوال وزربوا العيال ثم تزوجت أمه بعد أن اعتبر والد عبد اللطيف مفقودًا وزربت هي الأخرى عيالًا. ضاق العيش وبدأ عدد الزبائن يقل عما مضى واشتدت المنافسة وبدأت الصراعات وسافر من سافر.. ولكن القصمة الحقيقية في تاريخ تلك العائلة التي تسكن دائرة «سنورس» بالفيوم بدأت منذ عام ١٩٩٨ عندما طفت على السطح بوادر اختناق مادي حقيقي في كل أنحاء مصر، انضم على إثرها خاله حسنين إلى مجموعة من الشباب ينتمون إلى تيار إسلامي متطرف وكان هدفهم الأول هو اغتيال الدكتور يوسف والي وهو من مركز «إبشواي» بالفيوم بعد أن اتهموه بالعمالة لإسرائيل، وقتل الشعب المصري بالمواد المسرطنة، وانفتحت فوق بحيرة قارون مباشرة طاقة في السماء على جحيم يصلاه الجميع، واختفى حسنين الذي كان الأكثر نشاطًا في مشروع الجزيرة.. وبمرور الأيام والشهور والسنين، زاد الاختناق المادي على الجميع، وأصبح من ينهش في الرغيف ينهش بالقوة وليس بالأصول، كان العالم يستعد لاستقبال القرن الواحد والعشرين.. قرن بوش السعيد بعد أن تم انتخابه يوم ١٨ من ديسمبر عام ٢٠٠٠، ٤٦ يومًا بعد افتتاح الدكتور عاطف عبيد والدكتور أحمد نظيف نادي تكنولوجيا المعلومات

بجهاز تشغيل الخريجين بالجيزة و٤٦ يومًا بعد تسلل عبد اللطيف داخل الأراضي الأمريكية عبر الحدود المكسيكية.

كان عبد اللطيف المولود يوم ٢٩ من فبراير عام ١٩٨٢ والذي لم يدرك أبدًا أن عيد ميلاده يأتي مرة كل أربع سنوات لأنه لم يحتفل أبدا بعيد ميلاده، قد قرر أنه بعد تحقق إعجاز الإنجازات وسقوطها كلها على أم رأسه، لن يسمح أن يدخل عليه هذا القرن الجديد وهو في تلك المخروبة المسماة «سنورس» بعد أن خاصم الرزق منطقة الفيوم، وكل المناطق المجاورة. وبدأ أولى اتصالاته مع سماسرة الخروج من سن الخامسة عشرة. وكان أول ما فكر فيه هو الذهاب إلى العراق للبحث عن أبيه أثناء رحلة بحثه عن عمل.. فعبد اللطيف واثق تمام الثقة من أن والده على قيد الحياة وأنه سوف يراه طال الزمن أو قصر. كان منذ سن الخامسة يعمل مساعد طباخ لأمه، ثم مساعدًا لأخواله في تنظيف المكان بعد رحيل الزبائن.

وعندما توقف مشروع الجزيرة، بدأ عبد اللطيف العمل كصبي ميكانيكي، ثم كصبي كهربائي والغريب أنه بعد يومه الشاق كان يقرفص أمام منزله يفك ويركب أي قطع يجدها أمامه، فيشة، مشترك كهربائي، عدة تليفون قديم، ترانزستور متهالك، وكانت تلك هوايته الوحيدة بعد الجري وراء سماسرة الفيوم.

✧ ✧ ✧

أنا «عبد اللطيف»، المغني اللي اتعاقد معاه النهاردة الأستاذ «توم كروز» لإحياء الحفلة الجميلة اللي بتجمعنا النهاردة على الخير.. فرح أيمن باشا صبحي وست البنات كلهم السنيورة هاجر.. الحقيقة إن الحاجة «بريتني سبيرز» كانت هي المفروض تغني الليلة دي ولكن بعد ما جالها شوية زكام ومناخيرها لا مؤاخذة اتسدت

فراحت مكلمة كروز علشان يتصرف، فضل يتحايل عليَّ وهو بيشد في زرار الجاكتة، وأهه ده من حظكم الجميل إن تيفا هو اللي معاكم النهاردة.

حأبدأ بأغنية لسة ما اتكتبتش ولسة ما تغنتش. حأغنيها النهاردة للست هاجر ويا رب تعجبها....

تبدأ الموسيقى ويرج صوت عبد اللطيف المكان.

يتراقص جميع المدعوين وهم يصفقون على صوت عبد اللطيف ويقف أيمن، ويبدأ في حالة رقص هستيرية ثم يجذب هاجر للرقص معه، ولكنها تعتذر فيستكمل هو الرقص ويتجمع حوله الأصدقاء وفجأة يرفعه أحدهم على كتفه، ويبدأ أيمن في الرقص من فوق كتف صديقه وفجأة يرتطم رأسه في النجفة المدلاة من السقف الواطئ ويقع على الأرض وتحدث جلبة تنتهي بإنهاء الحفل. ويسر تيفا لنفسه وهو ينظر إلى الورد:

رب ضارة نافعة.

✦ ✦ ✦

تيفا ده نعمة من نِعَم ربنا عليَّ، واد جوكر تحطه في أي مركز يقول.. ونج يشتغل.. تحطه باك ما يقولش لأ، من يوم ما جه والمحل في الطالع، أكله.. يخرب بيت كدة.. طِعِم ومالوش حل. أنا خدت المحل وقلت أسميه علاء الدين يمشي عربي ويمشي أمريكاني. كان في أغسطس ٢٠٠١. مفيش بعدها بكام يوم اتضربوا البرجين في ١١ سبتمبر. اكتأبت وقلت لنفسي واضح إنه محل نحس بيعه يا واد. وبعدين اسم عربي دلوقتي ما ينفعش يقولوا بنقدم أكل إرهابي

بصلصة الديناميت. كنت لسة دافع فيه ثلاثمائة ألف دولار ودول تحويشة العمر على ثلاثة شركاء على سلف من البنك.. توليفة مالهاش حل.. المحل إيجاره ألفان وخمسمائة دولار في الشهر، والمحل قبل ما آخده كان بيعمل عشرة آلاف دولار في الأسبوع، والحسبة بسيطة.. اللي بيشتري بيدفع على كل ألف دولار إيراد أسبوعي.. ثلاثين ألف دولار قدامهم.. يعني العشرة في ثلاثين يساووا ثلاثمائة.. هما المبلغ اللي أتدفع.. هنا مفيش ياما ارحميني. المبلغ ده بيتدفع على اسم المحل - اللي أنا غيرته بس أعمل إيه هو ده السيستم. بيسموه في أمريكا (Register Cash).

اللي حصل إنه بعد ما اشتريت، الإيراد الأسبوعي للمحل وقع من العشرة آلاف دولار في الأسبوع لستة في ثلاثة شهور.. يعني لو بعت حاخسر خسارة كبيرة.. النهاردة وبفضل تيفا وكام واحد معاه باعمل لي اثنين وعشرين ألف دولار في الأسبوع.. حولوه من محل بيتزا لمطعم بيعمل أصناف وأنواع وتفانين وحدوتة. تيفا بيتفنن في عمايل البط بيقول على نفسه بيعمله أطعم من الفرنساويين.

✧ ✧ ✧

يعمل في مطعم علاء الدين للبيتزا تسعة أشخاص: عبد اللطيف وحسين في المطبخ ومجدي والشربيني مسئولان عن فرن البيتزا ومايا المختصة باستقبال المكالمات التليفونية وجورج ونسيم للخدمة في الصالة وموسى وإسحاق لتوصيل الطلبات للمنازل. كلهم مصريون ما عدا مايا من المكسيك وموسى من السودان. موسى أكبرهم سنًّا، يرفض حتى الآن قرار التقسيم الذي تم في ١٩ من ديسمبر ١٩٥٥

ويقول إنها مؤامرة أمريكية نفذها اثنان من الوحدويين هما جمال عبد الناصر وإسماعيل الأزهري ويعلن دائما أنه مصري سوداني حتى الموت وأن مايا هي الوحيدة الخواجاية في علاء الدين. أما مايا فهي أيضًا تشكك في كونها خواجاية وتعد نفسها حفيدة الفراعنة.. بناة أهرامات المكسيك.

يقع المحل في شارع تجاري في منطقة بيترسون بولاية نيوجيرسي. وهي منطقة لو سرت في بعض شوارعها لا يمكنك أن تعرف أنك في بلد غير عربي، فلافتات المحلات مكتوبة بالعربية، وهذه جزارة تعلق لافتة أن لحمها حلال.. وبقالة تبيع المأكولات الشرقية.. حتى الصحف الملقاة على الأرض تطل عليك بحروفها العربية. لم يصدق تيفا عينيْه عندما حط به الرحال في هذه المنطقة وتصور بالتأكيد أنه ركب سفينة نقلته بسرعة البرق إلى قلب العالم القديم.. إلى أراضينا البعيدة، أما هاجر فظلت لأسابيع لا تتصور أنها في الولايات المتحدة. ففي المنزل القنوات عربية وشرائط الكاسيت التي يستمع إليها زوجها كلها مصرية، حتى البقالة التي ترتادها هاجر يديرها شاب مصري.

يسكن عبد اللطيف في شقة مكونة من حجرة نوم واحدة وصالة صغيرة مع حسين ومجدي والشربيني. وتقع الشقة على بعد حوالي كيلومترين من محل علاء الدين وهي مسافة لا تتعدى خمسًا وعشرين دقيقة سيرًا على الأقدام.

يغطي هؤلاء الأربعة خريطة مصر من شمالها إلى جنوبها؛ فحسين من البحيرة في أقصى الشمال، ومجدي من السويس في

الشرق، وعبد اللطيف كما هو معلوم من الفيوم في وسط مصر وقلبها، أما الشربيني فمن قنا في أقاصي الجنوب. وكان الشربيني كعادة رجال الجنوب أكثرهم صراحة ووضوحًا وكانوا يردون عليه دائمًا بمقولة:

«يا ربي، قنا من غلاسة الشربيني».

ولأنهم مختلفون تمامًا في الطباع، فقد وضعوا نظامًا حديديًا للحياة المشتركة نجحوا جميعًا في تطبيقه، وساعدهم على ذلك اقتناعهم العميق بأن انضباطهم والتزامهم بالنظام الذي وضعوه، هو الحل الأمثل لضمان استمرار سير المياه هادئة. بالطبع ساعدهم أيضا أنهم يقضون معظم أوقات اليوم في علاء الدين. وكانوا يطلقون على هذا النظام اسم «الحاجَّة»، فكانوا يقولون على سبيل المثال: «الحاجَّة بتقول إن الشربيني عليه النهاردة الغسيل» وكانت أوامر الحاجَّة تشمل أدق التفاصيل حتى الأشياء التي لا يمكنها أن تدخل من ضمن اختصاصات الحاجَّة.

✦ ✦ ✦

أنا الحمد لله ما عملتش حاجة تغضب ربي من ساعة ما جيت البلد دي.. ماشي بدعاء الوالدين.. والله ولا في حياتي كلها!! إلا في موضوع الفلوس اللي جبتها علشان أدفعها لعبد النبي السمسار، أنا كنت ناوي على العراق، وبعدين عبد النبي قال لي العراق خلاص تعيش انت.. أنا دلوقتي حاشتغل على خط جديد.. على أمريكا. هو لما قال لي أمريكا. أنا كبرت في دماغي.. لازم أطلع أمريكا. كان المطلوب خمس آلاف جنيه للتذكرة وثلاثة آلاف دولار علشان

شغل التهريب بالإضافة للبوكيت موني. كنت حتلايم فين على المبلغ ده كله وأنا عمري ما اشتغلت في الحرام ولا أنا بتاع الشغل ده خالص ويشهد عليَّ الله. لفيت يمين ولفيت شمال علشان أنا كنت حالف يمين أطلع قبل سنة ٢٠٠٠. لكن ماعرفتش أتلايم على الموني. لغاية ما قابلت الواد الزبالة البلطجي اللي اسمه راشد الكهربائي، جالي على القهوة في أول يوم من سنة ٢٠٠٠، وأنا كنت قاعد الضهرية مش لاقي حاجة أعملها. سألني لو كنت عايز أكسب لي قرشين بدل لطعة القهاوي؟ قلت له: إيدي على كتفك. أنا طبعا كنت عارف إنها شغلانة حرام زيه. بس أنا كنت عايز أتلم عالقرشين علشان أخلع. وطلع الموضوع طبعا حرام في حرام.. هو ومجموعة معاه يسرقوا عربيات من مصر ويجيبوها على الفيوم في حته خلاء. وأنا أبقى مستنيهم هناك. المطلوب مني أفككها حتة حتة علشان تتباع قطع غيار للتجار. صليت صلاة استخارة وتوكلت على الله وقلت لنفسي حاصوم كفارة. واشتغلت معاهم سبع شهور فككت فيها عربيات على كل لون لحد ما عكمت على المبلغ المطلوب.

✧ ✧ ✧

نظر عبد اللطيف في ساعته وتأكد أنها العاشرة صباحًا.. طرق الباب وانتظر طويلًا، أخيرًا فتحت له هاجر الباب ودعته إلى الدخول، كانت ترتدي روب دي شامبر واسعًا يغطي جسدها كله، وكان من الواضح أنها ارتدت حجابها على عجل، فقد خرجت شعيرات كثيرة من الإيشارب الذي وضعته على رأسها ولكنها لم تكن ولأول مرة في حالة الابتسام التي اعتادها عبد اللطيف.

كان أيمن في رحلة عمل إلى تكساس واتصلت به هاجر مساء أمس لتبلغه عن كارثة في سباكة الشقة، فقد بدأت المياه في الارتفاع من البالوعة واتفق أيمن مع عبد اللطيف أن يذهب لنجدتها في صباح اليوم التالي. خطا تيفا إلى داخل الشقة بقدمه اليمنى بعد أن رفع صوته بكلمة: «يا ساتر» التي اعتادها في أثناء عمله كهربائيًا في الفيوم.

ـ هو عندكم كمان بتحصل الحاجات دي؟ أنا كنت فاكرة إن الحركات دي حكر على البلاعات الصناعة المصرية؟

ـ عندهم مش عندكم .. أنا لسة ما خدتش الجنسية.. بس خدت الجرين كارد. والحاجات دي طبعا بتحصل هنا وأسوأ من كدة كمان.

ـ بمناسبة الجرين كارد أنا استلمت واحد مؤقت، يا ترى حأستلم النهائي إمتى؟

ـ بعد حوالي سنة ونص بيبعتوا علشان «إنترفيو» (Interview) تاني، وبعد الإنترفيو بتاخدي الجرين كارد النهائي.

ـ وده حتبقى مدته قد إيه؟

ـ ده مدته عشر سنين، بس أول ما تخديه خلاص انتهت كل المشاكل.

ـ والجنسية؟

ـ بعدها بتلات سنين بتاخدي الجنسية.

ـ يعني قدامي سنة ونص علشان آخد الجرين كارد النهائي

ـ تقريبا

ـ وحتعرف تحل مشكلة السباكة؟

ـ بعد سنة ونص برضه.

ثم يضحك ضحكة خافتة، ويكتمها عندما لا يجد أن هاجر قد ابتسمت.

السباكة مش تخصصي، بس ربنا يسهل. استعنا على الشقا بالله.

✧ ✧ ✧

خرج عبد اللطيف من منزل أيمن وهو يستشعر الغدر. قال للشربيني: هاجر سوف تطعن أيمن في ظهره طعنة نجلاء.. وسوف تقضي على الأخضر واليابس، وفي النهاية سوف يكون لها خمسون في المائة مما يمتلكه ومن الممكن أن يضيع جهدنا في بناء علاء الدين سُدَىً.. لا بد من تحذيره.

كانوا جميعًا قد اعتادوا زيجات البيزنس، وقاموا جميعهم، ومن دون استثناء بالزواج من أمريكية للحصول على الإقامة، وعلى الجرين كارد.

كان بيتر أناستازي الرجل المختص بشئون الإقامة لطاقم علاء الدين، شابًا أمريكيًا في الثلاثين من العمر من أصل إيطالي، متخصصًا في الإجراءات القانونية الخاصة بإدارة الهجرة والجنسية وعليمًا بكل ألاعيب إدارة الهجرة.. فالدماء الإيطالية التي تجري في عروقه جعلت من الصعب التلاعب به من قبل هؤلاء الموظفين الملعونين. تكلف مشروع زواج عبد اللطيف من بدايته حتى نهايته

شاملًا أجر الزوجة والمحامي والإجراءات أحد عشر ألف دولار، حصلت الزوجة على ثمانية آلاف دولار وحصل بيتر على ثلاثة آلاف دولار. وقام بيتر بعد الانتهاء من إجراءات الزواج.. بإثبات إقامة الزوجيْن في عنوان واحد.. على الورق بالطبع، ولدى بيتر من العلاقات داخل إدارة الهجرة ما يسمح له بمعرفة ما إذا كانت الإدارة تنوي إرسال مندوب للتأكد من الإقامة المشتركة؛ الأمر الذي بدأوا يشددون عليه بعد ٩/١١، وفي هذه الحالة يبلغهم بالموعد كي يكونوا موجودين في التوقيت نفسه في شقة الزوجية.

ولكن الجميع يحتقر اللجوء إلى الزواج بالخديعة وبدعاوى الحب والمداهنة. ففي هذا الأمر من الأفضل التعامل بمنطق البيزنس؛ فهذه هي أصول الدعارة.. أشرف المهن في القرن الواحد والعشرين.

✧ ✧ ✧

لو كانوا حلفوا لي على المية تجمد إن الرحلة لغاية هنا حتبقى صعبة للدرجة دي.. ما كنتش ممكن أصدَق. بس أرجع وأقول زي ما الولادة صعبة، والأم بتقعد تصرّخ من قرونها لغاية ما يطلع العيل. أنا كمان اتولدت هنا ولادة جديدة وكان لازم أنا كمان أصرخ من قروني، وأرقع كمان بالصوت الحياني علشان أوصل هنا. هي دي سُنّة الحياة.

الرحلة خدت أكتر من شهرين.. أنا سافرت يوم الأحد ٢٧ أغسطس سنة ٢٠٠٠ الساعة أربعة الصبح ودخلت ولاية تكساس في أمريكا يوم الخميس ٢ نوفمبر الساعة ثمانية الصبح. وفي

الشهرين والستة أيام دول شفت اللي ما حدش شافه.. اتقلبت صح على الجنبين.

✦ ✦ ✦

لحق عبد اللطيف بسفينة نوح.. لحق بها بعد أن سدت في وجهه سبل الرزق في الفيوم، سافر كما فعل كل معارفه الأكبر سنًا وكما سيفعل من بعده كل شباب منورس. سافر عبد اللطيف وسط زغاريد أمه وتهنئة أخواله وأبناء أخواله وقبلات الأصدقاء، كان يتمنى أن يلتقي بخاله حسنين الأقرب إلى قلبه، ولكن لا أحد كان يعرف على وجه اليقين في أي جب تم إلقاؤه.

ركب هو وعبد النبي ميكروباصًا من الفيوم إلى القاهرة وطلب منه عبد النبي أن يأخذ معه أقل القليل: غيارات داخلية وقميصًا واحدًا إضافيًا وأنواعًا من السندوتشات تكفيه لمدة أربعة أيام على الأقل وكفى.. فالرحلة طويلة ويجب أن يكون المرتحل خفيفًا وسريعًا. شرح له بالتفصيل وخطوة بخطوة تفاصيل الرحلة وحفّظه عن ظهر قلب رقم محمول «بيدرو» للاتصال به من فور وصوله إلى مطار «كيتو» بالاكوادور، وأخيرًا طلب منه ألا يلتهم مخزون السندوتشات بسرعة وغباء فعليه تنظيم وجباته: لكل عدد محدد من الساعات عدد محدد أيضًا من السندوتشات وإلا سوف يجد نفسه مضطرا إلى أن يشتري مأكولات بأسعار خيالية من المطارات. نزل عبد اللطيف وعبد النبي في ميدان الرماية بالجيزة. وقف عبد اللطيف مشدوهًا من زحام ميدان الرماية ومنظر فنادق خمس نجوم التي تحيط بالميدان: فندق «فورت جراند» على اليمين وفندق «سوفيتل» على اليسار ثم «جولى فيل» من بعده.. وثبت بصره على مشهد أهرامات الجيزة التي كانت تطل عليه لتودعه.

كانت أول مرة يضع قدمه على أرض القاهرة الساحرة، وظل ثابتًا لا يستطيع أن يرفع نظره عن مرأى خوفو العظيم، وبقيت هذه المحادثة الصامتة بينه وبين خوفو ثابتة في مخيلته لا تفارق ذهنه. ركبا الميكروباص إلى ميدان الجيزة ومنه إلى ميدان التحرير. أكلا كشري من محلٍ لوكس في باب اللوق وأضاف عبد اللطيف صلصة طماطم وبصلا وحمصًا على اعتبار أن عبد النبي ولأول مرة هو الداعي. ركبا أوتوبيسًا إلى المطار.. وصلا قبل إقلاع الطائرة بحوالي خمس ساعات. سلم عبد النبي التذكرة لعبد اللطيف وقال له إنها تكلفت أربعة آلاف وأربعمائة جنيه، وكان قد استلم منه خمسة آلاف، وعمولته في تلك القصة هي الستمائة جنيه بالإضافة إلى المائة دولار التي أخذها منه أمس الأول.

ودَّع عبد النبي تيفا وقال له:

«بكرة حنتلاقى .. ما هو طباخ السم لازم يدوقه».

أقلعت طائرة KLM الخطوط الجوية الهولندية من مطار القاهرة الدولي في الساعة الرابعة صباحا متوجهة إلى أمستردام، نزل عبد اللطيف في أمستردام في الساعة السابعة وخمس وثلاثين دقيقة بتوقيت هولندا وقبع في المطار لمدة ست عشرة ساعة في انتظار إقلاع الطائرة المتجهة إلى «كيتو».

✧ ✧ ✧

أنا نمت في الطيارة زي الفسيخة، ولكن عيني ما غمضتش لحظة طول ما أنا ترانزيت في مطار هولندا، من البنات وسنين البنات.. اللي شفته هناك يشيِّب. سمعت كتير من عيال في الفيوم راحوا اشتغلوا في الغردقة وفي شرم الشيخ على لبس البنات، واللي

بيعملوه الرجالة والستات في بعض، وشفت بعيني أفلام سكس في قهوة في الفيوم، بس إنك تشوف بوس وتقفيش بعينك كده جهارًا نهارًا حاجة تانية خالص. أنا برضه كان حظي حلو وقعت في ستة شباب ثلاث ولاد وتلات بنات قعدوا قدامي مستنيين زي حالاتي طيارتهم، فضلوا يبوسوا في بعض وإيه كمان باللسان، وواحدة منهم كمان فتحالي رجليها على الآخر.. وأنا قاعد اتفرج سلطان زماني، وببلاش. مشيوا دول قعدت أتفرج على لبس الستات، اللي مطلعه صدرها بره.. واللي ملابسها الداخلية باينة.. حاجة قلة أدب. شوية ودخلت الحمام.. أول ما رجلي عتّبته شهقت بعلو صوتي.. كل حاجة فيه بتبرق.. الأرض بتضوي.. عمري ما شفت مكان في حياتي بنظافة الحمام ده. بقيت كل شوية أروح على الحمام أغسل وشي وأرجع.. لغاية في مرة لقيت واد وبنت بيتسخمطوا ولا مؤاخذة مع بعض.. خرجت جري لقيت واحد بوليس داخل الحمام.. قلت يا نهار أسود حيموتهم.. قعدت استنيت على الباب وقلت لنفسي حتبقى فرجة.. لقيته خرج عادي جدا.

أنا كمان كنت مرعوب من البوليس.. قالوا لي إن البوليس ممكن يبهدلك وانت قاعد مستني طيارتك.. خليك محضّر الباسبور والتذكرة.. حظي كان كويس وما حدش قرّب مني خالص.

أنا في الآخر قلت خسارة ١٦ ساعة بس.. كانوا قليلين والله.. وفي الآخر طلعت الطيارة.

✦ ✦ ✦

أقلعت طائرة KLM في تمام الساعة الحادية عشرة وخمس وثلاثين دقيقة مساء من مطار «سخيبهول الدولي» بأمستردام. نام

عبد اللطيف نومًا هانئًا خلال معظم فترات الرحلة ولكنهم أيقظوه لمشاهدة مدينة كيتو من أعلى فهي تحفة للناظرين؛ فقد تم بناء المدينة على ارتفاع ألفين وثمانمائة متر فوق سطح البحر في وادٍ أخضر ولا يمكن أن ترى ذلك البستان بألوانه الزاهية المتنوعة إلا من أعلى. هبط تيفا في الساعة الثامنة صباحا بتوقيت الاكوادور إلى مطار «الماريشال سوكري الدولي» بكيتو عاصمة دولة الموز ـ كما يطلقون عليها ـ والأوضاع السياسية والاقتصادية في حالة غليان، فقد بدأ القرن الجديد باندلاع مظاهرات عنيفة في أنحاء البلاد تطالب باستقالة رئيس جمهورية الاكوادور الدكتور «جميل معوض» العربي اللبناني الأصل بعد أن ساءت الأحوال وتدهورت الأوضاع الاقتصادية حتى وصل معدل التضخم إلى ٤٠,٧٪ سنويًا، وقد ارتفعت أسعار الكهرباء وأسعار الطاقة خلال عام إلى ما يزيد عن الـ٤١٠٪. وارتفع سعر صرف الدولار الأمريكي بالنسبة إلى «السوكري» وهي العملة الوطنية بنسبة ١٩٧٪ في عام ١٩٩٩ ليتم إعلان حالة الطوارئ في البلاد يوم ٦ من يناير من عام ٢٠٠٠.

لكن ولله الحمد لم تغير تلك القلاقل السياسية شيئًا في أمر التأشيرات التي تمنح للمصريين. فالاكوادور من الدول القليلة في العالم التي تمنح المصريين تأشيرة في المطار وبصورة فورية ولمدة ثلاثة أشهر، في حين أن مواطني دول مجلس التعاون الخليجي مثلا لا يحتاجون إلى تأشيرة لدخول الاكوادور على الإطلاق، على الرغم من أن السفارة المصرية في كيتو تعد هي التمثيل الدبلوماسي العربي الوحيد اللهم إلا قنصلية لبنانية.

استطاع عبد اللطيف، بفضل دعاء الوالديْن، الاتصال ببيدرو وتهته له كلمات عربية بنطق تصور أنه انجليزي فهم منه بيدرو المقصود.

انتظر عبد اللطيف في المطار حوالي الساعتيْن انتهت نهاية سارة بحضور «مازن» وهو شاب أردني أخذه من يده وانطلق به إلى الخارج.

✦ ✦ ✦

أنا خرجت من هنا وكأن واحد طبق في زمارة رقبتي، لقيت نفسي اتبليت، وجيت آخد نَفَسي ماعرفتش، وقفت وكأني بأفلفص. واتشاهدت على روحي. مازن قال لي ما تخافش الرطوبة زايدة شوية النهاردة.. النهاردة إيه؟. استمر الحال على أبوه طول المدة اللي قضيتها هناك. الرطوبة يا ساتر لا شفت ولا حاشوف. مفيش خمس دقائق حسيت بشوية دوخة.. أنا قلت من قلة الهواء وكتر المياه اللي عمالة تدخل على الرئة.. مسكت راسي بإيديا الاثنين راح مازن ضاحك عليَّ وقال لي إن الشعور بالدوخة ده من الارتفاع ما إحنا حوالي ثلاثة الآف متر فوق سطح البحر.. قلت له يا عم ده أنا جاي لكم من الفيوم. المدرس بتاعنا الله يجحمه، اللي كل شوية كنت أجيب له بطة من عند أمي علشان ينجَّحني، كان دائما يقول لنا إن بلدنا ٤٠ متر تحت سطح البحر.. وبعدين يبص لي ويقول لي علشان كدة إنت واد واطي.

المهم خدني مازن أفندي في عربية قديمة، وقعدت طول الطريق أتفرج على منظر الناس.. كانوا غراب جدا ببرانيطهم الكبيرة ولبسهم

الواسع. «إيه يا عم جو اللبس ده؟» «دول هنود، حوالي ٣٠٪ من السكان هنا هنود». وصلنا أخيرا ودخلنا علبة صفيح كبيرة لقيت فيها بطاطين مفروشة على الأرض وطبليات. قعدنا وقال لي فيه مجموعة طالعة معاك لكن اتأخرت شوية، حننتظر لما تبقوا ثلاثين واحد وبعد كدة حنتوكل على الله على أمريكا.

✦ ✦ ✦

انتظر عبد اللطيف في علبة الصفيح ثلاثة أسابيع حتى يتم استكمال العدد المطلوب. زاره أكثر من مرة «بيدرو» وهو واحدٍ من جحافل الشباب التي تحولت إلى عمليات نهب وسرقة، شكّل عصابة دولية هو وزملاء الضنك من كولومبيا والمكسيك لتهريب عمال إلى الولايات المتحدة المشرفة العامة على تصنيع البؤس والضنك المحلي في زجاجات صغيرة جميلة الشكل بعد أن فشل رئيس الاكوادور الجديد السيد «جوستفاو نوبوا» في القيام بالمطلوب منه؛ فلم يكن في هاجسه إلا تنفيذ خط أنابيب البترول الجديد بالقوة، ولم يوجه جهوده بالشكل المنتظر لإيقاف الفقر المتنامي الذي أصاب ٧٠ في المائة من سكان الاكوادور.

اعتاد عبد اللطيف الانتظار طوال حياته. كان ينتظر الميكروباص في الفيوم حتى إشغال الراكبين لكل الكراسي قبل أن يتحرك السائق. وكان ينتظر اللاشيء حتى يظهر شيء جديد في الكون. لم يضايقه أن يكون أول الحاضرين ومضغ الدقائق برحابة نفس. شرّف في اليوم التالي على البطانية المجاورة شاب مهووس من نيجيريا يدعى «كالو» لم يستطع تيفا التعامل معه بأي صورة من الصور..

ثم انضم إليهم في علبة الصفيح على مدار الأيام رجال من مختلف الجنسيات كان أغلبهم من دول إفريقية مثل سيراليون والكونجو وغينيا وساعده حظه السعيد الذي دائما ما يفتخر به عندما قدم شاب عربي من المغرب يدعى «سعيد» كان يكبره في السن بحوالي الخمسة عشر عامًا.

وباستكمال العدد، دفع كل منهم مبلغ ألفين وخمسمائة دولار أمريكي بإجمالي خمسة وسبعين ألف دولار. وفي اليوم التالي لتحصيل المبلغ تحركت القافلة بأوتوبيس متهالك من كيتو سار عبر جبال الآنديز ثم عبر غابات الأمازون متجهًا إلى الحدود الكولومبية.

مروا بالعديد من المجتمعات الفلاحية والمحلية التي تعيش في ظروف بائسة، تنقصها مياه الشرب والكهرباء وعلى مدى الطريق شاهدوا أكوامًا من الغبار المختلط بالبقايا السوداء من آثار «الديرّامس»، وهو ما يتسرب من خطوط أنابيب البترول؛ حيث إن ٩٦,٦ في المئة من النفط الخام الذي تنتجه الاكوادور يأتي من غابات الأمازون، وتطلبت عمليات التنقيب شق طرق وصل عمقها في الغابات إلى ألف كيلومتر فاقتلعت الأشجار على مساحة آلاف الهكتارات من الغابات ثم حولت الأمطار تلك الأراضي إلى مساحات شاسعة من الوحل، دون اهتمام من أي جهة بالطبيعة أو بالبشر من بقايا المنتجات الكيميائية المستعملة في حفر الآبار؛ الأمر الذي أدى إلى تفشي الأمراض، خاصة السرطان.

قبل الحدود الكولومبية ببضعة كيلومترات توقف الأوتوبيس

وطلبوا من الجميع الهبوط في منطقة خالية من البشر عدد أشجارها كعدد حبات الرمل في الصحراء.

ومن هناك بدأوا رحلة سير على الأقدام استمرت يومًا عبر الغابات لتخطي الحدود دون المرور على أي نقطة تفتيش.. كان كل واحد منهم يحمل على ظهره عشرين كيلوجرامًا من المياه بصورة احتياطية في حالة تعرضهم لمشكلة تؤخر وصولهم إلى النقطة المتفق عليها. مروا عبر الحدود الاكوادورية الكولومبية بسلام، وفي أول قرية كولومبية ركبوا أوتوبيسًا آخر حالته أسوأ من الأول.

عند بداية الرحلة داخل الأراضي الكولومبية، بدا على سعيد الجالس إلى جانب عبد اللطيف التوتر الشديد وعند أي تباطؤ في سرعة الحافلة التي يستقلونها يقفز هلعًا ناظرًا من النافذة الملاصقة لتيفا ثم يبدأ في قراءة سور من القرآن الكريم لبث الطمأنينة في قلبه. تدريجيًا انتقل الرعب إلى عبد اللطيف الذي لم يكن يعرف في هذه اللحظة اسم الدولة التي يمر بها، وقد كان سعيد الحاصل على بكالوريوس في التربية ولديه خبرة عشر سنوات في التدريس في العديد من المدارس المغربية يعلم حق العلم حجم المخاطرة التي يمرون بها، يعلم أن الموت هو أحد الاحتمالات القائمة ولكنه اعتبر أن الموت في أثناء المحاولة أفضل من الموت اليومي البطيء الذي يعيشه في المغرب.

✧ ✧ ✧

بعد ثلاثة أيام بالضبط من هبوط طائرة عبد اللطيف إلى كيتو وكان ما زال يأكل في أرغفة الخبز التي اشتراها من فرن الكوثر

بالفيوم في حجرته الصفيح، وبالتحديد في ٣٠ من شهر أغسطس، نزل الرئيس الأمريكي «بيل كلينتون» في كولومبيا من أجل إطلاق «مشروع كولومبيا»، الذي بمقتضاه سوف يتم تسليم القسم الأول من الـ١٣٠٠ مليون دولار إلى الحكومة الكولومبية. وهي في غالبيتها مساعدات عسكرية ستستعملها حكومة السيد «أندريس باسترينا»، نظريًا، في سبيل مكافحة الاتجار بالمخدرات والقضاء على «الزراعات غير المشروعة» المستعملة في تصنيع المخدرات. ولكن كان الغرض الحقيقي لهذه المساعدات هو محاربة الثوار الأعضاء في «القوات المسلحة الثورية في كولومبيا» و«جيش التحرير الوطني» و«جيش التحرير الشعبي الكولومبي»، بالإضافة إلى إمكانية استعمال هذه المنحة خارج كولومبيا للتأثير في مسار خطوط السياسة المتعرجة في أمريكا اللاتينية وخاصة في بلاد الجوار كدولة الاكوادور. واعتبر العديد من الخبراء والمنظمات غير الحكومية أن من شأن هذا «المشروع» تغذية الحرب وتجميد المفاوضات مع الثوار وإطلاق يد القوى شبه العسكرية ويد القوات المسلحة لخدمة المصالح الأمريكية. وكان شهر أغسطس عام ٢٠٠٠ تبجيلا وفرحة بقدوم الأستاذ عبد اللطيف الفيومي إلى أراضي أمريكا الجنوبية هو البداية الجديدة في علاقات الولايات المتحدة مع أمريكا اللاتينية لتدشين التدخل العسكري الأمريكي المباشر ووجود قوات عسكرية أمريكية على الأراضي الكولومبية.

✧ ✧ ✧

- يا تيفا مش كفاية لت بقى .. وتيجي تشوف أكل عيشك

بدل ما أرفدك من علاء الدين، وتبات جعان وتقول يا ريت اللي جرى ما كان.

ـ والله ما تقدر.. لو لفيت الكرة الأرضية مش حتلاقي زيي.

ـ إن جيت للحق مش حألاقي.. بس التليفونات على ودنه ولازم تستعد بدل ما انت عمال تتكلم في التليفون.

ـ تصدق بايه.. أنا بتكلم علشان طلبية البط اللي قلت لك عليها.. يا أستاذ أيمن احنا ولعة.

ـ ياللا يا مجدي.

ـ أنا ميالله أهُو.

ـ موسى تعالى يا زول خد الخمسة بيتزا دول واطلع على العنوان ده.

ـ أنا الرهوان.. فركيكو العجيب.

ـ أكرم باشا بنفسه وصل لمحلي المتواضع. أشرقت الأنوار. ده كان الواجب ننقل المحل بصاحب المحل لمعالي السيادة.

ـ يا رجل يا بكّاش، أنا أصل النهاردة يا أيمن عايز املأ التلاجة على الآخر بكل الافتكاسات بتاعة الواد تيفا.. إبني فريد جاي بعد كام يوم من لندن علشان يزورني لمدة أسبوعين.. تلاقيني مش على بعضي من الفرحة.

ـ ربنا يملا حياتك كلها بالأفراح يا أكرم باشا.. خلاص حنشتري تلاجة مخصوص ونملاها علشان تعرف احنا بنحبك قد إيه.

✧ ✧ ✧

وعلى الرغم من كل ما يقوم به أيمن من مجهود لإسعاد زوجته، فإن هاجر تعيش في عالم منعزل. وكأنها داخل حضَّانة صناعية في معمل ما زالت تنتظر أن تخرج إلى الحياة. حالة انعدام وزن مزمن لا يرى أيمن له حلاً. عندما علم أنها حامل طار من السعادة وتوقفت الدنيا عن الدوران وذاب في اللحظة حتى اختفى. سجد شكرًا لله داخل عيادة الطبيب. وبعد أن عاد إلى الدنيا لم يجد أمامه إلا جبلاً من الجليد الأبيض الذي يبتسم الابتسامة ذاتها المرسومة على شفتيْها بلا اكتراث، ناظرة إلى لا شيء، أو إلى داخل غير معلوم.

وعلى الرغم من حالتها غير المفهومة نظرًا إلى كونها أقرب إلى ماكينة منها إلى إنسان، فإنه رفض رفضًا قاطعًا تحذير الشربيني وعبد اللطيف له أنها هنا لزواج بيزنس وسوف تأتي قريبا اللحظة المواتية التي سوف تسدد إليه فيها الضربة القاضية بلا أي رحمة، ولن تكون الضربة قبل حصولها على الجرين كارد، فعليه توخي الحذر أو العمل على تأجيل استلامها الإقامة الدائمة بأي شكل. إلا أن أيمن بعد هذا التحذير بدأ يسأل من حوله من المقربين الذين يتوقع منهم فهمًا عميقًا للحياة عن حالة زوجته.

طمأنته طبطبتهم عندما قالوا له:

الناس يا أيمن تنويعة مذهلة من الأقمشة، تجد منها كل الأنواع وكل الألوان، تجد منها الجبردين والكريب والصوف والساتان وتيل نادية والتفتاه والشيفون والأورجانزه واللينو.. والبرتقالي والنيلي واللازوردي والليموني والبنفسجي.. تجد خيطًا من الحرير لا يمكن قطعه، ونوع خيط آخر تقطعه دون بذل أي مجهود، وخيطًا آخر يذبل من تلقاء نفسه. لا تحكم عليها وكأنها من قماشك نفسه

ومن لونك نفسه، فتلك هي طبيعتها، وعليك أن تأخذها كما هي.

أعجب أيمن بهذا التفسير وبدأ يطبقه عند كل لحظة حسرة وكل لحظة تساؤل وكل مرة تطعنه فيها نظرتها الميتة بقسوة لا حدود لها. ولكن في النهاية ظل التحذير ماثلًا أمام عينيْه فقد رأى من زيجات البيزنس ما جعله في قرارة نفسه قلقًا.

ـ مش ممكن ده حيحصل.

ـ إيه ده اللي مش حيحصل يا أيمن؟

ـ ما تاخدش في بالك يا أكرم باشا.. بهَلْوِس حبتين، الفكر مشغول شوية.

✦ ✦ ✦

أكرم المنجي رجل أعمال مصري في الخمسين من العمر خرج من مصر بتأشيرة سليمة جدًا من القنصلية الأمريكية في القاهرة ليقيم في الولايات المتحدة منذ أقل من العام بعد تعثره في سداد مديونياته وبعد أن قام بتحويل مبلغ ثمانية عشر مليون دولار إلى الخارج وترك أعماله في مصر مرهونة لصالح عدة بنوك مصرية. ماتت زوجته بسرطان الثدي قبل هروبه من مصر بحوالي ستة أشهر، ولديه ابنة متزوجة من أمريكي منذ خمسة أعوام ويعيشان في فلوريدا، وابن أصغر يدرس الاقتصاد في لندن.

قرر أكرم منذ مجيئه إلى الولايات المتحدة أنه على المعاش.. وأنه لن يعمل في حياته مرة أخرى، لن يقامر أو يضارب بأمواله حتى في البورصة.. ولن يقوم باستثمارها في أي استثمار غير مضمون.

عاد أكرم بعد ساعتين إلى علاء الدين، وعندما لم يجد هذه المرة «أيمن» استدعى عبد اللطيف وأخذه إلى الخارج بدعوى استنشاق الهواء النقي.

ـ انت بتاخد مرتب كام يا تيفا؟

ـ ليه سعادتك؟

ـ يا سيدي قل لي حتخسر إيه؟

ـ باقبض ٤٥٠ دولار في الأسبوع، وباقبض أعمال إضافية بحوالي مائة وعشرين في الأسبوع.. يعني على بعضه باعمل لي ألفين ميتين وثمانين دولار في الأسابيع الأربعة.

ـ والسكن على مين؟

ـ عليَّ

ـ والكهرباء والغاز؟

ـ عليَّ طبعا.. بس ليه كل ده.

ـ إيه رأيك يا عبد اللطيف تيجي تشتغل عندي؟ الشغل حيبقى أخف قوي قوي من هنا.. حأديك ألفين دولار في الشهر.. وح أديك أوضة بالتلفزيون.. فيها كل القنوات العربي ويبقى كدة السكن والكهرباء والغاز عليّ وطبعا الأكل عليَّ. يعني ممكن تحوش يا عم المبلغ كله.. إيه رأيك بقى؟

ـ في الحقيقة أنا مستريح نفسيا هنا.. والشباب هنا زي الفل.. والأستاذ أيمن مريحني على الآخر.

ـ امسك ورقة وقلم واحسبها.. اجمع واطرح واضرب.. كله بالحساب يا عبد اللطيف وبالحساب تقدر تقرر.

ـ حافكر.

ـ فيه حاجة أخيرة حأقولها لك حتفيدك في الحساب.. فيه كلمة غبية قوي بيتكلمه عنها في مصر كتير .. وهي التكافل الاجتماعي.. بس ممكن نطبقها عليك.. طبعاً مش علشان التكافل إنما علشان طبيخك.. ودي معناها إني حأديك هدوم وجزم ومش حتحتاج تشتري حاجة. إحسبها يا تيفا.. بس قرر بسرعة أنا محتاج حد على طول.. إبني جاي بعد أسبوع.

✧ ✧ ✧

كما توقع سعيد لم تستقبلهم الأراضي الكولومبية بالأحضان. كان التوتر بين الحكومة الكولومبية و«القوات المسلحة الثورية في كولومبيا» قد وصل في حدته إلى لحظة انطلاق السهم من القوس. كانت الدوريات العسكرية في كل مكان، شاهدوا عساكر ومرتزقة وعصابات وهولّا شاب منه سعيد، حتى سمعوا عن قرب تبادل نيران كثيف. توقف الأوتوبيس وربضوا في مكانهم بلا حراك ولا نفس.

اضطروا في اليوم التالي إلى أن يتركوا سيارتهم؛ فقد كان عليهم المرور في منطقة شهيرة بعصابات الكوكايين. استمر الفوج المهاجر سيرًا على الأقدام لمدة يومين، حتى وصلوا إلى قرية أمدتهم بأربعين حمارًا انطلقوا بها لمدة ثلاثة أيام أخرى. أحب عبد اللطيف حماره

منذ أول ركوبة وتبادلوا المودة والنكات عبر الطريق، وكان فراقهم صعبًا.

وعندما عرف «كالو» الشاب النيجيري أن هناك تجارًا قريبين منهم، طلب الذهاب إليهم لشراء كوكايين، وكان قد بدأ يسبب لهم منذ أيام مشكلات كثيرة بعد انتهاء الكمية التي كانت بحوزته. وانتهى أمره بأن أخرج بيدرو مسدسه وأرداه قتيلا. كان كالو واقفًا على بعد سنتيمترات قليلة من عبد اللطيف وقرر السقوط ميتًا ناحيته وأخذه بجسده الهائل وسقطا معًا. رحل كالو آلاف الكيلومترات من موطنه في مرتفعات «أوبودو» في جنوب نيجيريا كي يدفن هناك في مرتفعات الأنديز داخل أرض الكوكايين. دفنه فوج الطيور المهاجرة نحو الشمال. حفروا حفرة واسعة وقرأ سعيد آيات من القرآن ورموه داخل الحفرة وغطوها مرة أخرى وشدوا الرحال.

استمرت القافلة تسير بأوتوبيس تارة، على الأقدام تارة، على الحمير تارة، بلنشات بحرية تارة أخرى. ركبوا لنشا بحريًا في المحيط الهادي للمرور بين الحدود الكولومبية والبنمية. ولحظة أن وطئت أقدامهم أراضي بنما بدأ سعيد في الضحك الهستيري. كان لا بد أن يُخرج من جسده شحنة التوتر التي تراكمت داخله عبر أيام الرعب الكولومبي.

واستمرت القافلة على المنوال نفسه عبر «بنما» ومنها إلى «كوستاريكا».. ثم «نيكاراجوا» وبعدها «هندوراس». آلاف الكيلومترات عبر ممرات ومدقات ودهاليز وجبال ومحيطات. طريق سلكه آلاف وآلاف من البشر، عبر العشرين عامًا الماضية

للتسلل إلى الولايات المتحدة خاصة بعد الحروب الدامية، التي اندلعت في بلدان أمريكا الوسطى في السبعينيات وفي الثمانينيات من القرن العشرين. وأخيرًا وصلوا إلى السلفادور وهناك بدأت الرحلة تأخذ شكلًا مختلفًا؛ فقد تم تجميعهم في شاحنات عملاقة على شكل ثلاجات لنقل الفاكهة.

بدأت رحلة الثلاجات للعبور عبر الحدود بين السلفادور وجواتيمالا ثم اخترقوا دولة جواتيمالا حتى وصلوا إلى الحدود الجنوبية للمكسيك. هناك نزلوا جميعًا وساروا على الأقدام مرة أخرى لمدة يوم حتى وصلوا إلى نهر عبروه عائمين وأصبحوا بعدها في المكسيك. ثم شحنوا مرة أخرى في ثلاجات الفاكهة العملاقة. وكان السائق يضطر إلى تشغيل الثلاجات نصف ساعة قبل نقاط المرور بحيث تكون الثلاجة قد وصلت درجة حرارتها إلى درجة التجمد ثم يغلق الثلاجات بعد مروره من نقطة التفتيش.

✦ ✦ ✦

كنا كلنا أفارقة وما حدش فينا شاف يوم برد في حياته. ما فيه واحد فينا عرف في يوم معنى كلمة تكتك من البرد.. بس في التلاجات ماكانتش تكتكة دي كانت طقطقة لأرواحنا.. كانت لحظات موت بجد.. حسينا إن احنا بنفرفر.. ألم فظيع يبدأ يضرب في مفاصلك.. تدعك إيدك تلاقيك مش حاسس بيها.. تعرف إن ايدك ماتت. وبعدين شوية بشوية إحساسنا ببدننا يبدأ يتلاشى، وكأن الدم اتجمد جوة الشرايين. كل ثانية كانت بتمر كنا بنقرب فيها من الموت أكثر واكثر، عزرائيل كان قاعد جنب السواق مستني أي لحظة ضعف من

واحد فينا علشان يقصف روحه.. أنا شفت وشه بعيني بس غمضتها بسرعة علشان يبعد عني.

لكن زي ما وعدنا بيدرو وصلنا شمال المكسيك سالمين غانمين. نزلونا هناك قدام الحدود مع تكساس وبدأ الامتحان اللي بحق وحقيق.

بدأت لحظة الحقيقة.

✦ ✦ ✦

يبلغ طول الحدود الأمريكية مع المكسيك ٣٣٦٠ كيلومترًا، تبدأ من مياه المحيط الهادي في أقصى الغرب عند نقطة تابعة لمقاطعة سان دييجو في ولاية كاليفورنيا إلى برونسفيل بولاية تكساس شرقًا. كل الولايات الجنوبية الغربية للولايات المتحدة هي أصلًا جزء من المكسيك قامت الولايات المتحدة باحتلالها في أثناء الحروب المتكررة بين البلدَيْن في القرن السابع عشر. وتعد تلك الحدود هي الأشهر في عمليات التسلل غير المشروع عبر الحدود في العالم. فيعيش اليوم أكثر من ثمانية ملاين مكسيكي في الولايات المتحدة معظمهم بصورة غير شرعية. ويربو عدد الأشخاص الذين يموتون سنويًا في أثناء محاولتهم التسلل عبر تلك الحدود على أربعمائة شخص سنويا.

وتقوم السلطات الأمريكية بإعادة هؤلاء المهاجرين ذوي الإقامة غير المشروعة من المكسيكيين إلى بلادهم خلال ٢٤ ساعة، أما أمثالهم من غير المكسيكيين فيمثلون تحديًا مختلفًا.

فقد كانت مراكز احتجاز المهاجرين ذوي الإقامة غير المشروعة، تعاني ولعقود طويلة من عدم وجود أماكن كافية لإيواء أمثالهم من غير المكسيكيين، الذين يتم القبض عليهم على الحدود، ولذا كان يُطلق سراح معظمهم إلى داخل المجتمع الأمريكي. وكان يحدد لكل منهم موعد للمثول أمام القضاء، لكن في الواقع لم يكن يظهر أي منهم في المحاكم إلا فيما ندر.

ذلك ما حدث بالضبط لعبد اللطيف؛ ففي أثناء تسللهم الليلي عبر الحدود تبادلت شرطة الحدود النيران مع بيدرو ومجموعته انتهت بمقتل شاب سيراليوني ومقتل سعيد برصاصة غادرة رشقت في رأسه، وانسحبت العصابة الإكوادورية الكولومبية المكسيكية المشتركة وتركوا السبعة والعشرين المتبقين في أيدي رجال الشرطة الأمريكية.

✦ ✦ ✦

اتمسكنا على حدود تكساس، أنا والله ما همنيش ساعتها أي حاجة. أنا كان همي كله في سعيد، كانت الدنيا ليل، والعتمة جامدة وطلقات الرصاص بتضوي في ودانا، كنا عمالين نخبط في بعض واتلمينا زي الفيران في دايرة صغيَّرة نتلمس الأمان في أجساد بعض، وفجأة سمعت صرخة قبل ما الطلقة ترشق ما بين عينيه وكأن قلبه كان حاسس إن الموت جي من غير نقض ولا استئناف. حضنته كان جسمه نار رغم البرد اللي كنا فيه.

لما اتقبض علينا ما كنتش بافكر غير في دفنة سعيد. مين حيصلي عليه؟ حيدفنوه يا ترى زي الخواجات؟ كان قلبي بيدمي.. سعيد كان

بقى زي أخويا تمام.. من دمي والله. أنا لغاية دلوقتي باحلم بيه.. ده أنا بأحلم بيه أكثر ما بأحلم بأمي.

اتحكم عليَّ بشهر ونص سجن، خرجت بعدها وقالوا لي إن لازم أحضر في المحكمة الفلانية يوم كذا الساعة كذا في قضية التهريبة بتاعة الحدود. ما عرفش سابوني إزاي بس فهمت بعد كدة ان ما كانش عندهم مكان في الزنازين، كانت كومبليه، يعني كامل العدد، بيقولوا إن عندهم أكثر من اثنين مليون بني آدم مشرّفين في السجون الأمريكية.. بلد لصوص على قتالين قتلة. الحكاية دي جت في الصالح. المهم بعد لما بصيت فوق ولقيت سماء زرقاء، اطقست من عرب قابلتهم صدفة قالوا لي مالكش صالح بالقضية دي خالص. اجري على ولاية تانية فورا... شرحوا لي إنه آخرتها حيتحكم عليَّ بالترحيل ومش حاستفيد غير إن أنا أكع فلوس للمحامي والحكم معروف: الترحيل الفوري.

رحت واخد بعضي وجيت على هنا.

عرفت أحوش مبلغ كويس وبابعث لأمي كل ثلاثة شهور ستمائة دولار على أساس انهم يطلعوا أكثر من ألف جنيه في الشهر. واهم معيشينها.. ونحمده على كل شيء.

✦ ✦ ✦

قام عبد اللطيف بعمليات الجمع والطرح والقسمة وأدرك أنه بتركه العمل مع أيمن والانتقال إلى أكرم المنجي سوف يكون رابحًا. فالانضواء تحت جناح أحد الأغنياء والواصلين بأيديهم إلى

السحاب سوف يشعره بدفء الأمان الذي لم يشعر به للحظة منذ اختفاء خاله حسنين. والغريب أنه كان يشعر بأن ثمة شبهًا بين أكرم وخاله خاصة في النصف العلوي من الوجه. أما بالنسبة إلى محل «علاء الدين» فقد بدأ يشعر ببعض القلق من غياب أيمن الدائم عن المحل بدعوى انشغاله بأموره العائلية، وبدأت بالفعل تظهر مشكلات خاصة بتوريد الغذاء وهي من مسئوليات أيمن المباشرة. أما السبب الأهم فهو أنه كان واثقًا من شعوره بأن يد الغدر سوف تضرب بكل قوة. متأكدًا من أن «هاجر» سوف تطلب الطلاق، عندما يستقر وضعها القانوني، وللنساء ألف طريق وطريق، وقد خطت أول خطوة وهي أن تكون أمًّا، والقانون الأمريكي تمت صياغته لسحل الرجال وراء رموش الخائنات من الزوجات. وفي حالة الطلاق سوف تحصل على نصف المحل، وما أدراه ما نوعية توابع هذا الزلزال على عمله هو شخصيًّا. وفي النهاية وعلى الرغم من عدم ذكر هذا الموضوع حتى لنفسه، فإنه كان دائم الهلع من إمكانية القبض عليه في أي وقت لتنفيذ حكم الترحيل الذي من المؤكد أن تكون قضيته في تكساس قد انتهت إليه. ومع أكرم بك سوف تقدم له يده الطولى ولا شك العون. كانت قصة ترحيله ضيفًا دائمًا على كوابيسه.. الليلية منها والنهارية.

✦ ✦ ✦

رجلان في ضخامة الأفيال.. زرق العيون.. يرتديان ملابس زرقاء بلاستيكية تلمع كالفسفور في ضوء الليل.. وفوق رأسيهما ترقد كاسكيتة زرقاء قاتمة. وفي اليد اليمنى يقبض كل منهما على

مسدس أصفر اللون، أما الهراوة التي تضوي بالنيون فيمسكونها في اليد اليسرى.. يقتحمان باب حجرة نوم عبد اللطيف، ويهجمان عليه وهو نائم في سريره، يصرخ أحدهما صرخة مفزعة وهو يضربه بكل قسوة بهراوته الزرقاء على جبهته في المكان نفسه بالضبط الذي اختارته الرصاصة لتستقر وإلى الأبد في جبهة سعيد العريضة.. فينتفض عبد اللطيف من الرعب والدماء تنزلق على فانلته الداخلية الصوف فيطلق عليه الآخر الرصاصة القاتلة .

فريد المنجي

بأكره أمريكا والأمريكان بقمصانهم الكاروهات وذوقهم الزبالة..العيال اللي مش طايقهم في الجامعة لقيت شبههم في كل مكان هنا.. أنا مش عارف بابا إزاي عايش هنا؟ وكمان بيقول لي دول أجمل وأطيب شعب في الدنيا.. حد يسيب أوربا ويعيش في بلد سايحة ومالهاش شكل كدة.. كلها (Highways) شوارع شوارع وما بين الشوارع شوارع. وكل حين ومين (Big Malls.. Wow) ما شفتش مكان في حياتي مالوش شخصية للدرجة دي. بجد مكان مقرف. الحمد لله قاعد كام يوم وبعدين تشاو بامبينو (Ciao Bambino). الاكتشاف الفظيع اللي هنا هو الولد تيفا.. صوته رائع.. عزفت إمبارح على شرف البت إنجي «على حسب وداد قلبي» وغناها هايل.. أنا كمان بأعشق الغناء الشرقي وما أعرفش أغني غير غربي..

حاجة تنقط.

✦ ✦ ✦

يحمل فريد المنجي في وجدانه كل تناقضات الدنيا والآخرة، فهو شاب عطوف وقاس، عازف جيتار ولاعب ملاكمة.. لص

أشر ومتعاطف مع البشرية، زير نساء ومحب ولهان، وهو راشٍ حقير وعفيف النفس، يكذب وهو صادق. كيف تعيش كل تلك المتناقضات في شاب لم يبلغ بعد الواحدة والعشرين؟ اللهم إلا أن نقول إنه ابن حقيقي لمجتمعه القاهري. وصل إلى الولايات المتحدة أمس الأول في ٢٢ من أغسطس ٢٠٠٥ قادمًا من مطار هيثرو الدولي لزيارة والده لمدة ثلاثة عشر يوما يعود بعدها ليلحق ببدء العام الدراسي في الجامعة الأمريكية ريشموند بلندن.

في اليوم التالي لحضوره، طرق عبد اللطيف الباب في الساعة الواحدة ظهرًا ليوقظ «فريد» من نومه بعد أن اتفق مع أكرم بك على زيادة العرض المقدم من ألفين دولار شهريًا إلى ألفي وثلاثمائة دولار شهريا على أساس أنه سوف يقوم بكل المهام الخاصة بالمنزل شاملة النجارة والسباكة وميكانيكا السيارة وما يستجد.

ـ صباح الخير يا أفندم.. أنا عبد اللطيف الطباخ الجديد.

ـ هو كان فيه قديم.. تفضل تفضل.. بابا قال لي إنك حتوصل النهاردة.

أودتك أهه .. حط شنطك فيها وتعال أفرجك على البيت.

قاده فريد إلى غرفة صغيرة بجانب المطبخ وانتظره على بابها حتى يضع حقيبته.

ـ كان أكرم بك قال لي إنه كان عندكم طباخ.

ـ مظبوط.. واحـدة فلبينية قزعة طولها متر وربع ومشيت خلاص.. وما كانش ممكن تطبخ لسبب بسيط جدا إن البوتاجاز

كان أعلى منها.. كانت بتعرف تفتح علب التونة هايل. أنا بابا قال لي إنك طباخ بريمو. أنا من ساعتها جعان.. ما احنا ما بناكلش بقالنا سنين غير من المطاعم. وحشنا الأكل البيتي.

- لا من الناحية دي اطمن.. بس خللي بالك على صوابعك.. أنا مش مسئول!

- قل لي يا تيفا.. أنا بابا قال لي إن بيقولوا لك تيفا.

- دي حقيقة ما قدرش أنكرها.

- طيب قل لي يا تيفا.. عندك فكرة ممكن الواحد يجيب حشيش هنا منين؟

- والله يا باشا أنا ما بشربوش.

- طب اسأل لي بس صحابك.. اتصرف يا تيفا ما تزعلنيش منك وخليك (cool).

✦ ✦ ✦

سافر فريد إلى لندن ولم يكن قد بلغ بعد السادسة عشرة من عمره، ولحقت إنجي أخته الوحيدة بالسفينة بعد تخرجها وزواجها من أستاذها بالجامعة الأمريكية بالقاهرة المتخصص في التاريخ الحديث للشرق الأوسط. وبعد ذلك بوقت قليل توقفت مقاومة أمهما للوحش الشرس الذي انتشر في جسدها والتهم بقسوته المعتادة روحها بعد أن دارت حول الكرة الأرضية على أمل أن تجد مروضًا للوحوش لإنقاذها. بعد وفاتها بأشهر قلائل

قام أكرم المنجي، كما نصح بنفسه عبد اللطيف بعمليات طرح وجمع وضرب، واكتشف بعدها أنه لو قام بتصفية أعماله فلن يخرج بالقيمة المالية التي يعتبرها منصفة لتاريخه الطويل في مجال المال والأعمال والتي تكفل له حياة كريمة حتى وفاته. لم يستمر طويلًا في التفكير فقد اتخذ قراره ووضع خطة عمل مدتها أربعة أشهر يقوم خلالها ببيع ممتلكاته وعقاراته في مصر وتحويل أكبر مبلغ ممكن إلى الخارج وفقًا لخطط محسوبة بدقة. وتنتهي بالطبع بهجرته النهائية وإلى الأبد.

✦ ✦ ✦

ـ أنا أسعد أب في الدنيا. والله واتلم الشمل من تاني.. عارفين يا أولاد إننا بقالنا أكتر من ثلاث سنين ما اتلمناش اللمة دي .. إنجي تيجي مصر.. فريد يبقى في إنجلترا.. فريد يشَرَّف هنا.. أبقى أنا مش عارف فين.. حتى في جنازة مامي وصلتي إنتي يا إنجي يوم لما سافر فريد.

ـ ما انت كل مرة يا بابا تجيلي لندن، الأستاذة إنجي تقول لي أصل جوزي عنده محاضرة فين، جوزي بيهرش في شعره فين.. جوزي ماسك قفاه.. عاملة لي فيها زوجة مطيعة.

ـ إنت إيش فهمك يا عيل.. وبعدين «كيفين» من ساعة ما جينا ما بيبطلش شغل.. محاضرات في الجامعة.. وكتاب بيألفه عن حزب الله والوضع في لبنان من ٢٠٠٣ لغاية دلوقتي.. وكل شوية بيدعوه في مؤتمرات عن الوضع في الشرق الأوسط.. ده أنا حتى مش لاحقة آجي أشوف بابا اللي على بعد خطوتين مني.

ـ أنا مش فاهم.. طيب كيفين مشغول وفهمناها .. طيب وانتي مالك بتتمَحّكي فيه ليه؟

ـ اسكت انت يا فريد.. أنا طول عمري من وانت صغير أقول عليك كلمة حكمة: انت حماااااار.

ـ عيب يا إنجي. فريد مش حمار يا حبيبتي، ده بهيمة.

ـ كلكم عليّ ولا إيه؟؟

ـ خلينا في لمتنا النهاردة.. أنا طلبت من تيفا يعمل لنا على العشاء بط بالكشك ورز بالشعرية وطاجن بامية بالعكاوي.. ده أنا عامل لكم جدول غذائي ولا في الأحلام.

✦ ✦ ✦

وصلت إنجي أكرم المنجي في اليوم التالي لالتحاق تيفا بالعمل، جاءت مع أبنائها الثلاثة جوزف (يوسف) ومايا (مي) وآلن (علاء) وألف حذاء يصفع روحها، كانت قد قررت ألا تزور أبدا والدها، ولكن اشتياقها إلى فريد جعلها تحنث بقرارها.

كانت تنظر لفريد باشتياق ولسان حالها يسأله:

أنا مش فاهمة يا فريد انت ده إزاي فرحان كده ببابا؟ أنا شخصيا مش قادرة أتحمل فكرة إن أبونا حرامي.. سرق فلوس البنك وهرب.. هي دي الحقيقة اللي واضحة زي عين الشمس.. مهما زوقها بابا وحط لها روج وماسكارا ورش عليها كمان شوية بارفان.. إزاي يا فريد مصدَّق كلامه عن التعثر في السداد وكلامه

عن الظروف الوحشة. من ساعة ما جه هنا مانيش قادرة أزوره.. عمالة أقول نفس الكلام الغبي واللي شكله مكشوف: أصل كيفين يا بابا مشغول.. كيفين بيكتب. وكل ما يقول لي: طيب آجي لكم أنا. أتحجج إننا حنسافر مؤتمر ولا أي حتة. وكيفين مش عايز يكلمني في الموضوع.. ولو اتكلم يديني دروس إحصائية وأكاديمية عن الأوضاع الأوسطية .. باين عليه راخر رجل متبلد الإحساس.

مش قادرة أتحمل فكرة إن أبويا حرامي .. ومش قادرة كمان أكلمك يا فريد في الموضوع. أنا تعبانة.

على الرغم من ذكاء إنجي فإن عينيْها لم تستطيعا أن تريا إلا السطح الخارجي جدًّا من روح أخيها. من المحتمل أنها لم تبذل أبدًا الجهد الكافي لوضع نظارة تحمل عينيه، ومحتمل أنها كانت في كل مفرق طريق له، مشغولة بهمومها وبعواطفها وبأصدقائها الجدد، وانتهى الأمر إلى أنها لا تعرفه أكثر مما يعرفه أي عابر قدم له يومًا تحية الصباح في يوم غائم.

✧ ✧ ✧

منذ أسابيع قليلة وفي جلسة حشيش داخل حجرة صغيرة تحت سقف منزل والد أحد الأصدقاء البريطانيين، سأله زميل إسباني الجنسية لم يكن فريد قد لمحه من قبل: ما أقدم ذكرى يمكن أن تعود إليها وتنتزعها من المنطقة المعتمة في عقلك؟

أراد فريد تقديم إجابة سريعة ولكن روعة الدخان الأزرق دفعت خياله إلى السباحة في فضاء لاوعيه ووجد نفسه يضرب بيديْن من

حديد في مياهه الأزلية، كان جالسًا على الرمال في حديقة الأطفال بنادي الجزيرة الرياضي بالزمالك مع ثلاثة من الأطفال. كانوا يلعبون وهم يتبادلون الجاروف والمصفاة والشوك البلاستيكية والجرادل مع بعض الركلات والضربات والصراخ. أغمض ذاته وأخذ نفسًا عميقًا وسمع صوت أمه الحاد وهي تصرخ وتنتزعه من دائرة الرمل التي كان يلعب الجميع بداخلها. نظر إليها فوجدها غاضبة. نظرت خلفها وبدأت في الصراخ في وجه إحدى الأمهات: «طفلك يمسك أحد ألعاب فريد.. عليه رد اللعبة فورا.. ورجاء أن تشتروا لأولادكم ألعابهم بدلا من السطو، وسرقة ألعاب بقية الأطفال».

ردت المرأة على «سها» باستغراب:

- ما تخليهم يلعبوا مع بعض!

- أنا عايزة إبني يلعب بلعبه لوحده.

- طبيعي إن كل واحد يلعب بلعب التاني شوية.

- مش عايزة حد يلمس لعب ابني.. أنا حرة.

- سيبي الولد يتعلم يتصرف لوحده.. كلها كام سنة وحيدخل المدرسة، ومش حيلاقيكي جنبه علشان تدافعي عنه!

- لو حد ضايق ابني في المدرسة.. حنبني له مدرسة علشانه لوحده.

كيف يتذكر كل ذلك؟

أخذ نفسًا أعمق.

أخذته أمه وابتعدت به ووضعته في دائرة رملية خالية من الأطفال.. فظل بها دون حراك.

فتح عينيْه ورد على زميله الذي لا يعرفه بأن أقدم ما يتذكر هو تلك اللحظة التي يجلس فيها أمامه.

شعر بحرقان في عينيْه، لم يدر هل من الدخان الذي تكاثف.. أم من خوفه من أمه.. أم عليها عندما علا صوتها في حديقة أطفال النادي. تأكد فريد حينها أنه أخطأ خطأ جسيما وكانت نتيجته عقابه بعزله بعيدا عن كل الأطفال، جلس وحيدًا وهو يفكر في نوعية الخطأ الذي ارتكبه.

شكلت تلك الواقعة المعلّقة في أبعد غياهب ذاكرة فريد شعورًا بأنه مختلف عن الآخرين، ظن أنه بالتأكيد أكثر ثراء وأكثر علوًّا من أقرانه. التحق بمدرسة «بالنظام الأمريكي» (American System) بالزمالك ولم يتم بالطبع إنشاء مدرسة خصيصًا له كما ذكرت أمه أمامه أكثر من مرة وبدأت صراعات لا تنتهي مع كافة زملائه، وبدأ يدرك أنه ليس الأغنى ولا الأقوى ولا الأفضل دراسيًا ولا حتى الأكثر فسادا من بين زملاء فصله. وقد كانت صدمة لم يستطع تخطيها نفسيًا أبدا. ولكن استطاع فريد التميز عن زملاء فصله بشيء وحيد هو العزف على آلة موسيقية.

بدأ الأمر بالحب كالعادة.

مريم، كانوا في السنة الثانية الإعدادية وسقطت هي على الفصل كشهاب من ألق. بهرته من أول لحظة ولم يستطع لحظة أن وقعت عيناه عليها لأول مرة أن يأخذ نفسه.. وضربت الحمرة روحه،

وفكر فيما هو فاعل. فقرر من فوره أن يؤلف لها أغنية ويهديها لها، وللحب وللجمال، ولعينيْها ولشعرها الكستنائي. أغنية تجعلها تعترف من فورها بحبها له. فكرة غريبة على صبي، ولكن إذا عرفنا السبب بطل العجب. وكان السبب أنكل عزيز، الذي أسمعه في الليلة التي سبقت ظهور قمره لحنًا جديدًا لقصيدة لبيرم التونسي.

باريس تقول قصّروا الفساتين.. نقصرها

ترجع تقول طوّلوا.. حالًا نجرجرها

وفي الشتا قوّروا القمصان.. نقورها

وفي الصيف زرّروا الأرواب.. نزررها

عميان وعايزين لنا مجانين تسحبنا

ولو يخوضوا بنا الأوحال يعجبنا

مين شاف خلافنا أمم بتحب جزارها

كان فريد يجلس كالعادة إلى جوار عمه عزيز المنجي في الصالة الواسعة المحاطة بنوافذ خشبية عالية من كل جانب تطل على الحديقة الداخلية، كلاهما يجلس على وسادة وثيرة على الأرض وهو مستند إلى سجادة شيرازي، تصور أسودًا بأجنحة أسطورية يغلب عليها لون برتقالي خلاب. يتنفس فريد لحن عمه مع رائحة التراب الساكن في المكان منذ قرابة القرن، ويعزف العم على البيانو وهو يغني، ويغني معه كل شريان في جسد فريد. كان بانتقاله إلى منزل الحدائق، ينتقل إلى عالم موازٍ لعالمه.. ينتقل من مجرة إلى مجرة أخرى. يخرج من نفسه ومن حزنه ومن ذاكرته ويعيش في مجرة الألحان والموسيقى.

حفظ فريد من عمه أغنيات ليس لها عد، لا يعرفها أحد من فصله، جعله هذا ولأول مرة يشعر بقدر من التميز عن زملائه في الفصل. وعندما أطلت مريم عليه فجأة، طرأت له فكرة أن يقدم لها شيئًا من تلك المجرة المجهولة من الجميع، والتي لا يعرف أحد عنها شيئًا سواه.

✧ ✧ ✧

عزيز المنجي هو ابن عم أكرم المنجي، ولأن «أكرم» لم يكن لديه أخ فكان يعتبر «عزيز» بمثابة أخ له على الرغم مما يفصلهما من سماوات ومحيطات ما لها عد. يقيم «عزيز» وحده في بيت عائلة المنجي في حدائق القبة وهو عبارة عن فيلا تحيطها حديقة صغيرة.. رحل كل سكانها إما إلى رحاب الله أو إلى خارج حدائق القبة. ظل عزيز وحيدا في منزل العائلة. لم يتزوج.

عمل لسنوات طويلة أستاذًا جامعيًا، غير أنه لم يستطع التكيف مع الأوضاع المستجدة، فقرر الانسحاب في هدوء والتقوقع داخل جسد البيانو الذي ظل ملاذه الأخير.

عندما طلب فريد من عمه أن يعطيه دروسًا في العزف، تحمس عزيز حتى انه ذهب في اليوم نفسه لشراء بيانو جديد لفريد. بدأ فريد بعد الدرس الأول يكتب أولى محاولاته في كتابة الشعر باللغة الإنجليزية. ولكنه في نهاية الأمر فشل بالثلاثة.

أولًا: لم يستطع تعلم البيانو؛ فقد كان الأمر أعقد مما كان يتصور، وهو لم يعتدْ على بذل جهد حقيقي في حياته، وخرج من التجربة بقدرة متوسطة على العزف على الجيتار.

وثانيًا: لم يستطع أن يكتب الشعر؛ فقد خرجت محاولاته أقرب إلى التهتهة.

وثالثًا: وأخيرا أحبت مريم كريم وهو نجم لعبة كرة اليد في نادي الجزيرة، والذي ورث عن أمه الإنجليزية شعره الأشقر الطويل المتهدل على جبينه. واعتبر فريد أن شعره الأسود القصير المتموج هو ألد أعدائه، وأنه السبب الأكيد لفقدانه نور حياته.

✦ ✦ ✦

على حسب الريح ما يودى الريح ما يودى وياه

أنا ماشي ماشي و لا بيدي

كان فريد يعزف على الجيتار لحن بليغ حمدي الذي عشقه عمه كثيرًا، وقد أغمض عينيْه ليشم رائحة التراب المقيمة تحت أجنحة الأسود البرتقالية الراقدة على الأرض في الصالة الكبيرة وهي تقدم فروض الولاء والحب لعمه.. استنشق فريد أيضًا الصوت المصري لعبد اللطيف المحمل بأطنان من طين الشجن برائحة الطمي. فتح عينيه بعد أن امتلأ صدره بالحنين ليجد أخته قد نامت على كرسيها وأكرم بك يدخن السيجار وعيناه تطل في الفراغ.

لا شك أنه من عالم آخر غير العالم الذي يعيش فيه والده وأخته. هو ينتمي إلى المجرة الأخرى وأخوه الوحيد في هذه المساحة

الأمريكية الكاروهات هو تيفا. نظر إليه متوسلا أن يغني مرة أخرى فوافق تيفا؛ فحبه هو الآخر للغناء لا يعادله شيء آخر.

✧ ✧ ✧

ينجح عبد اللطيف بصعوبة بالغة وبمساعدة الشربيني في شراء قطعة من الحشيش الأفغاني الأصلي؛ فقد كان المطروح في السوق هو البانجو والهيروين، أما الحشيش فيبدو أن زبائنه قلة في تلك المنطقة من العالم أو أن جهل الشربيني بسوق الحشيش يوازي جهل تيفا. حاول عبد اللطيف التهرب من تلك المهمة، بأن يشرح لفريد، أن سوق المخدرات للمطحونين أمثاله هو مثل أن تطلب منهم معرفة مكان بيع طائرة هايكوبتر؛ فكل دولار يصرف في غير موضعه هو كارثة محققة بالنسبة إليهم فما بالك بالصرف على المخدرات، ولكن «فريد» أصرَّ وألحَّ وحصل في النهاية على مراده.

ـ إنت كدة يا تيفا طلعت ولد (Cool) .. أنا كان لازم أعمل دماغ النهاردة، وإلا كانت حتبقى ليلة كوبيا على الجميع.

ـ أنا عرفت خلاص المصدر يا فريد بك. أي وقت تعوز.. ما بقاش فيه مشكلة.

ـ أنا في لندن فيه واحد نيجيري اسمه «كالو»، بالتليفون يجيب لك فورا أحسن صنف.

ـ هما كل النيجيريين اسمهم كالو ولا إيه؟ الله يرحمك يا «كالو»

ـ إيه تعرف كالو مات ولا إيه؟

ـ البقية في حياتك.

ـ تبقى مصيبة لو «كالو» بتاعي مات.. مش حاعرف أعيش من غير حشيش.

✦ ✦ ✦

في الساعة الحادية عشرة والربع مساء يوم الجمعة ٣١ من ديسمبر ١٩٩٩ وفي أثناء توجهه إلى حفل رأس السنة للاحتفال بالقرن الجديد، تناول فريد أول سيجارة حشيش في حياته، وكان عمره خمسة عشر عامًا وأقل من شهر. كان اليوم يوافق ٢٣ من رمضان وقد اتفقت الشلة على ألا يشربوا أي خمور في تلك الليلة، أما الحشيش في رمضان فسيئاته أقل بالتأكيد من الويسكي «فلنلعب في المضمون». كان المُورِّد الذي جاءهم صباحًا أمام المدرسة قد لف لهم السجائر بعد أن اعترفوا له أنهم حديثو العهد وغير محترفين في اللف. وحصل كل منهم على علبة كاملة من عشرين سيجارة متعمرة بالخير الوفير. ووسط زحام الحفل، أخرج فريد سيجارة وراء الأخرى، كان الحفل في ملهى على كورنيش النيل في الجيزة. والقاعة من الازدحام بحيث كان من المستحيل أن يجد أحد موطئ قدم. ظل فريد معلقًا بين أجساد الراقصين، يدور مع الأجساد في حركة دائرية بطيئة يصل قطرها إلى اتساع الصالة، دار معها رأسه من فعل الحشيش وظل في تلك الدورة الأبدية الراقصة الماجنة حتى الآن.

عندما دقت الساعة معلنة بزوغ قرن جديد، قبَّل بشفتي خياله فم حبيبته النديّ ممنيًا نفسه برؤيتها بعد ساعات قليلة. خرج من الملهى في الخامسة والنصف صباحًا متوجهًا إلى فندق جولي فيل حيث اتفق جميع أصدقاء فصله على اللقاء هناك بمناسبة الحدث الجلل.

بدأ فريد وهو في طريقه إلى شارع الهرم يسترجع الجملة التي كان قد أعدها لتقديم التعازي إلى حبيبة قلبه في وفاة أسرة عمها بالكامل. فقد كانت عائلتها ما زالت تحتفظ بقدر من الأمل حتى طالعتهم صحف الجمعة ٣١ من ديسمبر ١٩٩٩ بإعلان «جيم هول» رئيس المجلس الوطني الأمريكي لسلامة النقل أن الفرق التي كلفت بانتشال حطام الطائرة البوينج ٧٦٧ التابعة لشركة مصر للطيران التي سقطت على السواحل الأمريكية في أثناء تحليقها في الجو خلال رحلتها من نيويورك إلى القاهرة في الشهر الماضي، قد أوقفت عمليات البحث بشكل نهائي.

دارت على مائدة الإفطار كلمات التعازي من الجميع. وسالت دموع مريم فقال لها فريد إن ما حدث يعد خطأ فادحًا من الحكومة المصرية بوضع مجموعة الطيارين الحربيين الذين حصلوا على أعلى التدريبات في طائرة واحدة، فمن غير المنطقي وضع البيض كله في سلة واحدة. فالهدف كان أغلى من أن يتم تفويته. أما فوزية صديقتها الحميمة فقالت لها إنها سمعت أن في هذا المكان نفسه سقطت أكثر من طائرة قبل ذلك. أما مريم فقد حكت لهم أن ماهيتاب ابنة عمها جاءت لها بالأمس في المنام كطيف خيال جميل، وابتسمت فانتشر في الغرفة عطرها الذي كانت تضعه دائمًا.

عندما دقت الساعة الثانية عشرة ظهرًا لمح فريد «مريم» تهم بالرحيل، وكان دخان الحشيش الذي يموج داخل البطين الأيسر لفص مخه الأيمن، قد جعل قلبه يتفجر كمدًا وحزنًا على ماهيتاب ورياض ضحايا الطائرة المشئومة ويذوب رقة في عشق تفاصيل محيا مريم.

ودّع الجميع في عجالة وانطلق قبلها وانتظر ظهورها في سيارته الجولف أمام الفندق حتى رآها خارجة، تتبعها حتى وقفت أمام قاعة استقبال الفندق للبحث عن سائقها. قرر الانتظار قليلا حتى يملأ مقلتيْه بنورها الوهاج، ولكنه فوجئ بشابيْن يقتربان منها. جرى فريد ناحيتها فابتعد الشابان. وقف إلى جانبها وانتظرا معًا لدقائق ثم اقترح عليها أن يوصلها إلى منزلها.

ـ أنا مش عارفة السواق اتأخر كدة ليه .. أنا قايلة له حداشر ونص.. والحمار قافل الموبايل.. أمال إحنا مشتريين هوله ليه؟

ـ ما يصحش تقفي هنا لوحدك.. حتتعاكسي لما تتهري.

ـ خلاص أكيد السواق جي دلوقتي.

ـ لما ييجي وما يلاقيكيش أكيد حيتكلم على الموبايل .. تعالي.. ما أنا مش حأسيبك لوحدك.

ينطلق فريد بسيارته ويخرج الـ(Ipod) ويضع الأغنية التي يريد أن يقول لها معانيها دون أن يستطيع كتابتها أو حتى البوح بها.

فريد: حأحطلك أغنية (All I want is you) «كل ما أريده هو أنت» لـ (Bryan Adams) أنا باموت فيها:

وكانت تلك الأغنية هي بوابة خروج فريد من مصر.

✦ ✦ ✦

بين رشفة كأس ونفخة سيجار، بدأ أكرم وهو محاط بعائلته في صالة منزله بنيوجيرسي يحكي لأبنائه كيف أمضى حفل الألفية. كانوا جالسين حول المائدة المستطيلة، وأمامهم أطباق البسبوسة التي صنعها لهم عبد اللطيف. عاد برقبته إلى الخلف وتأمل الدخان وهو يلامس السقف ثم يتفرق بعضه في اتجاه اليسار والبعض الآخر في اتجاه اليمين:

كم كانت يا أبنائي لحظة من لحظات العمر المعدودة. دقائق وينتهي قرن من أعظم القرون التي مرت عبر الأزمان ونحن جميعنا نترقب قدوم القرن الجديد. في يدي «سها» وحولنا أكبر رجال البلد. يتقدمنا جميعًا الرئيس حسني مبارك والسيدة سوزان مبارك. لحظة أن استقبلت مصر عند أهرامات الجيزة - إحدى عجائب الزمن - الانتقال إلى الألفية الجديدة. كان الحفل منقطع النظير شارك فيه خمسون ألفا من الأجانب والمصريين ظل أغلبهم واقفين أمام المسرح مشدوهين لمتابعة الاحتفال الرائع. عزف يومها «چون ميشال جار» أمام الجمع أجمل الألحان. كم كان مذهلًا وملهمًا فقد حطت عليه عظمة الفراعنة. أتذكر كما الأمس كيف اختتم احتفال مصر بالألفية كما بدأ بأضواء وألعاب نارية في لوحة بهيجة على الرغم من الضباب الكثيف. كم أبدى جميع المسئولين الحاضرين إعجابهم بهذا الحدث الضخم الذي تكلف فقط تسعة ملايين

ونصف مليون دولار. كم أحبت أمكم «چون ميشال جار» وطريقته في العزف الفريدة.

أخذت إنجي الميكروفون من والدها لتحكي ذكرياتها مع ليلة الألفية، فقد أصيبت تلك الليلة بنوبة برد عنيفة، ولم تستطع مغادرة الفراش. اتصلت بها صديقتها ميسون وهي في حالة انهيار بعد أن قطعت علاقتها بخطيبها بعد خمس سنوات من خنق إصبعها بهذه الحلقة الذهبية الدائرية المخيفة. عرضت إنجي على ميسون الحضور وظلتا تبكيان معًا على الحب والفشل والأسى والحزن والحنين حتى نامتا دون أن تلحظا، كانت لحظة ملهمة أيضًا لاستقبال هذا القرن السعيد.

تناول فريد قطعة من البسبوسة وبعد أن استطعمها بهدوء قال: «عظمة على عظمة يا تيفا».

جلس عبد اللطيف بجانب الباب في حجرة أولاد إنجي. يتحادثون معًا بلغة الأطفال.. فهو لا يتكلم الإنجليزية إلا بصعوبة بالغة وهم لا يتكلمون العربية، ولكن لغة الوصل لا تعرف الحروف وإنما تعمل بكفاءة بين كل من لم يتخطَ بعدُ سن العاشرة، وتيفا ما زالت روحه في سن الرابعة. تتناهى أصواتهم وضحكاتهم لإنجي الجالسة في الخارج. تضحك فرحة من ضحكات أولادها.

ـ على الله يعرف يعلمهم كام كلمة عربي أنا ما عرفتش خالص.

ـ المهم تتعلمي إنتي منه كام طبخة.

ـ المهم بجد إني حأقدر أخيرا أخرج النهاردة بالليل شوية وأنا مطمنة على العيال.

ـ ما انتي من ساعة ما حولتي تيفا من طباخ لـ(Baby Sitter) عايزة تتكلمي وتخرجي وتطيري. ما حدش قدك.

ـ فعلا .. عبد اللطيف هايل .. هو صحيح يا بابا انت بتدفع له ألفين دولار في الشهر.. أنا ما سمعتش في حياتي حد بياخد المرتب ده، ما تجيب فلبينية حتاخد ربعه.

ـ يا حبيبتي أنا جايبه بس علشان خاطركم.. علشان تاكلوا أكل مصري بيتي زي زمان.. ويعمل للبيت ريحة التقلية.. ما هو حيعمل لنا ملوخية النهاردة، وبصراحة مفيش فلبينية حتعرف تعمل الملوخية بالتقلية وبالشهقة.

ـ مش فاهمة .. يعني إنت ناوي تمشيه؟

ـ طبعا.. شهر ولّا شهرين وبعدين أمشيه.

قررت إنجي منذ تلك اللحظة أنها لا تريد أن ترى أباها مرة ثانية وأن عليها أن تتحمل آلام الفراق. فتلك الآلام أهون عليها من مشاعر الكراهية والاحتقار التي تشعر بهما الآن تجاه والدها.

لم تخرج في تلك الليلة كما كانت تأمل.. فلم تستطع أن توكل لعبد اللطيف تلك الخدمة وهي تعلم أنها تخدعه. وفي اليوم التالي مباشرة ادعت أن ظروفًا جدَّت ورحلت مع أبنائها. ورحل فريد بعدها عائدًا إلى لندن. تاركًا أكرم وحيدًا دون ونيس.

✦ ✦ ✦

رحت المدرسة عادي جدا يوم الأحد ٢ يناير، وصلت الساعة ثمانية إلا عشرة الصبح. كان موصلني زي كل يوم الأسطى إبراهيم. لقيت لك كريم ومعاه شوية من فريق الهاند بول (Hand Ball) ومجموعة تانية من شلته واقفين مستنيني. أنا لسة بانزل من العربية لقيت كريم بيصرخ في وشي زي المجنون: «إنت إزاي تركب مريم معاك في العربية يا بن الـ...؟» رديت عليه ببرود شديد: «عايزني أسيبها في الشارع لوحدها وعيال شوارع كانوا بيعاكسوها». كمل زعيق: «وتحط لها كمان (All I want is you) وانت عارف (She is mine) وراح مديني بوكس دخلني تاني العربية. ولقيت الأسطى إبراهيم راح طاير بيَّ.

حلّفته مايجيبش سيرة لبابا ولماما. وطبعا ما اقدرتش أرَوَّح. بعثت (SMS)لشلتي أحكي لهم على اللي حصل.. ورحت واخد العربية الجولف، وقلت ألفلف بيها شوية.. حسيت إني جعان، شفت معايا فلوس قد إيه.. لقيت معايا ستمائة وخمسين جنيه قلت تمام أروح أفطر في ماكدولاندز وبعدين أشوف أعمل إيه لغاية ميعاد خروج المدرسة. مفيش وأنا معدِّي من قدام «توماس» في الزمالك لقيت كريم ومعاه شلته في عربية إسماعيل الجيب تشيروكي قدام البنزينة في الناحية التانية من الشارع. هما شافوني.. راح إسماعيل مأمرك.. رحت فاتح أنا كمان على الخامس وفكرت أطلع على المصنع بتاع بابا في ٦ أكتوبر ويحصل اللي يحصل، وأنا عارف إن عربيتي أسرع في الطوالي.. أصلها كانت جولف ٢٤٠٠ سي سي. خدت الكوبري وفلقت على المحور. بس هما كانوا ورايا مش عايزين يعتقوني. خدت يوميها كل الغرز اللي في الدنيا. آخد غرزة يمين على الضيق

ياخدوا هما غرزة شمال على الواسع إنما ما عرفوش يحصلوني زي ما أنا كنت عارف.. دخلت المصنع وقلت للسيكيوريتي (Security) يخللي باله ما يدخلش عربية تشيروكي فيها عيال قدي.

✦ ✦ ✦

لم يجد والده في المصنع.. حكى لمدير مكتبه الأستاذ طه القصة فأرسل معه ثلاثة عمال من عمالقة المصنع كي يكونوا معه في السيارة حتى يصل إلى منزله سالمًا. وواقع الأمر كان يكفي واحد منهم لكي يلتهم المدرسة بالكامل.

أمضى فريد بعد الظهيرة في الاتصال بشلته واحدًا واحدًا لمعرفة من سوف يكون إلى جانبه في خناقة الغد، وقبل أن يخلد إلى النوم كان قد أعد جيشه وخطته الحربية.

✦ ✦ ✦

غادر فريد نيويورك متوجهًا إلى لندن يوم السبت ٣ من سبتمبر ٢٠٠٥ ليلحق بأول يوم دراسة في الجامعة الأمريكية بلندن «ريشموند» والتي تبدأ في يوم الاثنين التالي لوصوله. وقد انتظرته في المطار صديقته الرومانية «يوليا» واصطحبته في سيارته الجاجوار إلى الجامعة؛ حيث كان يقطن الاثنان في القسم الداخلي بالجامعة في منزل أتلانتيك بكينسنجتون ريزيدنس، وهو منزل يسع ١١٤ طالبًا، به صالة استقبال وصالة طعام تقدم يوميًا ثلاث وجبات ساخنة ومكتبة وقاعة بها ٥١ جهاز كمبيوتر متصلة بالإنترنت على سرعات عالية، وصالة بلياردو وصالونات وقاعة للسينما بها أشرطة

(DVD) يمكن استعمالها مجانًا. وقد تم بناء الجامعة على مساحة أرض شاسعة تحتوي على العديد من المباني من ضمنها قصور قديمة، وملاعب ومبانٍ تعليمية ومبانٍ أخرى للإقامة الداخلية. ويأتي طلبة هذه الجامعة من أكثر من سبعين جنسية مختلفة، كانت هناك تكتلات عربية ضد تكتلات أمريكية وكان الأتراك في صراعات مستمرة مع العرب ولكن إن حدث صراع عربي أمريكي، انحاز الأتراك ودون تفكير منهم إلى صالح العرب. وكان هناك تكتل إسباني لكل الناطقين بالإسبانية وتكتل حريمي ضد الذكور.

فريد كان المصري الوحيد بالجامعة، أما بقية الجنسيات العربية فكانت ممثلة بأكثر من طالب خاصة من الكويت وأبو ظبي. وكان فريد يسكن في العام الماضي مع زميل له من أفغانستان في الحجرة نفسها، أما يوليا فقد كانت تسكن مع زميلة لها من الإكوادور. وبعد أن تصارحا بحبهما قررا أن يجعلا وبأي شكل الأفغاني يحب الإكوادورية حتى يستطيع فريد ويوليا أن يتقاسما الغرفة نفسها وينتقل الأفغاني للحياة مع الإكوادورية.

وبعد محاولات طريفة وخطط محكمة وخطابات مزورة ونقل آهات لم تصدر من صدر أحدهما وبعد شرح وافٍ من أن الأفغاني ينام يحلم بقبلة سريعة من حبيبته الإكوادورية. نجحا في الإيقاع بهما وأخيرا تصارحا بالحب وقام الأربعة بتنفيذ خطة نقل الغرف من وراء ظهر الإدارة.

✧ ✧ ✧

فاكرة الـ(Dream Team) اللي هو فريق أمريكا في كرة السلة، لما

المحترفين ولأول مرة لعبوا بطولة كأس العالم، وقالوا حنرقع أي فريق فوق المية وعملوها فعلا أولاد الإيه. أهه يوليا كدة (Dream Team) «بنت حلم» لأي واحد في الدنيا.. بنت رياضية بتجري كل يوم ثلاثة أميال ومهتمة قوي بصحتها ورشاقتها وما بتدخنش وبتذاكر ٤ ساعات في اليوم وتتخانق معايا لو ما ذاكرتش كفاية، وتعمل لي ملخصات للكتب وطيبة وبنت حلال وبتحبني ومخلصة ومنضبطة أكتر من الساعة. وطبعا أمها ألمانية لكن أقطع دراعي إن أبوها الروماني ده تلاقيه اسمه هتلر وهي مخبية.. أمال جابت كل الضبط والربط ده منين.

لكن الحلو ما يكملش، يوليا باردة زي التلج، الدورة سموها شهرية علشان بتيجي كل شهر.. هي بقى بتجيلها كل ست شهور. يعني الدورة عندها اسمها الدورة النصف سنوية.. أما في البرد الجامد تلاقيها ممكن تطول كمان عن كدة. إزاي مش عارف؟.. أحاول أنام معاها.. صعب جدا.. بتذاكر.. بتقرأ.. بتبحث على الإنترنت.. عايزة تتفرج على فيلم.. عايزة تنام بدري علشان محاضرة الصبح محتاجة تركيز، ولما الريح يواتي وأقفش اللحظة بإيد من حديد.. وأبقى متحمس قوي وأنا بأنام معاها وفي قمة نشاطي وحيويتي وتركيزي وفاكر نفسي عنتر زماني.. ألاقيها بتسألني في قلب لحظة التجلي وبكل جدية: «هو ميعاد محاضرتك بكرة الساعة كام علشان أصحيك من النوم؟». حاولت أشرح لها إن أنا مصري ومكبوت جنسيا آخر ألفين سنة على الأقل! وإن الكبت في الجينات مش حيخف.. وإن احنا صنف الرجالة غلابة قوي ومحتاجين نثبت نفسنا جنسيا وإلا الثقة حتهتز، والواحد يسقط في الكلية.. مفيش

فايدة.. «بيورن بورج» بسلامتها.. جبل الجليد الرومانية.

المصيبة التانية إن أنا عكس كل الانضباط ده راجل زبالة ومش محترم وناقص وبدخن حشيش يوماتي.

✧ ✧ ✧

في أثناء مشاهدته فيلمًا في الولايات المتحدة كانت بطلته الشقراء الهيفاء تمارس الجنس في أحد المشاهد مع حبيبها، كانت تمثل في ذلك المشهد بكفاءة باهرة دور امرأة ساخنة جدًّا، تصدر الآهة تلو الآهة. قرر حينها فريد أن يقطع علاقته بيوليا. فقد أيقن أنه من المستحيل أن يبقى مع كتلة جليدية بيضاء رائعة. ولكنه لم يكن يريد أن يجرح مشاعرها. وظل لمدة طويلة همه الوحيد في تلك الدنيا هو إيجاد طريقة مثلي للتخلص منها بشكل لائق، ويناسب درجة حبه لها. وبعد عودته إلى لندن بأسبوعين، نزل عليه الوحي فجأة، وبدأ في تنفيذ ما أتاه في الوحي.

✧ ✧ ✧

إنني أحب فريد حبًا حقيقيًا، به لطشة فنان وخفة ظل وذكاء وصوت جميل، وشعر مجعد ووجه أسمر ساحر وجسد رياضي.. ماذا تريد أية فتاة من صفات بعد كل ذلك؟ لكن وعلى الرغم من أنني بذلت كل جهدي لكي أفهم بعض تصرفاته، فإنني عجزت في النهاية عن فهمه. لم أفهم أبدًا لماذا يتصور أنه أذكى من الآخرين؟ لماذا يلعب مع جميع البشر ـ بسذاجة مفرطة ـ دور الثعلب المكار؟ لماذا يسعى دائمًا إلى أن يقوم بعمليات نصب صغيرة مكشوفة

تجعله مثار سخرية الجميع؟ هل تتصورين أنه بالأمس اشترى من «الكوكني» بضائع مسروقة لبيعها لزملائه في الجامعة على أساس أن إيراد البيع سوف يوجه إلى عمل خيري؟ هل يحتاج إلى مال؟ مستحيل. فأفقر طالب في هذه الجامعة مليونير، من أين له إذن بالسيارة الجاجوار؟ ومصاريف الجامعة ومصاريف الإقامة ورحلات الولايات المتحدة وهداياه لي؟ وإذا كان غير محتاج.. فكيف يقبل على نفسه الغش والخداع وأن يقنع الطلبة بأنهم يشاركون في عمل خيري لجيبه الشخصي ويتصور أنها لعبة طريفة هو فيها الطرف الأذكى. قابلت بالأمس أستاذة الاقتصاد وقالت لي إنها أعجبتها الشنطة جلد التمساح التي أهداها لها فريد، ولكن عليه أن يعرف أنه لن يحصل على نصف درجة زيادة في مقابل هذه الهدية. ماذا يتصور نفسه، تاجر سلاح عليه رشوة موظفين فاسدين؟ هل من الممكن ألا يدرك أنه طالب في جامعة والهدف من وجوده هو أن يتعلم وليس أن يرشو؟ حكت لي «مارجو» زميلتنا قبل أن أرتبط به، أنه أقنع عاملة في محل بيتزا في طريق ولينجتون بأنه يحبها وبعد أن أقام علاقة غرامية معها، عاملها بكل جفاء وقال لها إنها لا تساوي شيئًا، وإنه كان يلعب بعواطفها لكي يضاجعها، وحاولت الفتاة المسكينة الانتحار بقطع شرايينها.

رفضت تمامًا تصديق هذه الحكاية، ولكن اليوم وبعد عام من علاقتنا أكاد وللأسف الشديد أقطع بصحتها، ليس لأنه شرير وإنما فقط لأنه يتصور أنها جولة ناجحة لمعاكسة عادية بين فتى وفتاة. فالكارثة الحقيقية تكمن في أنه لا يجد غضاضة في كل ذلك، بل هو يرى أنها شطارة. فبيع المنتجات للطلبة تجارة والتجارة تحتاج

إلى قدر من التجميل التسويقي وإلا كيف لنا أن نحكم أخلاقيًا على الإعلانات؟ والهدايا للأساتذة سوف تكون مؤثرة بالضرورة في درجاته النهائية رغما عنهم. أما الإيقاع بالفتيات فهي غريزة صيد تولد داخل روح كل ذكر، ولا شأن له بصناعة الرب.

من أين ورث فريد كل تلك الخلطة من القيم المهترئة؟ ولكن أعود وأقول ما قالته لي «ميلاني» الأستاذة المساعدة لمادة علم النفس وأنا أناقشها في المشكلة.. ماذا يمكننا أن نتوقع من صبي ذكي تخلى عنه أهله وهو في الخامسة عشرة من العمر وانسحبوا من حياته وادعوا لأنفسهم كذبًا أن أساتذته الأجلاء في الغرب المتقدم، سوف يقومون بدور الأهل أفضل منهم؟ ماذا يمكن أن تكون عليه نفسية هذا الصبي وهو يرى أهله عاجزين عن أن يضطلعوا بمسئولية تربيته؟

✧ ✧ ✧

رحت المدرسة يوم ٣ يناير بس أبدر قوي من كل العيال وخدت معايا مطواة احتياطي كان بابا جابها لي من أمريكا. واستخبيت في فصل خامسة ابتدائي لغاية ما الطابور خلص ودخلت على فصلي.. بصيت ما لقيتش كريم ولقيت مريم قاعدة متكرمشة في نفسها.. ولقيت كام واحد من شلة كريم مطلعين الموبايل من تحت الترابيزة. قلت أكيد بيبعتوا SMS لكريم يقولوا له إن أنا هنا. ما اعرفش دخل إزاي في الفسحة رغم إن الباب كان مقفول. كنت أنا واخد احتياطاتي ومتفق مع مجموعة إنهم يقفوا معايا.. هجم عليَّ علشان يديني بوكس راح واحد مشنكله، وقع على الأرض..

رميت نفسي عليه ورحت مطلع المطواة وحطتها على رقبته، لقيت إسماعيل.. ما عرفش طلع لي منين إداني شلوت في وشي. كريم قام وراح مطلع مطواة هو كمان وفجأة ظهر أساتذة التربية الرياضية كان اثنين منهم كمال أجسام ومفيش في ثانيتين.كانوا واخدين مننا المطاوي، وإسماعيل اتهجم على واحد من الأساتذة خد بوكس نام على الأرض يشخَّر ما قامش.

جابوا الأهالي.. قعدوا مع بعض.. وانتهت القصة إنهم رفدوا أربعة أنا طبعا من ضمنهم ولكن ما رفدوش إسماعيل لأن أبوه كان راجل واصل.

✧ ✧ ✧

ـ مطواة يا فريد في الفصل.. ابني أنا يطلع بلطجي.. أعمل فيك إيه؟

ـ تعمل فيه إيه؟ بدل ما تطبطب عليه عمال تزعق له. الولد عمل إيه؟ ولا حاجة.. كان «جنتلمان» (Gentelman) ووصل البنت بدل ما يسيبها في الشارع.

ـ «جنتلمان» (Gentelman) إيه وزفت إيه.. ما السواق اعترف إنه خد خمسمائة جنيه علشان يقفل موبايله ويقول إن العجلة نفَّست.. بس مش هو ده المهم. المصيبة إن الولد خد مطواة معاه في المدرسة، فاكر نفسه في فيلم أمريكاني وعصابة المكسيكان حتدافع عنه.

ـ يعني إنت عايز كمان ما يدافعش عن نفسه. ما الزفت التاني

كان معاه مطواة برضه.. عايز العيال يضربوه ويفضل ساكت ويتفرج عليهم.. مش كفاية إنك إنت ما عرفتش تدافع عن موقفه. بس أنا أمه و حأعرف أدافع عنه.

ـ أرجوكي نقطينا بسكاتك دلوقت.. أنا حأسفّرك يا فريد تكمل المدرسة برَّة.. أنا قدرت أقنع المدرسة إنهم يدوني جواب تحويل عادي فيه كل نمرك ويطنّشوا موضوع الرفد ده.. إحنا كمان ممكن نكتب تاريخ جواب التحويل قبل أجازة الكريسماس.

ـ ما فيه برضه مدارس أمريكاني في مصر هايلة.. وكل الأساتذة من برة.

ـ فيه بعض الأهالي مستحلفين له وفيهم ناس واصلة قوي ومش عايزين يسيبوا الموضوع ينتهي على كدة. اسكتي يا سها. يا فريد أنا بافكر أوديك إنجلترا. لكن بادرس برضه المدارس في سويسرا وفي كندا وفي أمريكا.

ـ إنجلترا يا بابا أحسن.

ـ إنت حتتشرط يا بلطجي إنت. أنا عامة بأدور على مدرسة أمريكاني في لندن تقبل نقلك في تاني (Semester) والحمد لله أهو لسة الـ(Semester) بادي بعد إجازة الكريسماس ورأس السنة.

ـ يعني حأسافر على طول.

ـ أيوه طبعا.. عامة ده أحسن قوي.. أنا طبيعي كنت بافكر إنك تسافر السنة الجاية.. تتعلم في بلد محترمة.. علشان تعرف تدخل الجامعة بسهولة برة.. يبقى الانتقال من المدرسة للجامعة هناك

طبيعي. (In all cases) مفيش حاجة تتعمل في البلد دي.. البلد خلاص بتموت. لازم تعيش برة وكل ما يبقى أبدر كل ما يبقى أحسن. كويس قوي إنها جت على كدة.

✦ ✦ ✦

دخل فريد حجرته وهو لا يعلم حقيقة شعوره. «هل أستطيع أن أترك مدرستي وأصدقائي ونادِيَّ وعالمي وأهلي وأختي؟ هل من المعقول أن أعيش وحيدًا وأنا ما زلت في هذه السن؟ هل أستطيع ألا أفضي إلى أصدقائي في أي دولة سوف أسافر كما طالبني والدي؟».

لم يعرف هل هو خائف؟ حزين؟ سعيد؟ رافض؟ موافق؟ دخل سريره وبكى كالطفل الصغير وهو لا يعلم على الإطلاق ماذا يبكيه. أدرك حينها أنه خائف أكثر من أي شيء آخر. وفي ظلمة خوفه المرتعدة، قرر أن يذهب في الغد إلى عمه عزيز لمحاولة إقناعه بأن يقوم بالدفاع عنه أمام الجميع لإقناعهم بعدم تسفيره.

لم تجزع سها من فكرة سفر ابنها إلى الخارج. فقد كانت معظم صديقاتها قد بعثن بأبنائهن إلى الخارج بعد المرحلة الإعدادية لاستكمال دراستهم حتى إن «آيتن» أرسلت ابنها وهو في الثانية الإعدادية إلى مدرسة داخلية في سويسرا، و«شهد» توءم روحها أرسلت ابنها إلى مدرسة داخلية في كندا للالتحاق بالمرحلة الثانوية. وبعد اجتماع الروتاري الدوري جلست مع أصدقائها لتحكي لهم ما حدث لابنها ولتسمع آراءهم لتستنير بها.

ـ سها لازم تحمدي ربنا إن ده حصل.. إنتم كدة بتنقذوا ابنكم، انتي فجأة حتنوري له حياته.

ـ أنا برضه قلقانة.. ده لسة صغير قوي

ـ ده كان زمان.. فكري كدة وانتي عندك ١٥ سنة كنتي شايفة الدنيا إزاي ولما كانت إنجي عندها ١٥ سنة. مفيش مقارنة. جيل تاني خالص. دلوقتي البنات والأولاد فاهمين الدنيا أكثر مننا في سننا ده.

ـ حقيقي إن التقدم المذهل وحركة المعلومات أثرت في حجم الداتا اللي داخلة مخ العيال دي. ما بقاش فيه عيال خلاص. الدنيا والإنترنت والدش خلاهم عواجيز وهما بالبيبرونات.

ـ احنا ممكن نأرخ لتاريخ مصر المعاصر بحكاية التعليم ده. في القرن العشرين كنا بنبعت ولادنا برة بعد ما يخلصوا جامعة علشان الدراسات العليا. لغاية سنة ١٩٩٠ بعدها الجامعات وقعت، بدينا لأول مرة نبعت أولادنا يدرسوا بعد الثانوية العامة على طول.. بالذات على كندا. ومع القرن الجديد بدأ كثير مننا يبعث أولاده بعد الإعدادية في مدارس داخلية والموضة سويسرا. وشكلها كدة لو الموضوع استمر كلها عشر سنين حنبعتهم أول ما يتولدوا علشان نخلص.

ـ كلامك حقيقي يا عماد. ما تكتب كتاب عن الموضوع ده. تاريخ تعليم أولادنا في مصر وبرة. موضوع جميل قوي.

ـ أنا قدّمت لبنتي في مشروع الإنترناشيونال بكالوريا. ما بدفعش

حاجة غير الطيران. وبتروح مدرسة في أي مكان في العالم. دلوقت هي في مدرسة في هونج كونج.

ـ والله براڤو عليك

ـ مراتي طايرة من الفرحة. رأيها إن احنا أنقذناها من التعليم هنا.

ـ شفتي يا سها أهو انتي كمان حتنقذي فريد.

✦ ✦ ✦

كيف يمكنني إنقاذك يا فريد؟ أتذكر يا فريد كلمات محمود المليجي في فيلم «إسكندرية ليه» الذي تدور أحداثه في أثناء فترة الحرب العالمية الثانية. كانت مصر في نهاية مرحلة وفي حالة مخاض لمرحلة جديدة. طمأن المليجي أحمد زكي قائلًا له إنه لن يربح قضيته بأي حال من الأحوال. وبدأ المليجي يعدد كل الكوارث الاقتصادية والاجتماعية التي يمر بها الوطن ووراء كل مصيبة كان يقول بأدائه المعجز: «وعايزني أكسبها» يقصد القضية.. قضية الوطن. فعمك هو هذا المحمود المليجي، المهزوم المنسحب من مواجهة مجتمع فشل في التكيف معه. فكيف تريد مني يا فريد أن أربح قضيتك؟

الطبيعي أن يُزوّر أكرم شهادة المدرسة. والطبيعي أيضًا ألا يدخل في صراع مع ولي أمر أكثر سطوة منه، فذلك يمكن أن يؤثر في شبكة أعماله المتشابكة كالأخطبوط. ومن المنطقي أن يكون الحل الوحيد هو تهجيرك كي تعيش وحيدا وأنت مازلت أخضر

العود حتى تتشكل هناك. ومن العادي وأنت في الأولى الثانوية أو ما يقابلها بلغة الأمريكان ألا تستطيع كتابة اسمك بالعربية إلا بصعوبة.. فما حاجتنا إلى هذه اللغة؟ ومن الصحيح أنك تعرف تاريخ الولايات المتحدة الطويل، ولا تعرف شيئًا عن أحمد عرابي. وعايزني أكسبها؟

✦ ✦ ✦

بالطبع لم يربح عزيز القضية على الرغم من أنه ترافع في المحكمة داخل صالون منزل أكرم خارقًا معاهدة ٨ من مارس التي وقّعها مع نفسه في اليوم العالمي للمرأة والتي تنص في بندها الأول والأوسط والأخير ألا يخرج من حدائق القبة «طول ما أنا عايش فوق الدنيا». وعاد عزيز خائبًا كما توقع ووقّع على نسخة جديدة من معاهدته لنفسه ألا يخرج من الحدائق.

رحل فريد إلى لندن عن طريق جنيف لمزيد من التمويه. فقد كانت تذكرة فريد اتجاهًا واحدًا إلى جنيف. وبعد أن مكث ليلتيْن هناك في فندق خلاب على بحيرة «ليمون» ذات الشكل الهلالي. حجز تذكرة قطار إلى باريس ومن هناك حجز تذكرة طائرة إلى لندن؛ فالحس التآمري عند أكرم كان في منتهى الرقي. وها قد صل أخيرًا إلى لندن ليجد في انتظاره أحد أقارب والده في المطار لينقله إلى المدرسة الداخلية التي التحق بها.

✦ ✦ ✦

وأنا بأشوف جدول المحاضرات السنة دي فوجئت باسم د.

مرتضى البارودي من بين الأساتذة. وبعد السؤال عن الأصل والفصل.. عرفت إنه مصري، وهيهه هيههههه ما بقتش المصري الوحيد في الجامعة. دوّرت عليه علشان اسلّم وأقدّم فروض الطاعة. لقيته راجل أكاديمي جدا ولابس بدلة كلاسيكية وبيتكلم بالراحة جدا، رحَّب بيَّ لكن بشكل مافيهوش أي ترحيب. خرجت من عنده ورحت على المجموعة العربية احكي لهم على الدكتور مرتضى وأتبرمج عليهم شوية إن أنا بقى لي ظهر في الجامعة، أصل فيه واحد إماراتي في مجلس الأمناء والعيال الإماراتية مطلعين ديني بيه. وفيه برضه واحد تقيل كويتي صالب طول الكوايتة. قلت أنا أتفشخر بالدكتور المصري وأقول لهم أنتم بفلوسكم وإحنا بعلمنا. لكن ما كانش ده المهم.. ده كانت نكتة على الماشي.. أنا كنت عايز ألمّ الـ(Arabic Team) علشان أتفق معاهم على تنفيذ خطة تطفيش يوليا. وكانت الخطة ببساطة إننا نتلم ليلاتي في أودتي ونغني أغاني عربي ونحشش لغاية ما تطق.

✧ ✧ ✧

تم تنفيذ الخطة بنجاح، فقد كانت تمر بلندن موجة أمطار عنيفة.. وسعدت المجموعة العربية أن تتجمع في هذه الظروف الجوية غير المشجعة على الخروج في أمسيات حشيش وطرب، يعزف فريد على الجيتار ويغني فيصل وهو شاب سعودي يتمتع بصوت جميل.. ويصفق الجميع، واستمر «كالو» في توريد الحشيش.. وفي الليلة العاشرة اقترح معاذ وهو شاب يمني أن يستبدلوا الحشيش بالقات، ويغني هو أغاني من اليمن السعيد وبالفعل أقاموا ليلة يمنية ممتعة، وتخدر تمامًا الخد الأيسر لفريد. وفي الليلة الثانية عشرة وفي أثناء

غناء فريد لأغاني حكيم الأخيرة، طلبت يوليا الانفصال عن فريد بعد أن تم تدمير جهازها العصبي من قلة النوم.

* * *

انفصلت عن فريد منذ عامين، ونكاد أن ننهي دراستنا الجامعية، وما زال حبيبي المسكين الرائع في حالة ضياع لا يجد أرضًا يتكئ عليها.

د. مرتضى البارودي

أستاذ الفلسفة بجامعة عين شمس سابقًا وأستاذ علم المنهجية بجامعة ريشموند حاليًا. أحد ألمع أساتذة مصر في مجاله. تاريخ حافل من الإنجازات الأكاديمية. حفر مجراه في قلب الجرانيت المصري الصلب، فشكل نهرًا طيعًا من المعرفة والعلم. يجله طلبته أيما إجلال، فهو الأستاذ والأب والصديق. تضرب أصوله الريفية في جذور روحه؛ فوجهه المنحوت في صخر، ولكنته البحراوية، وجسده العملاق، وملمس كفه الخشنة العريضة المتغضنة، وبساطته الشديدة مع اعتزازه بنفسه، كلها صفات ورثها عن أبيه العمدة في مركز إيتاي البارود، محافظة البحيرة، الذي ورثها بدوره عن سلسال من العمد يمتد إلى ما قبل التاريخ. تخرج في مدرسة المعلمين بدمنهور ثم التحق بآداب الإسكندرية، ومن هناك بدأ رحلة التفوق الأكاديمي الباهر بإرادة لا تلين. وقد ولّد ميلاد مرتضى في الأول من يوليو عام ١٩٥٠ شعورًا لديه بأن قَدَرَه أن يكون رجلًا وسطًا. فحضوره للدنيا في وسط العام وفي وسط القرن، هو بالتأكيد إشارة من الله (عز جلاله) أن عليه الالتزام بالعدل في كل كلمة يتفوه بها.

واعتبر الميزان رمزًا له يضعه أمامه في مكتبه وفي منزله. لم ينشغل طوال حياته بالقضايا العامة، سياسية كانت أو ثقافية، وانحصر جل تركيزه في انشغالاته الأكاديمية حتى إنه رفض وبحسم الانضمام إلى التنظيم الطليعي في أثناء دراسته الجامعية كما رفض الانضمام إلى أي تيار سياسي آخر عبر تموجات الحياة التي لا تنقطع.

✦ ✦ ✦

أمري غريب والله.. فأنا لم أبد في حياتي حماسة وحمية للاهتمام العام، إلا عندما قدمت إلى انجلترا.. وكان الأحرى أن أشارك في القضايا العامة وأنا في بلدي. ولكنني كنت دائم القول إنني أضطلع بدور محدد وهو دوري التعليمي داخل مؤسسة الجامعة ولو أحسنت القيام بدوري داخل تلك الأروقة فذاك منتهى الأمل، ظننت طوال حياتي أنه يجب إصلاح الجزء قبل التفكير في الكل، وما بالك لو كان ما أقوم به هو إعداد الأجيال القادمة لشغل مسئولياتها. أما المشاركة في قضايا الوطن العامة فهو متروك للساسة ولقادة الإعلام وأنا بعيد في خصالي كل البعد عن كلا الفصيلين. فتبسيط القضايا ـ المخل في معظمه ـ للوصول إلى الناس. ثم تقديم تنازلات جسيمة للصعود على أكتاف عملاق شائه اسمه السلطة ليسا من أولويات حياتي، وما أبعدني أكثر هو ما رأيته وأراه من تحالف شيطاني لكلا الفصيلين في تقديم قضايا للجمهور العام لا قيمة لها وطمس قضايا لها أكبر القيمة، والأهم هو ترويج القيم التي تخدم مصالحهم الاقتصادية والسياسية وأنا عن ذلك بعيد كل البعد.

كتبت عبر حياتي أكثر من مائة دراسة أكاديمية نشرت في دوريات متخصصة، ولكنني لم أكتب مقالًا واحدًا في صحيفة سيارة. عشت حياتي كلها أكن الاحتقار العميق لمهنة الصحافة. مهنة بائعي أوهام السلطة. حتى من يصل منهم في انتقاده لها إلى أبعد مدى فهو ولا شك يؤدي دورًا مرسومًا مسبقًا يخدم المصالح الاقتصادية للجالسين على العرش الذهبي اللئيم. تأكدت من مزاعمي تلك في اليوم التالي لوصولي إلى انجلترا فقد شاءت الصدفة أن أشاهد «سطوة الكوابيس: صعود سياسات الخوف» وهو سلسلة من الأفلام الوثائقية أنتجتها هيئة الإذاعة البريطانية. أكد المخرج «آدم كيرتس» في تلك السلسلة ما عشت حياتي واثقًا منه وهو أن دور السلطة والإعلام يتلخص في تمرير تلفيقات وأكاذيب وأوهام على المستوى الشعبي، تتحول في النهاية إلى سيولة نقدية في حسابات هؤلاء. حكى الفيلم أن تنظيم القاعدة بشبكتها الجهنمية وما تمثله من خطر الإرهاب الإسلامي على العالم الغربي هو مجرد وهم صنعه الساسة وروجه الإعلام وتحولت بعده آبار بترول العرب إلى سبائك ذهب في قصور قادة العالم.

إقامتي هنا لمدة عامين متتاليين غيرت من أدائي وسلوكياتي وغيرت في حياتي الكثير وبدأت لأول مرة أشارك في القضايا العامة. واليوم سوف أشارك في ندوة بالجامعة.

✧ ✧ ✧

بعد مجيئه بأشهر قليلة وبالتحديد في يناير ٢٠٠٦ كان د. مرتضى جالسًا في حجرة مكتبه الفخيم بالجامعة يقرأ وهو في حالة

هم ووجع تفاصيل الفتوى الجديدة التي أصدرها الدكتور رشاد حسن خليل عميد كلية الشريعة والقانون بجامعة الأزهر السابق والتي تقضي ببطلان عقد الزواج لو تجرد الزوجان من الملابس في أثناء المعاشرة الزوجية. دخل عليه فريد المنجي ليخبره أن حكومة الطلبة في الجامعة، قد أعلنت وبإجماع غير مسبوق الإضراب وامتناع الطلبة عن حضور المحاضرات في يوم الاثنين ١٣ من يناير كرد فعل سريع لاتخاذ إدارة الجامعة مجموعة من القرارات من شأنها أن تضر بمصلحة الطلبة. وأنه بهذه المناسبة يدعوه إلى العشاء يوم الأحد السابق للإضراب.

رفض د. مرتضى دعوة العشاء ولكنه اهتم جدًا بموضوع حكومة الطلبة التي لم يكن قد سمع بها بعد وأزاح من أمامه فتوى الدكتور رشاد وبدأ في قراءة دستور حكومة الطلبة.

✧ ✧ ✧

كانت أكثر العبارات ذكرًا على لساني عند مجيئي إلى هذه الجامعة: «اخشوشنوا فإن النعمة لا تدوم» وأنا لم أكن أقصد بالتأكيد النعمة من الله على سفري.. فخروجي من مصر هو نقمة لا شك فيها. ولكن ما كنت أقصده هو ذلك التعود على الرفاهية في كل شيء بدءًا من حجرة مكتبي أو شكل مباني الجامعة أو قاعة الدرس أو المكتبة العامة وحالتهم أو رائحة الجو المحملة بالرياحين، أو إمكانات البحث العلمي التي تجعل الإنسان في حالة كرب إذا ما قارنت كل ذلك بجامعة عين شمس. ولكن كل ذلك لم يعن شيئًا حقيقيًا بالنسبة إليَّ إذا فكرت اليوم في حجم صدمتي

وأنا أقرأ دستور حكومة الطلبة ثم انبهاري بعد ذلك وأنا أتابع تنفيذ إضراب الطلبة عن حضور المحاضرات في اليوم المحدد، والذي انتهى بامتثال إدارة الجامعة لمطالبهم. يمكنك أن تقولي ما شئت حول لعبة الديمقراطية وأنها ديمقراطية العرائس المتحركة، ولكنني بدأت منذ ذلك اليوم أشعر بضرورة مشاركتي في قضايا وطني.

✦ ✦ ✦

الرجل ده لاسع آخر حاجة، اتخانق معايا خناقة لرب السماء علشان قلت له مش عايز أنزل مصر تاني، أبويا وأختي في أمريكا وأمي انتقلت لرحاب الله.. أنزل مصر لمين وعائلة المنجي بتنقرض؟ لكن المشكلة إن أنا سخنت بعد شوية في الحوار وقلت له حد ينزل برجليه في المجاري وهو عايش على أجمل بلاج وحواليه المزز أشكال وألوان، إداني يوميها دروس في حب الوطن فرض عليَّ ورجَّعني لأيام سعد زغلول اللي ما أعرفش عنه إلا إنه قال: «مفيش فايدة». وحتى دي قال لي إنه ولا قالها ولا حاجة. ورجع بعدها يقول لي إن مصر بتجري في عروقنا وإني لو اتعورت.. مية نهر النيل حتنقط على هدومي. وبعدين أسمع بعدها بيومين اثنين إن حفلة زواجه من ديبورا آخر الأسبوع. اللي يجنن إن ديبورا دي - اللي الواحد كل ما يدخل المكتبة يغمض عينه علشان ما يشوفهاش - إنجليزية أصلي وجسمها كدة مربع وعامل زي الجزمة البوت. اتغظت جدا من حالة الشيزوفرينيا اللي عند الرجل ده. فبعد كل الدروس دي.. يروح يتجوز واحدة إنجليزية.

وبعدين أنا عايز أفهم حيتخانق معاها إزاي وهو بيطجن في

الإنجليزي.. كان نفسي أسأله حتشتمها إزاي بالإنجليزي وانت ما بين الحرف والحرف بتتنهد. بس طبعا خفت منه .. بصراحة راجل مرعب. ولكني اتشجعت وقررت أقنع شوية عيال من عندنا إنه عزمنا في فرحه علشان نغلّس عليه ونطب عليه في الحفلة.

✧ ✧ ✧

اللي يصبر ينول

واللي يصبر أكتر

يبقى فرحه يوم السبت ٢٥ فبراير ٢٠٠٦

واللي مش مصدق

ويبقى عنده حق

إحنا منتظرينه في منزلنا العامر بعدم التصديق

أما اللي مصدق

فممكن يتابع تفاصيل الفرح

على قناة البي بي سي أو على ديسكافيري

صاغ وكتب ونفذ دعوة الفرح ريتشارد أخو ديبورا، وهو فنان تشكيلي ومن مصممي الجرافيك اللامعين. كان ريتشارد أكثر يأسًا من ديبورا نفسها في إمكانية أن تتزوج في يوم من الأيام. كان أمله أن تتزوج هي حيث لا أمل يرجى منه بشأن موضوع الزواج. ومن شدة سعادته؛ دار بالدراجة على كل المعارف والخلان لتوزيع الدعوة بنفسه.

كانت ديبورا تقيم مع والديها في ٦٢ شارع أكيشيا أفينيو في منزل مكون من دورين وهو من المنازل التي يطلق عليها تيراس هاوس (Terrace House) وهي دور متلاصقة ذات ارتفاع واحد، وأمام المنزل حديقة ذات مساحة صغيرة مطلة على الشارع بالإضافة إلى حديقة خلفية واسعة. ومع التاريخ الطويل لهذا المنزل والذي يعود إلى عام ١٨٩٢ تنفس خلالها بكل عشق مع كل فرد من أفراد العائلة هواء العقود المتلاحقة، أصبح المنزل حيًا إلى درجة أنه كان أقرب إلى مخزن منه إلى منزل. تراكمت بتراكم السنين الطاولات والمنافض والمقاعد والسجاجيد على الأرض واللوحات فوق الحوائط.

✧ ✧ ✧

لم أتوقع بعد أن وصلت إلى سن اليأس أن أتزوج. استمرت محاولات تزويجي أكثر من عشرين عامًا من أفراد أسرتي ومن أصدقائي ومن معارفي وبالطبع مني شخصيًا ولكن رحمة أفروديت كانت معي جدباء.. يا لها من سعادة أن أتزوج في النهاية. لكم قررت في ليالٍ حالكة أن أتزوج من أي طارق باب، أن أقدم أية تنازلات مطلوبة لتحقيق الغرض الأسمى، وقد سيطر الزواج على مخيلتي حتى هانت عليَّ نفسي. وكان أصدقائي الرجال كثيرًا ما يسخرون من ضخامتي ويرددون أن جسدي تفوح منه رائحة الصابون حتى إن الرجال يفضلون ممارسة الجنس مع ماكينة غسيل الملابس عن ممارسة الجنس معي. وكنت أضحك كالبلهاء. وعندما يئست تمامًا بعد بلوغي سن الأربعين، ظهر مرتضى في حياتي كبلسم

لكل جروحي. لم أتوقع أن يكافئني الله على انتظاري بهدية بتلك الروعة. فمرتضى رجل كامل بمعنى الكلمة أحببته ويا للغرابة منذ أول لحظة دخل فيها المكتبة على الرغم من عدم وسامته، وأنه يكبرني بحوالي خمسة عشر عامًا. سوف ألتهمه حيًا في ليلة الزواج بعد أن أبى بإصرار عجيب أن أقضم أرنبة أنفه حتى الآن.

✧ ✧ ✧

في يوم الفرح اضطرت الأسرة من أجل تحويل الدور الأرضي إلى صالة كبيرة تليق بحفل العرس إلى نقل الكثير من قطع العفش الزائدة إلى الدور الأول. استمر العمل من العاشرة صباحا حتى السادسة مساء. وفي السابعة إلا الربع، جلس الجميع لالتقاط الأنفاس بعد المجهود المضني الذي بذله الجميع.

ارتدى الأب حلته السوداء التي يذهب بها إلى جنازات أصدقائه والحفلات الموسيقية في كنيسة الحي. أما الأم فبعد هزالها إثر خروجها على المعاش استطاعت ولأول مرة منذ عرسها أن ترتدي فستان فرحها التي لم تكن قد استطاعت ارتداءه منذ أكثر من أربعين عامًا واعتبرت ذلك فألا حسنًا لزيجة ابنتها.

جلس العروسان على كنبة وثيرة تسع اثنين يطلقون عليها «مقعد الأحبة» (Love Seat) وارتدى مرتضى على سبيل المزاح الفلكلوري جلابية بيضاء فاخرة كان قد اشتراها من مكة المكرمة في أثناء تأديته فريضة الحج وانتعل صندلًا من جلد التمساح كان قد اشتراه من الخرطوم. وارتدت ديبورا ثوبًا ساحرًا موشى بالزهور البرتقالية اللون يبرز مفاتن صدرها العريض وقد اكتسى وجهها بالحمرة من

كثرة ما تجرعت من كؤوس البراندي لكي تخفف من حدة توترها. فقد انتظرت ركبتاها هذه الليلة لسنوات طويلة حتى إنها بدأت في الارتعاش منذ الصباح الباكر غير مصدقة نفسها. وقد أدى البراندي الدور المطلوب وخفت ارتعاشة الركبة.

فكَّر مرتضى أكثر من مرة في دعوة بعض أفراد عائلته لحضور حفل زفافه، ولكن أمام صعوبة إجراءات التأشيرة وسفالة المطلوب لمنحها، قرر في النهاية عمل فرح مصري في قريته في الصيف القادم.

في السابعة مساء بدأ المدعوون في الحضور، وكان أول الحاضرين الدكتور «إكرام راچ» أستاذ الاقتصاد الهندي الجنسية. كانت أواصر الصداقة قد بدأت تجمع بينه وبين الدكتور مرتضى منذ وصول مرتضى إلى لندن. إكرام رجل في الستين من العمر متوسط الطول.. شديد النحافة، أسمر البشرة، متوقد الذكاء، دائم السخرية إلى درجة أنها إن لم تنضح من كلماته فسوف تظهر بلا شك على شفته السفلى الشبيهة بالممثلة العظيمة ملك الجمل. وكان «راچ» قد شجع مرتضى كثيرًا على القيام بهذه الخطوة.

استقبله الجميع بحفاوة شديدة لحظة دخوله، كان يرتدي حلة بيضاء بقميص أبيض يتدلى من صدره الدانتيلا وبابيون ساتان سوداء وينتعل حذاء أسود لامعًا، وبدا نموذجًا للوجاهة البريطانية. ومن فور وصوله اختلى به ريتشارد الذي كان يعتبر «إكرام» من أعز أصدقائه وكان هو المصمم الدائم لكل أغلفة كتبه.

ـ أحسنت يا إكرام.. لقد وعدت ونفذت.

ـ مرتضى رجل جاد وعميق المشاعر ومحترم ولقد قدمت له هدية وليس العكس.

ـ ما هذه الجدية المبالغ فيها؟ أنا لم أقل إن ديبورا ليست امرأة ممتازة ولكن ما يعنيني أنها تزوجت.

ـ وما موقف والديك النهائي بعد الصدمة العنصرية الأولى التي حدثتني عنها؟

ـ ذهبت والدتي إلى الكنيسة لتسأل القس إذا كانت ديبورا سوف تدخل النار بزواجها من مسلم، فقد أكد لها أصدقاؤها ذلك. ولكن القس الذي يعرف ديبورا حق المعرفة كان من الذكاء أن طمأن والدتي تمامًا، وقال لها إن إيمان ديبورا وأفعالها الطيبة سوف يدخلانها الجنة لا محالة. أما والدي فقد راعه أن تتزوج من مصري وما زال المسكين غير مصدقٍ حتى الآن. لا أنكر أنه يطلق أحيانًا بعض التصريحات العنصرية. لا تنسَ أنهم من جيل مضى زمنه، أضف إلى ذلك أن والدي لم يغادر انجلترا طوال حياته. ولكنهم في النهاية سعداء من أجل ديبي.

استأذنت ديبورا زوجها للحظة، فوقف مرتضى حائرًا وفي النهاية اتجه إلى أم ديبورا التي لاحظت اقترابه منها فجرت في اتجاه آخر. فاتجه مرتضى إلى حيث يجلس ريتشارد وإكرام وربت على كتف صديقه الهندي.

ـ هل قبضوا بالفعل على صديقك؟

ـ نعم قبضت الشرطة على المسكين في نيودلهي بعد أن أعادت

مجلة «سينيور إنديا» التي يرأس مجلس إدارتها نشر الرسوم المسيئة للنبي محمد.

ـ وماذا كان يقصد بإعادة النشر؟

ـ اعتبرت الشرطة أنه يقصد تأليب الرأي العام، وبالفعل اندلعت أمس بعد صلاة الجمعة مظاهرات عنيفة جدًّا في عدة مدن هندية، ورفعوا شعارات معادية للأوروبيين وللمسيحيين.

ـ تعلمنا منذ الصغر أن احترام كل الأديان واجب مقدس. فمن الصعب علينا جدًّا التعامل مع هذه الوقاحة وهذا التبجح في حق نبي من أنبياء الله.

ـ في الحقيقة أن أمركم يدعو إلى الرثاء. يقوم المسلمون بكل تلك الزوبعة في مواجهة رسوم كاريكاتير تم نشرها في جريدة مجهولة لا يقرؤها غير ثمانية أشخاص وفي دولة صغيرة جدًّا يسكنها أكثر قليلًا من عشرة أشخاص، تبعد عنكم آلاف الأميال وتبدأون في التحرك الهزيل بعد أسابيع طويلة من نشرها، ولا تقومون برد الفعل نفسه أمام مخاطر حقيقية تواجهكم على أرضكم وعمليات نهب من الولايات المتحدة ومن حكومتنا الموقرة لثرواتكم. يبدو من وهنكم أنكم تكتفون بالفرجة على كل ما هو جاد وحقيقي وخطير، وقد يصل أمر بعضكم إلى التصفيق والمشاركة. يا له من أمر يدعو إلى التساؤل هل أنتم أمة ما زالت في غفوتها كما كان يكرر دائمًا تشرشل؟

ـ أي خطر يحدق بنا أكثر من الاعتداء على ديننا وعلى قيمنا الروحية؟ فهي أساس وجودنا. أما الاعتداءات الأخرى فالحكومات هي الأولى بالرد عليها وليس الشعوب.

ـ إن ردك نفسه يدعو إلى الرثاء، ولكنني لا أستطيع الرد عليك اليوم، أخاف أن تتراجع وتقتلني ديبورا. انظر ها هي الآن ترمقني من بعيد. ولكن لإنهاء هذه المناقشة السقيمة سوف أقول لكما إحدى مقولات تشرشل الشهيرة حول الشعوب والبادي أظلم:

«حاولوا أن تكونوا أحرارًا، فسوف تموتون من الجوع».

وجّه ريتشارد أنظار مرتضى إلى زوجته وهو يقول:

ـ المعنى يا عزيزي واضح.. أغضبْ ديبورا.. فلن تطبخ لك. فاذهبْ إليها الآن.. وامنحها قبلة.. كي تحظى دومًا بعشاء فاخر.

استمر المدعوون في الحضور، لفيف من أساتذة الجامعة وأصدقاء ديبورا من المدرسة ومن الكلية وزملاء العمل في المكتبة. ثم دخل فوج كبير مكون من عماتها وخالاتها وأبنائهم الذين تجمعوا في ركن وبدأوا في تأمل مرتضى بجلابيته البيضاء وصندله العجيب وكأنه جاء من كوكب آخر. كان الجميع في حالة سعادة حقيقية وصادقة من أجل ديبورا التي لم تتوقف ضحكاتها المجلجلة منذ بدأ الحفل بعد أن صهل البراندي داخل روحها.

أما مرتضى وعلى الرغم من سعادته بضحكات الجميع فإنه كان يأمل في قرارة نفسه أن يستمع إلى كلمة واحدة بلغة الضاد. أغمض

عينيْه ويبدأ يستمع إلى أغنية بهية وعيون بهية بصوت سعاد وليس بصوت محمد العزبي.

✦ ✦ ✦

نظر مرتضى في وجه سعاد وهي تمسك الميكروفون وذاب فيهما وأيقن أن عينيْها «ملهاش دوا ولا طبيب». تاهت الكلمات وسط هدير دقات قلبه المتسارع ولم يعد يسمع أي كلمة غير كلمة «أحبك» التي بدأ في ترتيلها في سره وهو يسبح في البقعة البنية في وسط عينيْها الحزينتيْن على حال بهية. كانت قاعة الدفاع الجوي مملوءة بالمدعوين. نصف القاعة الأيمن من أهالي إيتاي البارود ونصفها الأيسر من دمياط. ووقف كل من مرتضى وسعاد في وسط القاعة وحولهما وقف الأهل والأصدقاء في دائرة من التصفيق الحار. وسعاد تغني بصوتها العذب ويردد الجميع وراءها «داري العيون يا صبية». وبين وصلة غنائية وأخرى يختلس مرتضى النظر إلى المائدة القريبة من الكوشة الذي يجلس عليها والده ووالد سعاد ويحاول التأكد أن ما يتهامسان به هو ما اتفق عليه مع والده حول تحديد موعد الفرح بشرط ألا تطول مدة الخطوبة عن ستة أشهر. تعطي سعاد الميكروفون لمرتضى وتصمم على أن يغني لها أي أغنية. يرفض مرتضى بشدة صارخًا أن أذنه من البلاستيك المقوى وأنه لا يستطيع الغناء ولو في الحمام. تصمم سعاد ويضغط عليه المدعوون فيغني لها «أهواك وأتمنى لو...» تخطف منه الميكروفون لتنقذ المدعوين من حالة الإغماء بعد أن شاهدت ثلاثة منهم في حالة فرفرة منذ سماعهم لكلمة أهواك. وترد هي عليه

«كان يوم حبك أجمل صدفة لما قابلتك مرة صدفة». وتلتف حولها بنات عمها لترديد كوبليه «خدني جمال الروح والخفة».

يصرخ أحد المدعوين: «الله الله.. على فكرة مأمون الشناوي ده قريبي».

✧ ✧ ✧

نعرف جميعنا أن دقيقة واحدة يمكن أن تكون فاصلة بين الحياة والموت. ولكننا لا نتصور أبدًا أننا سوف نلتقي بهذه الدقيقة الفاصلة المرعبة في ركن مظلم داخل زقاق حياتنا. ففي الأيام التالية للخطوبة انقلبت حياتي من الحياة إلى الموت. ليلة خطوبتنا كانت أسعد ليلة مرت في حياتي.

كالحلم مرت.

بسرعة خاطفة انقضت.

واختفت حبيبتي سعاد المحبوبة المحبة في لحظة اليقظة الغادرة.. وظلت عالقة في الروح.

أشم رائحتها الزكية يوميًا وأنا أصلي.

كان الحفل في الفاتح من يناير عام ٢٠٠٠، حددنا هذا التاريخ لتكون علاقتنا بداية جديدة للتاريخ. بداية لعالم أكثر عقلانية وأكثر رشدًا.

اتفقت مع سعاد على هذا التاريخ لتكون علاقة حبنا هي صفحة جديدة نودع بها القرن الأكثر دموية في التاريخ، القرن الذي أشعل

مئتيْن وخمسين حربًا رئيسية، مات من جرائها مئة وعشرة ملايين من البشر. هذا القرن الذي رفض أن يودعنا دون أن يقتل في عقده الأخير فقط أكثر من مليوني طفل ويشوه أكثر من ستة ملايين طفل ويشرد عشرين مليون طفل.

لم نرغب في أن نربط تاريخنا بمثل هذا القرن المخيف الذي حلم أدباؤه وشعراؤه أنه سيكون فتحًا جديدًا لروعة العقل البشري، وعصرًا للعقلانية.

كنت قد بلغت من العمر أرذله ولكنني لم أفكر في الزواج في حياتي إلا عندما التقيت سعاد. كنت أقنع نفسي دائما بأنني تزوجت العلم وبأن مهنة التدريس مثل الفريك لا تحب الشريك وإلا لماذا ارتبط تاريخ التعليم في أوروبا بالراهبات والرهبان؟ ولماذا كانت المدرسات في الماضي لا يتزوجن ويهبن حياتهن للتعليم؟

تطايرت نظرياتي وتفككت وانصهرت أمام شمس الحقيقة السعادية، أمام وهج حضورها المهيمن.

التقيتها في رحلة نظمتها جمعية التراث القبطي لأديرة في محافظتي المنيا وأسيوط. استمرت الرحلة خمسة أيام زرنا خلالها خمس مدن وخمسة أديرة وصعدنا جبالًا وسرنا في وديان وعرفت أن حبي لسعاد سوف يستمر ما دام الزمن مستمرًا.

أدركت أنني في حالة غير عادية ونحن في القوصية، وعرفت أنني أسلك سلوك المراهق في أثناء أول رحلة جامعية له. ثم اعترفت لنفسي بأنني في حالة حب مستعصٍ ونحن في دير المحرّق عندما كان أحد الرهبان يشرح لنا سبب تَسمية الدير بالمحرق، حيث إن

المنطقة المحيطة بالدير يكثر فيها نبات الحلفاء والحرائق؛ لذا سمي بالمحرّق. وعند نطقه كلمة المحرّق نظرت إلى عيني سعاد واحترق قلبي داخل صدري. وعندما تحمص القلب تماما، بحت لها بمكنوني وتلاحم التاريخ مع الفلسفة.

✧ ✧ ✧

لكل حكاية بداية، وهلةٌ تشكل نقطة تلامس القلم مع الورقة لكتابة فصل من فصول الحياة. وحدوتة خروج الدكتور مرتضى من مصر بدأت منذ لحظة خروجه من مبنى الدفاع الجوي في ليلة خطوبته إلى سعاد شاهين. مرتضى في أبهى حلة، يرتدي بذلة زرقاء داكنة من الحرير الهندي ورابطة عنق فرنسية وقميصًا إيطاليًا دفع فيه مرتب شهر كامل وفي يده تتعلق سعاد، ملاك يرتدي فستانا هو الرقة بذاتها، نموذج للذوق الراقي التي تتمتع به. خرجا وحولهما الأهل والأصدقاء وودعها على الباب الخارجي بقبلة طبعها على يدها. دخلت السيارة مع والدها واختفت عن ناظريْه.

الدكتورة سعاد شاهين هي أستاذ التاريخ المعاصر في معهد عالٍ تابع لوزارة التعليم العالي في طنطا والحاصلة على الدكتوراه من جامعة إكس ـ آن پروڤانس الفرنسية وتعيش في بنها مع والدها الحاج شاهين تاجر الموبيليا، من عائلة دمياطية تعمل في هذا المجال منذ قرون.

لم يرزقه الله غير سعاد وقد تزوج من ثانية وثالثة لكن لم يرزق بغير سعاد. وأخيرًا رضي بقدره وطلق زوجتيْه الثانية والثالثة. وبعدها انتقل إلى بنها بعد اشتداد المنافسة وقلة الرزق في دمياط

وافتتح محلًا كبيرًا للموبيليا وسكنت العائلة الناحية الشرقية من المدينة على مقربة من مدينة «أتريب» الأثرية.

كانت سعاد تحب نطق «بنها» باسمها المصري القديم «با إن نهت» والتي تعني مدينة شجرة الجميز. وعرف عن الحاج شاهين أنه رجل شحيح اليد ولكن عندما يتعلق الأمر بسعاد فهو مستعد لتقديم روحه على طبق من فضة لتنفيذ ما تريد. ومن ثم لم يبخل في حفل الخطوبة كما كان يتوقع الجميع ولكن على العكس من ذلك قام بذبح أربعة عجول وزّع لحمها على الفقراء، بالإضافة إلى تجشمه تكاليف الحفل.

✦ ✦ ✦

هل كان يمكن أن أتصور أنني سوف أكون أول ضحية لما وصل إليه التعليم في بلدنا؟ إنني سوف أكون ضحية لما أفنيت حياتي في خدمته؟ أدرك إدراكًا كاملًا الهاوية التي بلا قاع التي انزلقت فيها المؤسسة الجامعية المصرية ولكنني كنت أحاول التعايش؛ فلم يكن أمامي أي بديل. ولكن أن يصل الأمر بأن تقتل سعاد بخنجر معقوف من جراء هذا التدهور. هذا ما لا يمكنني احتماله. فعلى الرغم من عطب عيني من كثرة قراءة كتب الفلسفة فإن قلبي لم يعطب من حكمة الحكماء.

كنت جالسًا وحدي في منزلي أتساءل: أين الأهل والأصدقاء الذين كانوا يحيطونني بالمودة منذ يومين فقط في حفل خطوبتي، وأنا أنتظر الآن مدفع الإفطار لكي أفطر وحيدًا في رمضان؟ وأمام وطأة الوحدة القاتلة؛ أمسكت بصحيفة الأهرام وهو أمر أصبح نادر

الحدوث بعد أن تحولت إلى صحيفة إعلانية لا قيمة لها. أقرأ في صفحتها الأولى تأكيدات الرئيس الأمريكي بل كلينتون في كلمته الإذاعية الأسبوعية أن الولايات المتحدة مستعدة تمامًا لقيادة العالم في القرن الحادي والعشرين. وقال إن القرن العشرين الذي وصفه البعض بأنه القرن الأمريكي مستمر، وسيمتد طويلًا في المستقبل. طمأنتني كلمات بل، خيبة الله عليه وعلى أمثاله عندما رن الهاتف، وسمعت صوتًا صادرًا من القبر.

ـ تعالَ يا مرتضى بسرعة، فيه عيل ضرب بنتي بمطواة في بطنها وهي مروحة على البيت ونقلوها على مستشفى بنها.

ـ إزاي ده حصل؟

ـ أهو حصل. تعالَ بسرعة.

✦ ✦ ✦

عرف مرتضى من فور إغلاقه الهاتف الإجابة عن سؤاله: إزاي ده حصل؟ فقد اكتشفت سعاد مخالفات جسيمة في المعهد الذي تعمل به نتيجة لفساد قد توغل وانتشر في كل متر مربع من المبنى. وكانت إحدى هذه المخالفات هي قيد طلبة بالمعهد دون حصولهم على شهادة الثانوية العامة ودون اللجوء بالطبع إلى مكتب التنسيق لتقديم أوراقهم، ووصل بعض هؤلاء الطلبة إلى السنة الرابعة وبات تخرجهم وشيكا.

ـ وطب حتعملي إيه يا سعاد؟

ـ وده سؤال يا مرتضى.. إنت لو مكاني كنت حتعمل إيه؟

ـ البلطجة يا سعاد زيها زي الفساد، أصبحت جزءًا من نسيج المجتمع. الشباب دول اللي دفعوا فلوس مش عارف لمين علشان يدخلوا المعهد مش حيسكتوا. ودول كمان خلاص حيتخرجوا بعد كام شهر.

ـ يا نهار أسود ومهبب.. عايزني أخاف من شوية عيال.. عايزني أسكت على جريمة. حأنام إزاي بالليل. أنا حأعمل اللي ضميري بيمليه عليَّ.

ـ أنا بس بأقول نتروى، نفكر، نتأمل في الخطوات الممكنة ونتائجها المحتملة.

طيب أنا إمبارح جالي طالب بيعمل بحث محتاج شغل ميداني في وزارة الأوقاف وده محتاج لموافقة أمنية والموافقة مش عايزة تيجي وجه يسألني أعمل إيه؟ لو كنت مكاني حتعملي إيه؟

ـ الوضع مختلف تمامًا. دول طلبة دفعوا رشاوي وزوّروا وكذبوا علشان يسرقوا أماكن طلبة تانيين وياخدوا شهادات ما يستاهلوهاش.

ـ ما هي دولة موافقة على الرشاوي وعلى التزوير وبتشجعها وبتختار الناس اللي مؤهلة تقبل الرشاوي بكل عناية وتعينهم وترقيهم، وبتمنع الطلبة يمارسوا البحث العلمي باسم موافقات أمنية من أمن دولة على أمن قومي.

وبعدين الشهادات اللي انت خايفة على نقائها هل بتعين حد النهاردة؟ بالكتير لو عرفوا يتجوزوا بيها يبقى هايل. أنا معاكي تماما إن اللي حصل جريمة. بس نفكر شوية. التفكير عمره ما حيخسر.

- مرتضى.. أنا ما أقدرش أسكت. حاموت لو سكت.

✦ ✦ ✦

كانت قد ماتت عندما وصل مرتضى إلى المستشفى. لم يرها. لم يودعها. لم يسألها هل قرأت جريدة الصباح؟ لم يقل لها إن كلينتون لديه كل الحق، وإنهم على خطأ، وإن القرن الجديد هو استمرار طبيعي للقرن الأمريكي السعيد. لقد خدعهم ألق الحب فعميت عيونهم عن الحقيقة.

لم يعرف أيعزي ما تبقى من والدها.. أم يعزي الدنيا؟

لم يستطع العودة إلى القاهرة خوفًا من وحشة الوحدة. قرر الذهاب إلى قريته. ولكن هناك شعر أيضا بوحشة مخيفة. كان والده قد رحل لأداء مناسك العمرة في اليوم التالي مباشرة للخطوبة بعد أن أخر سفره إلى الأراضي الحجازية بسبب تصميم ابنه على إقامة الحفل في الأول من يناير.

لم يكن يتصور مدى احتياج رجل في مثل سنه إلى أبيه، وكأنه عاد طفلًا مرة أخرى، يطلب السند والقوة من والده. ظل ينتظر عودته بعد عيد الفطر وكأنه العاصي ينتظر المخلص. التف حوله الأهل والأصدقاء لمواساته، ولكنه كان داخل نفق مظلم لم يستطع من شدة الحلكة أن يراهم.

استطاع ياسين ابن عمه والقريب جدًا إلى قلبه على الرغم من فارق السن أن يدخل عليه داخل النفق ويضيء شمعة واهنة، كانت كافية لتدفئة قنوات دمائه المتجمدة من الرعب واستطاع قلبه المثقل أن يستمر في النبض.

ظل ياسين إلى جانبه طوال مدة إقامته في البلد، وعندما حل العيد صمم ياسين أن يتذوق مرتضى كعك العيد، فليس من الممكن أن يمر العيد هكذا دون أن يتذوق قطعة واحدة. رفض مرتضى بحدة واعتبر أكله للكعك خيانة عظمى لسعاد ففيه احتفاء بالعيد. وهل يحتفي أحد بمقتل معشوقته إلا إذا كان مجنونًا؟

دخل غرفته ولبس البيجامة الكستور ذات الخطوط الطولية. وقرر حبس نفسه في حجرته إلى أجل غير مسمى، وأخرج صورة سعاد واحتضنها وبللها بدموعه، وهو يتساءل: كيف أمكن للعيد أن يأتي بعد أن رحلت؟

جلس لساعات لا يعرف عددها يناجيها.

✧ ✧ ✧

دخل فريد ومعه شلة من الطلبة العرب الحفل. نظرت ديبورا باستغراب إليهم فلم يكن مرتضى قد قال لها إنه قام بدعوتهم. ونظر مرتضى إلى ديبورا نظرة امتنان لدعوتها الطلبة العرب. وشعر أنها حقا إنسانة رائعة وحساسة.

ـ إحنا قولنا لازم نيجي نبارك.

ـ مبارك يا دكتور.

- والله لا تتصوروا سعادتي بحضوركم. كان نفسي أسمع كلمة واحدة بالعربي.

- بس حضرتك اللي اخترت تتجوز إنجليزية.

- يا فريد كله قسمة ونصيب، حتى الجمل المحفوظة والبايخة دي بتمس حقيقة عميقة. واضح إن إحنا مسيرين ومش مخيرين زي ما كنت فاكر. كنت طول عمري بأفكر في معنى الآية الكريمة: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ ودلوقت فهمتها.

يقترب والد ديبورا منهم وينصت باهتمام بالغ.

- هل ما تتحدثون به هو اللغة العربية؟

يقترب منه فريد ويضع يده على كتفه بحميمية فيتأفف مستر جونسون.

- نعم. ولو شئت يمكنني أن أعطيك دروسًا خصوصية في التحدث باللغة العربية وبأسعار رمزية والتوصيل حتى المنازل.

- وما حاجتي إلى ذلك وأنا أتحدث الانجليزية؟

يضحك فريد:

- خفة دمه عجبة يخرب بيته .. لديك يا سيدي كل الحق.

انتشرت المجموعة العربية وسط عائلة ديبورا وبدأوا يمثلون أنهم لا يتحدثون جيدا اللغة الانجليزية، ودخل أحدهم في حوار باللغة العربية مع خالة ديبي، ثم خرج معاذ وعاد حاملا عود يمني، فاتجه فريد إلى وسط الصالة ووقف على أحد المقاعد وأعلن

بصوت عالٍ عن تقديم هدية للعروسين: أغنية من الفولكلور العربي يغنيها أحد طلبة الدكتور مرتضى.

أمسك معاذ بالعود وبدأ يغني وسط ذهول الجميع.

✧ ✧ ✧

كانت ديبورا من الذكاء والأنوثة بحيث إنها عندما أدركت أن مرتضى يتصور أنها قد دعت الطلبة العرب من أجله لم تؤكد أو تنفي الواقعة، وتركته على اعتقاده.

كان ذلك على مائدة الإفطار الدائرية في يوم الصباحية.

كانت الشمس ساطعة على غير العادة وتضيء بأشعتها الذهبية المفرش الفضي وأواني الأكل الفضية وكذلك الخطوط البيضاء في البيجامة الكستور نفسها التي كان يرتديها مرتضى يوم حبس نفسه أربعة أيام في بلدته يناجي سعاد. أما ديبورا فكانت ترتدي قميص نوم شفافًا يظهر جسدها خاصة النهديْن الناهديْن. هالها عندما رأته في واجهة المحل ولكن «هيلين» أكدت لها أن شراء قمصان النوم العارية من التقاليد المقدسة للزواج الناجح. فما بالك لو كان الزوج عربيًا؛ هنا يصبح الالتزام بالتقاليد واجبًا مقدسًا.

كان الإفطار انجليزيًا جدًّا مكونًا من بيض و«بيكون» محمر وزبد ومربى. كانا قد اتفقا أن يغير مرتضى شقته وأن يسكنا في منزل جديد. واختارت هي شقة صغيرة ولكن رائعة في شارع متفرع من كينجز رود بتشيلسي في لندن بجانب محلات بيتر جونز التي اشترت منها قميص نوم ليلة دخلتها.

✧ ✧ ✧

اتلمينا امبارح في دوار الحاج علي بمناسبة فرح ابنه. هما عملوا فرح هناك واحنا عملنا فرح في إيتاي. كانت فرحة الناس كلها ما تتعوضش. كلنا ما صدقناش نفسنا. أنا بالذات كانت سعادتي بيه ما لهاش حد. كان دايما مراعيني ويقول لي: «يا ياسين انت أخويا الصغير اللي ربنا ما أرادش يديهولي».

أخيرا مرتضى اتجوز. يا ساتر يا رب دي كانت ضيقة وفرجت. وانفرجت على إيه على الهنا كله. على القشطة والعسل.

الحظ له ناسه.. بيقعد يدور يدور وبعدين يروح مشاور على واحد ويقول له إنت تبعي.

يروح متجوز واحدة إنجليزية.. شوف العز اللي هو فيه. ما الخواجات دول، الشحاتين اللي فيهم مليونيرات. وقال لنا إسماعيل بن عبد السلام إنه كدة حياخد على طول الجنسية الإنجليزية. يعني حيبقى إنجليزي. يا رب عقبالنا يا رب. والحاج علي قال لنا إن الفرح الكبير هنا في البلد في آخر الصيف.

قبل لما نمشي خدت رقم تليفونه المحمول من الحاج وقلت أعدي شهر العسل وأبقى أكلمه.

✧ ✧ ✧

ـ ألف مبروك يا مرتضى يا ابن عمي. ألف مبروك على الجوازة. أنا ياسين ابن عمك بأكلمك من البلد.

ـ يا ياسين مش معقول.. طيب إديني نمرتك وحأكلمك دلوقتي على طول.

ـ حأبقى أبعتها لك رسالة. المهم طمني على أحوالك.

ـ كله تمام والحمد لله ربنا وفقني في الجوازة. ما انت عارف يا تبقى جوازة يا تبقى جنازة. لكن طلعت والحمد لله ست بنت حلال ومستحملاني.

ـ الطيبون للطيبات يا ابن عمي.

ـ ابعت لي رقمك ضروري، وأنا حأبقى أكلمك كفاية كدة عليك ما أنا عارف الفولة.

ـ لا الوضع اتغير خالص دلوقتي والحمد لله، ما بقاش فيه حتى الفولة.

✦ ✦ ✦

تلقى مرتضى مكالمة ياسين في أثناء توجهه هو وديبورا في سيارة ديبورا الأوستين القديمة إلى ندوة يشارك فيها ست أساتذة من جنسيات مختلفة يتحدث كل منهم عن بلده من الزاوية التي يريدها. كانت ديبورا تقود بسرعة وتوتر وسط زحام لندن بعد أن أخرت مرتضى عن موعد تحركهما المتفق عليه بحوالي عشر دقائق بسبب وزنها الذي زاد أربعة كيلوجرامات حتى إن كل ملابسها قد ضاقت عليها. وقد زعق مرتضى فيها قائلًا: لقد كان من واجبي أن أطلب سيارة أجرة وألا أعتمد عليك وعلى سيارتك. كانت تشعر بتأنيب ضمير خوفًا من ألا يصلا في الموعد المحدد. ورفض مرتضى أن يتفوه بلفظ واحد منذ دخوله السيارة. ولكنها فوجئت بعد المكالمة بأساريره قد انبسطت وبدأ يحدثها عن ياسين وعن

البلد. وبانفراج أساريره انفرجت السيولة المرورية ووصلا في الموعد تمامًا. كانت قاعة صغيرة وكان عدد الحضور محدودًا ولكن مرتضى كان متوترًا، على الرغم من اعتياده شبه اليومي على إلقاء المحاضرات وهو الأمر الذي لم تفهمه ديبورا ولكن على الرغم من عدم فهمها سبب توتره فإنها أعطته قبلة تشجيع سريعة في أثناء استماعهما للكلمة الافتتاحية. بدأ إكرام بكلمة عن الاقتصاد الهندي وتلاه مرتضى بكلمة عن التغيرات التي لحقت بقيم الطبقة المتوسطة المصرية منذ ثورة ١٩٥٢ وحتى الآن.

في كلمته شن مرتضى هجومًا عنيفًا على الحكومة المصرية. ولا شك أنه لم يكن يستطيع التفوه بمثل ما قاله في القاهرة؛ فهو ليس رجل سياسة، وهو بالطبع وبالسليقة يشعر بخوف مزمن من سلطة الدولة وسطوتها. أجعله زواجه من ديبورا أكثر ثقة بالمستقبل؟ أأخلّت الصفعة التي تلقاها بجهازه الذهني.. أم أن شعوره بأن السلطة قررت منذ زمن أن تترك الكلاب تنبح كما شاءت ما دام النباح غير مؤثر وغير مسموع من شعب أطرشه الجوع؟ بالعكس فنباح الكلاب الأليفة يعطي إيحاء لطيفا بأجواء محببة داخل حديقة البيت الأبيض مع رؤساء أمريكيين يعشقون الكلاب.

الأمر المؤكد الوحيد في كل ذلك أن مرتضى وبعد أن عاد من الندوة هو وديبورا كان في حالة شبق غير عادية بالنسبة إليه، وضاجع زوجته وكأنه ابن العشرين فظل العرض متواصلًا لعدة ساعات. ثورة وفورة جسدية نادرة الحدوث سوف يظل يتحاكى بها لمدة سنوات. أما ديبورا التي أحبت مرتضى حبًا حقيقيًا كانت سعادتها ورضاها كاملَيْ الأوصاف حتى إنها ظلت مبتسمة في أثناء نومها طوال الليل،

وظلت رائحته الممزوجة بطمي النيل تخرج عرقًا من مسام جسدها لعدة أيام بعد الندوة.

✧ ✧ ✧

كنا جالسين على الكنبة البنية الوثيرة التي اشتريتها الأسبوع الماضي. كان يجلس جلسته الغريبة وقدماه متشابكتيْن تحت مقعده كحكماء الهنود، ظننته أول مرة يمارس اليوجا وبعدها عرفت أنها جلسته المفضلة. ذلك الوضع يجعلني أود أن أضع رأسي على فخذيْه وأنظر إلى وجهه من الأسفل، أضع عيني بالضبط تحت علامة الحسن في ذقنه. أحب أن أراه من قريب. فمن قريب تظهر طيبة ملامحه التي يحاول أن يخفيها دائمًا ليظهر وجه الأستاذ مهيب الطلعة. مددت جسدي على الكنبة ووضعت قدمي على المسند وأسندت رأسي على فخذه. وبدأ هو يداعب خصلات شعري. كان سعيدًا بأنني شقراء. كنت منذ مدة أريد أن أسأله سؤالا واليوم تشجعت:

ـ لماذا تركت بلدك وجئت إلى هنا؟

ـ من أجل أن ألتقي بك.

ـ هذا ما كان يريده الرب. ولكن أنت لماذا أقدمت على هذه الخطوة وأنت تقول دائمًا إنك عاشق لمصر؟

ـ يبدو على المناخ في مصر أنه مستقر سياسيًا ولكن هذا الإيحاء هو استقرار على السطح. ولكن الحقيقة أن البراكين تتحرك تحت الأرض. نستمع في الليل إلى غليان اللاڤا التي تصدر أصواتًا مرعبة

وتستعد للانقضاض علينا. هذا الشعور العام بالخوف من ثورة البركان، أخرج الإنسان المصري من مرحلة التفكير المنطقي، وجعله يعيش حالة فوضى فكرية واجتماعية. وجعلني مثل كل مصري يشعر بالأمان والاستقرار نتيجة لوضعه المالي والاجتماعي، متأكدًا أن شعوري هذا هو محض مصادفة. والمصادفة كما تعلمين لا تدوم. ويمكنني أن أؤكد لك أن هذا الشعور العميق بأنك «في أمان بالمصادفة» هو أكثر الأحاسيس التي تجعل الإنسان فزعا.

أنا لم أستطع تحمل هذا الوضع الذي يدعو إلى الاكتئاب العام.

- أنا يا مرتضى زوجتك ولست بالتأكيد طالبة لديك تعطيها محاضرة في الفلسفة. بالتأكيد هناك قصة وراء خروجك وليس وراءها كلام نظري عن الأوضاع. ما أردت سماعه هو أنك قابلت فلان أو فلانة وقلت لها كلاما فردت بكلام آخر وبعدها قررت السفر. أنت لا تريد أن تحكي وهذا حقك.

- ولأنك زوجتي وحبيبتي أقول لك إنني أريد أن نتكلم عن شيء آخر. أنا أريد أن أحكي لك عن عائلتي. ما رأيك؟

- فكرة رائعة.

✦ ✦ ✦

تردد صوت سعاد العذب في أذن مرتضى. عادت به ذاكرته إلى جلستهما المعتادة عندما قص عليها قصة البراكين والزلازل السياسية. عندها ردت عليه سعاد بصوتها الرائع بأغنية:

كعب الغزال يا متحني بدم الغزال..

أنا شايف الأرض بتتمرجح تحت الخلخال..

ما تبطل تمشي بحنية..

لا يقوم زلزال.

ثم ابتسمت ابتسامتها الرائعة وقالت له بأنوثتها الآسرة التي كانت تجعله يخر ساجدا:

ـ البراكين يا مرتضى تهز الأرض بالفعل عندما ترتج أمام عينيك وأنت تنظر إلى خلخالي.

قالت له أيضا إنها سوف تعتبر كلامه هذا كلام حب في خلخالها الذهبي عندما لهلبت البراكين قلبه ثم مالت عليه وهمست بعذوبة:

ـ أما مصر يا عزيزي فلا براكين فيها وإنما ريح خماسين طالت.

ـ وما الفرق يا سعاد بين ريح خماسين تقتلع اليابسة، وبراكين تزلزل الأرض، وتقتلع أيضًا اليابسة؟

فردت وهي تملس على شعره الخشن الذي ما زال متماسكًا فوق رأسه:

ـ الخماسين يا حبيبي ريح هوجاء سوف تمر كما مرت سابقتها، أما البراكين فهي جزء من الأرض ومصرنا ليس بداخل أرضها إلا بذور وطمي.

✧ ✧ ✧

أين هو الآن من «الكعب المتحني» وهو يستمع مع ديبورا إلى الفصول الأربعة لفيفالدي بقيادة هربرت فون كارايان.

ملَّس مرتضى على شعر ديبورا الأشقر الأملس وتملى في عينيْها الزرقاويْن وقال لنفسه: إنه بالتأكيد لن يحكي لها عن القشة التي قصمت ظهره فهي تخص ظهره وحده.

يحاول مرتضى أن يطرد تلك الحادثة من داخل تلافيف ذاكرته. فبعد وفاة سعاد بنحو عام أطل على الكلية بطلّته البهية المقدم صلاح عبد النبي ليشغل مكتب الأمن الواقع في الدور الأرضي بالكلية. وكان رجلا مبتسمًا دائمًا ينفث كلمات الود والمحبة لكل الأساتذة. أصبح في مدة قليلة وثيق الصلة بعميد الكلية وبوكيل الكلية لشؤون الطلبة، أما الدكتور مرتضى فكان يشغل منصب رئيس قسم فكانت التعاملات بينهما تتم في أضيق الحدود.

وفي صباح يوم ثقيل الظل طرق المقدم باب مكتبه.

ـ يا صباح الفل يا دكتور.

ـ أهلًا .. أهلًا.. صباح النور.

ـ أنا سمعت إن رخصتك اتسحبت النهاردة الصبح.

ـ يا نهار أبيض .. دي لسة مسحوبة من ساعة، الخبر وصل لسعادتك إزاي؟

ـ إنت عارف يا دكتور إحنا بتوع محطة المطار السري.. مفيش حاجة بتستخبى في بلدنا. المهم إديني الوصل قوام علشان أجيب لك الرخصة دلوقتي قبل ما تروح المرور.

ـ وليه بس التعب ده؟

ـ أمال أنا باعمل إيه هنا؟ دول معينني علشان خدمة الدكاترة.

ـ يا سيدي ربنا يخليك .. اتفضل الإيصال أهه.

يختلف المقدم صلاح عن هؤلاء الضباط المنتشرين في كل بقعة من أنحاء مصر، الذين يعذبون ويغتصبون ويقتلون ويحرقون، ويهتكون أعراض كل من تجاسر واقترب من مناطق نفوذهم السياسية أو الاقتصادية أو المالية. فهو ضابط رفيع المستوى، مثقف ثقافة واسعة. يعلم تماما الدور الأمني الذي يتوجب عليه أن يقوم به في الجامعة. يدرك أن الأمن يبدأ وينتهي بالمعلومات، ومدى دقتها وكيفية جمعها ثم تحليلها. ومن ضمن المعلومات المطلوبة التي يجب عليه القيام بها أن يسعى للإمساك بما يدين أي أستاذ في الكلية من غير المتعاونين مع الأمن. بحيث إذا دعت الحاجة إلى أي سبب وفي أي زمن يستطيع إخراجها من درج مكتبه للقضاء عليه. ثم يأتي دور التجنيد للطلبة الجدد وهي مهمة سهلة؛ لأن أغلبهم يتقدمون بأنفسهم لتقديم خدماتهم.

وبعد أن أعاد له الرخصة بنحو شهر، دخل عليه المقدم صلاح مبتسمًا كعادته.

ـ مش معقول لغاية دلوقت ما طلعتش رقم قومي. يا دكتور ده احنا خلاص حنلغي البطاقة القديمة. تسمح لي بس أخلص الموضوع ده.

كان يعلم قبل مجيئه إلى هذه الكلية أن مرتضى لا يمكن أن يقوم بأي دور أمني، ولكنه رجل في حاله. ولكن لم يستطع كبح مشاعره السلبية تجاه هذا الأستاذ، حتى إنه لا يعلم لها سببا دقيقا.

ـ أنا بأكلمك يا دكتور بصفة شخصية تمامًا، أنا باحترمك وباقدرك وعلشان كدة قلت أتكلم معاك في الموضوع ده.

ـ اتفضل.

ـ جاتلي أنا والعميد ووكيل الكلية شكاوى مكتوبة من اكثر من طالب عن سعادتك. مكتوب في الشكاوى إن سيادتك في محاضرة من محاضراتك الأخيرة اتكلمت عن اللغة، وإن القرن العشرين هو قرن فلسفة اللغة وقلت، «كيف ننشغل بالعالم ونحن ندركه من خلال اللغة دون أن ننشغل باللغة ذاتها». وبعدين بديت تتكلم عن أصل اللغة وتطور اللغة وقلت كلام شبه كلام داروين، بس على اللغة. الطلبة محتارين وبيسألوا ليه مفيش أي ذكر في كلامك عن القرآن في موضوع مهم زي اللغة؟.

ـ أنا مش فاهم.. فين الموضوع هنا؟

ـ الطلبة في حالة ثورة من الكلام ده لأن اللغة زي ما سيادتك عارف طبعا دى هبة وإلهام من الله سبحانه وتعالى. أمال إزاي سيادتك تشرح الآية الكريمة: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾ (البقرة: ٣١).

وبعدين بيقولوا في الشكاوي إنك والعياذ بالله ما بتصليش الجمعة لأنك بتدي مواعيد لطلبة الدراسات العليا في بيتك يوم الجمعة الصبح.

تغيرت عضلات وجه الدكتور مرتضى وبزغت من العدم خطوط عرضية زرقاء اللون على جبهته العريضة.

ـ أرجوك ما تفهمنيش غلط، أنا مجرد بادردش مع سيادتك بحب، وبصفة ودية تماما عن شكاوى جات لي فعلًا. ولمعلوماتك دي بقالها كذا سنة بس المرة دي الطلبة مزودنها شوية.

دول يا دكتور كمان باعتين سي دي بصوتك في المحاضرة بتقول الكلام ده.

عملوا للمحاضرة مونتاج، وجابوا لي الـ (سي دي) عليه بس كلامك عن الموضوع ده.

ـ أنا بالتأكيد مش حأنزلق في هوة الدفاع عن النفس.

ـ برضة اتنرفزت يا دكتور. أهو ده اللي كنت خايف منه. أنا مجرد باحكي لك موضوع مالوش قيمة.

ـ ولو الموضوع مالوش قيمة بتحكيه ليه؟ وبتضيع وقتك ووقتي ليه؟ أنا رأيي إن اللي إنت قلته دلوقتي ده إرهاب فكري.

ـ إرهاب إيه يا دكتور. إحنا سايبين الإرهاب لابن لادن. طيب اسمع النكتة دي علشان تروق دمك، مرة واحد بيقولوا له.. مراتك ماشية مع كهربائي الحتة، قال لهم ده ولا كهربائي ولا بيفهم حاجة في الكهرباء.

عاد مرتضى إلى منزله وهو يشعر بغصة في حلقه وبإهانة بالغة تعتصر روحه، دخل غرفة نومه وارتدى البيجامة الكستور ونظر في المرآة وشعر أنه أتم المائة عام.

اتصل بوالده وهو في حالة غم وقال له ما معنى الحياة التي لا يكون فيها الأستاذ مطمئنًا إلى تلميذه؟.

صدمته فكرة أن يتم تسجيل محاضراته وعمل المونتاج لها ثم إرسالها إلى الأمن.

هل كان عليه أن يدافع عن نفسه؟ هل كان عليه أن يقول له إنه يصلي فروضه الخمسة بانتظام قبل أن يولد سيادته؟ هل يجب عليه أن يصور نفسه وهو يصلي الجمعة ويرسل الشريط إلى مكتب وزير الداخلية؟

حاول صلاح عبد النبي إمساك أي معلومة تضر بسمعة الدكتور مرتضى ولكنه لم يستطع إمساك غير قبض الريح. فبدأ يبحث عن الجوانب المادية، فوجده غير مشارك في أي مركز خاص للبحوث داخل الجامعة، وبالتالي لم يحصل على أي تمويل من أي جهة لأي عمل بحثي. استمر في التقصي لفترة طويلة دون جدوى، فبدأ يغضب من نفسه متهمًا إياها بالتقصير في واجباته الأمنية.

لا شك أن لهذا الرجل ثغرة.

في يوم قرر أن يبحث عن طريقته في بيع كتبه الدراسية لطلبته عسى أن يجد شيئًا غير اعتيادي. فالقانع يرضى بقليله. وقد بدأت قصة بحثه عن طريقة بيع الدكتور مرتضى كتبه وملازمه، يوم كان جالسًا في جلسة نميمة مع زملاء له وحكوا قصة طريفة مؤداها أن أستاذًا يبيع كتابه المنشور في دار نشر حكومية، وسعر بيعه في السوق أربعة جنيهات بسعر بيع خمسة وعشرين جنيها وجعل أحد الطلبة يكتب قائمة بأسماء المشترين من الطلبة ويا سواد يومه من يجرؤ على عدم شراء كتابه. الجديد والطريف في هذه القصة أن الكتاب يباع فعلا في الأسواق، وفي العموم فأساتذة الجامعة يبيعون كتبهم الجامعية بالأسعار التي يريدونها في أجواء مافيا حقيقية لكن

على الأقل تلك الكتب لا تباع في الأسواق. ولكنه وجد الدكتور مرتضى يبيع كتبه الدراسية للأسف الشديد بسعر تكلفتها. كانت آخر محاولات صلاح أنه التقى بصديقه شاكر ضابط الآداب بعد أن فاض به الكيل:

- إيه رأيك يا شاكر في دكتور عازب وتخطى الخمسين.

- شاذ أو له علاقة بعاهرات. مضايقك في إيه؟

- كافر ابن كافرة، شفته من يومين بيشرب بيرة في وسط البلد.

- يا نهارك أسود ده زي حالاتي بقى، ما أنا كمان باشرب بيرة.

- ما انت شخص زبالة برضه.. بس الفرق إن ده بيربي أجيال .

- إيه حيكفّر العيال؟

- هو كدة غريب ما تفهملوش.. مش متعاون معانا.. ما حدش بيحبه.. ومكروه من رجالتنا.. وأنا شخصيا قلبي مش مستريح له نهائي.. يعني باختصار لو لشناه ما حدش حيهتم.

- عايزني أعمل له إيه؟

- إنتم بقى بتوع الآداب.. اعرف لنا ميته.. ويا ريت تجيب لنا داغه. زي ما قلت لك أنا مش مستريح له.

استمرت فترة صمت طويلة كان شاكر يلف فيها سيجارة حشيش.

- المصيبة يا شاكر إن الإرهاب الحقيقي بيحاوطنا النهاردة من كل جانب. بيهدد النظام العام وبيهدد قيم بلدنا. والدكتور ده..

بمحاضراته في الفلسفة وبالكلام الخطير اللي بيقول له للطلبة ممكن بالفعل يهدد النظام العام. ودورنا ان احنا نوقف أمثاله عند حدهم.

✦ ✦ ✦

استيقظت صباحًا ولم أجد مرتضى بجانبي، كانت تلك الحادثة الأولى من نوعها منذ زواجنا، سمعت صوته في المطبخ، يبدو أنه يعد الدقائق المتبقية على إقلاع طائرة بريتيش أيرويز المتجهة إلى القاهرة. أنا أيضا أنتظر السفر بلهفة بالغة. فالمتبقي بالضبط على الإقلاع سبعة أيام وخمس ساعات.

لم أسافر من قبل إلى أي دولة خارج أوروبا. فتجدينني أقضي معظم وقتي في المكتبة في قراءة كتب عن مصر وعن العالم العربي. عشقت أحمس وتحتمس الثالث وسيتي الأول ولم أحب على الإطلاق أخناتون ورمسيس الثاني، فكلاهما أسوأ من الآخر، رغب الأول في أن يضم كل الآلهة في إله واحد هو إلهه، ورغب الثاني في أن يضم كل الملوك في ملك واحد هو شخصه. يا لهما من أغبياء محدودي البصر. يرى مرتضى في الأمر غرابة ولكنها العواطف تملي علينا أهواءنا. أصبحت الآن أكثر معرفة منه بالحضارة المصرية القديمة وقد فوجئت أنه لم يزر أبدًا معبد الكرنك أعظم معابد العالم. أما ما يقلقني فهي درجة الحرارة والحشرات. مرتضى قلق هو الآخر ويتساءل عما تغير هناك خلال العامين الماضيين بالإضافة إلى أن ياسين ابن عمه أسر إليه أن أباه في حالة صحية سيئة. انشغل مرتضى في اليومين الماضيين بإعداد قائمة المدعوين في حفل عرسنا الثاني

في بلدته. ولم ينس مرتضى دعوة فريد لتشجيعه على زيارة مصر، ووعده فريد بالمحاولة.

بعدها بأيام قابلت في المكتبة «ميلاني» الأستاذة المساعدة لمادة علم النفس وحكيت لها عن دعوتنا لفريد ولكنها فاجأتني بصعوبة تحقيق هذا الأمر ثم حكت لي قصة مروّعة. فقد شاهد فريد أمه قبل سفره تدخل منزلًا غريبًا مع رجل غريب، وبعد متابعة دقيقة منه تأكد من حقيقة أن أمه تخون والده وتخونه وتخون العائلة. وقد أصبح يرى في عين كل مصري شخصًا من المحتمل أن يكون قد ضاجع أمه. وحكت لي صديقتي ميلاني أنه أكد لها أنه من المستحيل أن يعود مرة أخرى إلى مصر. يا له من شاب مسكين.

لكن المفاجأة المذهلة في تلك الرحلة هي أن ريتشارد قرر أن يأتي معنا. سعادتي لا حدود لها. فأنا في أشد الحاجة إليه في أول زيارة لي في بلد زوجي.

✧ ✧ ✧

جددت الجامعة عقد الدكتور مرتضى لعاميْن جديديْن في اليوم السابق لسفره إلى مصر. لم يبح لزوجته بحالة الرعب التي استولت على روحه خلال الأسابيع السابقة خوفًا من عدم التجديد. كانت ديبورا تستعد للسفر فلم تلحظ تدهور حالته النفسية خلال الأسبوع الأخير قبل السفر. اجتمع مع عائلة زوجته في ليلة سفره، وبعد حضور ريتشارد المتأخر فجرت ديبورا قنبلتها المدوية:

«ذهبت بعد الظهيرة إلى الطبيب وأكد لي أنني حامل».

بكى ريتشارد من الفرحة وتجمد مرتضى من الذهول، وصرخت

أم ديبورا. أما الأب فقد تلقى الخبر بصورة تليق برجل بريطاني، ابتسم ابتسامة لا تكاد ترى، وأشعل سيجارته. أما ديبورا فقد احتضنت زوجها وظلت تضحك وتبكي وهي تنهال عليه بالقبلات.

من الغريب أن مرتضى لم يفكر في طفله أو في نفسه أو حتى في ديبورا وإنما فكر في والده وتساءل هل ينتظر لإبلاغه في الغد وجها لوجه.. أم يتصل به تليفونيًا الآن؟ كان خائفًا من ألا يمهل القدر والده حتى الغد. ولكنه في النهاية قرر أن ينتظر حتى يراه رأىَ العين وهو ينبئه بأمر حفيده. ثم دعا في سره أن يرزقه الله ابنا من أجل والده.

✦ ✦ ✦

التقى المقدمان شاكر وصلاح وأعلن شاكر الخبر لصلاح. ليس شاذًا ولا علاقة له بأي عاهرة، وأكد له أنه بلا شك سلك الطريق الثالث والوحيد وهو ممارسة العادة السرية ولكن للأسف هذه الممارسة لا يعاقب عليها القانون ومن الصعب تصويرها أو إثباتها.

في اليوم التالي دخل صلاح على مكتب الدكتور مرتضى برشاقة ثعبان الكوبرا الهادئ الواثق من قدرته على القتل بخفة وسمو.

ـ والله مش عارف أقول إيه يا دكتور. الطلبة دول متعبين. لكن الأمر المرة دي وصل للعميد ولرئيس الجامعة وأنت يا دكتور باعتبارك صديقي الحميم قلت من واجبي أحذرك.

ـ خير إن شاء الله.

ـ في محاضرة إمبارح قلت كلام كتير في الفلسفة مقلق شوية، اللي أنا فاكره بس دلوقتي من التقرير إنك قلت إن «الحظ هو الشكل العلماني للقدر».

ـ اللي قال الكلام ده «مارسيل أشار» الكاتب الفرنسي الشهير وصاحب المقعد ٢١ في الأكاديمية الفرنسية. وكانت المقولة على لسانه.

ـ بس ده كلام خطير يا دكتور إنت مش عارف الحديث الشريف لما جاء سيدنا جبريل عليه السلام لسيدنا محمد عليه الصلاة والسلام وسأله عن أركان الإيمان الست. إيه همَّ يا دكتور أركان الإيمان؟ «أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله، والبعث بعد الموت، والإيمان بالقدر خيره وشره». يعني الإيمان بالقدر خيره وشره ركن من أركان الإيمان. وسيادتك في المحاضرة يا دكتور بتسخر من القدر وبتتكلم عن الحظ والعلمانية.

ـ أنا الحقيقة مش فاهم إنت بتكلمني بصفتك إيه؟ إنت راجل أمن. بتفتي ليه في التعليم؟ انت فاهم أصلاً يعني إيه مادة الفلسفة اللي أنا أستاذها؟ الكلام اللي إنت قلته ده ولَّا اللي قاله التقرير كلام ناس حافظة ومش فاهمة. أركان الإيمان معروفة للجميع بس إيه علاقتها بالمحاضرة؟ اتفضل اطلع برة.

ـ أنا جي بصفة صديق. لا يمكن أعمل كدة مع أي أستاذ تاني وأنا مالي. ما العميد حيكلمه. لكن إنت أنا بأحبك وأقدرك. قلت أحكي لك علشان تبقى معايا في الصورة وأقول لك على التقرير اللي طلع للعميد.

ـ إنت عارف إنتم بتعملوا إيه في الطلبة دول؟ عارف بتعمل إيه في نفسيته؟ إنه يكتب تقرير لضابط أمن دولة في زميل له أو في أستاذ. أو إنه يسجل شرائط صوت لصالحكم. إنتم بتخربوه من جوه. وبعدين الولد ده تصمموا تعينوه معيد بعد ما لغيتم الإعلانات لتعيين المعيدين وبقت كل التعيينات بالتكليف. ويستمر الطالب البائس يلعب دوره القذر بعد ما يتعين ويتشوه نفسيا أكثر وأكثر، وبعدين تسفروه بعثة في أحسن حتة. ويرجع علشان يكمل في الجامعة طبعا مش دوره التعليمي وإنما دوره الأمني، واللي ترضوا عنه يتعين في الحكومة أو يبقى عميد ورئيس جامعة ويصبح ميت في شكل حي. وفي الآخر تعينوه وزير. ما هو دلوقتي الوزراء عندنا يا ميتين يا رجال أعمال. الحال لخصه «أحمد مطر» في بيتين شعر: «ليس في الناس أمان.. ليس للناس أمان.. نصفهم يعمل شرطيًا لدى الحاكم.. والنصف مُدان».

ـ اللي بتقوله ده يا دكتور كلام خطير.. كلام ما يصحش واحد في ثقافتك وفي مركزك يقوله.

ـ خطير إيه وبتاع إيه. انت عارف إيه هو الكلام الخطير يا رجل الأمن؟ الخطير إن مصر هي أقل دول العالم إنفاقا على البحث العلمي. تتصور إن إحنا في ديل العالم كله. مصر بتنفق على البحث العلمي نسبة لا تتجاوز الـ ٢ ٠, ٠٪ من إجمالي الناتج القومي في حين أن الدول النامية بتنفق على البحث العلمي ١٪ من إجمالي ناتجها المحلي يعني إحنا بنصرف خمسهم في موضوع بالخطورة دي. أما الدول المتقدمة بتنفق مش أقل من ٢٪. وانت هنا عمال تمنع ندوة ولا مؤتمر ولا تشطب اسم عيل في الانتخابات. وتأجر

بلطجية لضرب الطلبة اللي مش عاجبينكم. الخطير إنك قاعد ليل نهار هنا في الكلية لا شغلة ولا مشغلة بجد.. وفيه إعلان نشر في صحيفة «الوسيط» مكتوب فيه: «أستاذ جامعي يقوم بعمل رسائل الماجستير والدكتوراه للباحثين بأي جامعة بسعر مغرٍ جدا مع شرحها وتوضيحها للباحث قبل مناقشة الرسالة. اتّصل على تليفون كذا كذا». سامع رسائل تفصيل في إعلانات رسمية، وإدارة الجامعة باللي فيها من مباحث أمن الدولة في عالم تاني. طبعا كل ده مالوش أي قيمة بالنسبة لكم وإلا لما تجاسر حقير إنه ينزل إعلان في الجرائد وبرقم تليفونه.. كده جهارا نهارا. خليك قاعد لغاية ما تقعدوا على تلها. ولا أقول لك ما تقعدش اطلع برة.

✦ ✦ ✦

ما حدث بعد ذلك بأيام قليلة أمر مسحه الدكتور مرتضى من شريط ذكرياته. فقد دخل الدكتور الجامعة كعادته في ذلك اليوم في الساعة العاشرة والنصف صباحًا وركن سيارته بجانب الكلية. اقترب منه عسكري طالبًا أن يغير مكان سيارته؛ فهذا المكان محجوز للباشا. والباشا هنا يعني الضابط بالطبع. فلما رفض الدكتور مرتضى تغيير مكان ركن سيارته. منعه العسكري من التقدم وبدأ في دفعه ناحية سيارته لإجباره على الدخول فيها. وانتهت المشادة بحضور عسكري آخر وتم ضرب الدكتور مرتضى وصفعه جهارًا نهارًا أمام طلبته.

ياسين البارودي

كانت ليلة صيف تبسمت بنسيم مسك فائح آتٍ من الشمال البعيد لينثر الطيب في قلب أب انتظر تلك اللحظة لعقود طويلة. عاد الحاج «علي البارودي» في هذه الليلة شابًا وهو يرقص بالعصا أمام بكريه وهو في الكوشة وبجانبه جلست ديبورا. ارتدى مرتضى سترة بريطانية وربطة عنق إيطالية، وارتدت ديبورا جلابية فلاحي مطرزة بالترتر.

كانت ضحكات مرتضى هذه المرة هي التي تجلجل في المكان وهو يحتضن كل دقيقة أحد أفراد عائلته التي لا نهاية لعددها، أما ديبورا فكانت تتابع المشهد بعينيْن مبهورتيْن وتتساءل: هل من الممكن أن يمتلك شخص كل ذلك العدد من أبناء العم وأبناء الخال؟

صمم الحاج على البارودي أن يقيم فرحًا وكأن الليلة دخلة مرتضى على ديبورا. امتلأت الحديقة الكبيرة أمام دوار العمدة بالأهل والأحباب، وانتصبت خيمة عملاقة من قماش الخيامية الأصلي في كل ركن من الحديقة لاستقبال طابور لا ينقطع من الصواني. دعا العمدة كل أهالي القرية والأصدقاء من دمنهور

والإسكندرية والقاهرة. وأحضر فرق الغوازي وفي ختام الليلة مسْك الحفل المطرب الشهير حسنى دياب أشهر مطربي دمنهور.

بدأت الموسيقى وهبطت الغوازي السلالم و هن يرتعشن كالببغاوات المبلولات بملابسهن الملونة وهن يصدرن شخللة مثيرة من الصاجات المثبتة في أجسادهن الممتلئة، ونقر المطبلاتي.

امتدت صواني الأرز باللحم الضأني وصواني البط المحمر مع طواجن الأرز بالفريك وصواني الإوز وطواجن الخضار بلحم مربعات الكندوز وصوانٍ أخرى تحمل أصنافا من المأكولات لا عد لها.

عينا ريتشارد ظلتا مفتوحتيْن وهما يتشربان كالإسفنج كل ما حوله بحس هذا الفنان التشكيلي الذي ينمو بداخله منذ أن وعى على الدنيا. ظل يتحرك بالكاميرا الفيديو في كل مكان وهو ينعي حظه أنه أتى بكاميرته الـ «دي في كام» القديمة ولم يحضر الـ «إتش دي» التي كان قد اشتراها حديثا. كان منبهرًا بما يراه. لكم صدمته هو وأخته مظاهر القذارة والفقر المدقع التي تحيط بالبلدة، والآن لا يفهم كل مظاهر البذخ البادية على أنواع المأكولات التي يراها في الفرح.

«في الأمر سر».

ولكن سره هو الذي كان سيخرج إلى بارئه، عندما بدأت عملية إطلاق النيران من بنادق قديمة تعود إلى الحرب العالمية الثانية. فقد ارتعب ريتشارد وسقط على الأرض خوفا من أن تصيبه طلقة. وضحك ياسين ملء شدقيْه على منظر ريتشارد وهو يلملم نفسه ليقف من جديد. جزعت ديبورا هي الأخرى وأمسكت بيد زوجها،

الذي كان في هذه اللحظة ينظر إلى أبيه بفرحة حقيقية وهو يصول ويجول بقوته التي عهدها فيه دائمًا وكأنه قائد يتفقد جيشه. وقد تعهد أبوه أن يكون الاحتفال هو الأكبر في القرية منذ الحفل الذي أقامه والده في المكان نفسه عند زيارة النحاس باشا لمنزلهم منذ أكثر من نصف قرن.

قال مرتضى لنفسه:

«اليوم قابلت السعادة وجهًا لوجه ولكن هذا اللقاء لم يكن كفيلًا بأن يجعلني سعيدًا».

✧ ✧ ✧

مرتضى فيه حاجة متغيرة. مش عارف إيه؟

هل الجواز من خواجاية بيخلي الواحد بارد.

شكله موجود معانا ومش موجود. ولَّا مش مصدق إنه حيبقى أب، وهو داخل على الستين. ولَّا كل ده خيالات في دماغي من قلقي إنه ما يقدرش يساعدني.

أنا خايف يسافر قبل ما أفاتحه في موضوعي. هو بصراحة كدة لازم برضه يساعدني.

أيوة طبعا مش ابن عمي الكبير، ولازم أحكي له على اللي حصل لي.

احتمال قلبه يحن. حاكلمه بكرة بعد صلاة الظهر.

✧ ✧ ✧

ينتوي ياسين أن يحكي لمرتضى في الغد ما حدث له، وما حدث لياسين يجعل الرأس يشيب، ويجعل الشعيرات القصيرة البازغة من مسام الجسد تنتصب. قد يكونون قلة في العالم الذين اختبروا بما اختبره هذا الرجل خلال عام ٢٠٠٥.

بدأت أحداث هذه القصة في يوم الجمعة ١٥ من أكتوبر عام ٢٠٠٤ في الساعة السادسة صباحا حين التقى ياسين ومجموعة من أهل القرية بعبد الحليم وجابر أبناء خالة ياسين لتوديعهما قبل رحيلهما وخروجهما من مصر. اصطحبوهما حتى موقف إيتاي البارود الذي كان خاليًا تمامًا من المسافرين كعادة صباح أيام الجمع. وكان الجميع على علم بكافة تفاصيل التحضير للسفر منذ لقاء عبد الحليم وجابر بأحمد أبو سلامة سمسار التهريب لإيطاليا قبل ذلك التاريخ بنحو أربعة أشهر في مقهى في دمنهور حيث تم الاتفاق بينهم أن يدفع كل منهما للسمسار مبلغ أربعة عشر ألف جنيه، نصف المبلغ قبل السفر والنصف الثاني لحظة دخولهما المركب المتجه إلى إيطاليا من ليبيا. وقد استطاعا عن طريق سلفة من بنك التنمية والائتمان الزراعي تدبير المبلغ المطلوب.

مرت الأيام والأسابيع و أهالي القرية ينتظرون أي خبر عن عبد الحليم وجابر حتى تلقى ياسين أخيرا المكالمة الهاتفية التي ينتظرها الجميع في ظهيرة الأول من يناير عام ٢٠٠٥ . كان المتحدث هو عبد الحليم. حكى له أنهما وصلا إلى طرابلس سالمَيْن بعد يومَيْن من السفر البري. ثم انتقلا إلى الإقامة في مدينة ليبية غرب طرابلس مع عشرات آخرين، وطالت الإقامة لمدة عشرة أيام، وأخيرا دخل عليهم أبو سلامة وطلب من الجميع تمزيق جوازات سفرهم واصطحبهم مع ضابط ليبي إلى ميناء صغير وهناك ركبوا مركبًا متهالكا في اتجاه

إيطاليا. وقبل الأراضي الإيطالية ببضع مئات من الأمتار تم إلقاؤهم في البحر بعوامات وهناك التقطهم رجال الصليب الأحمر. ادعوا كما شرحوا لهم أنهم عراقيون هاربون من نير الحرب. واستطاعوا في النهاية تبعا للخطة الموضوعة الهروب من الصليب الأحمر والدخول إلى إيطاليا. وهما الآن في مدينة نابولي ويعملان ورديتين في اليوم في مطعم بيتزا، تبدأ الوردية الأولى من التاسعة صباحًا حتى الثالثة ظهرًا ثم راحة ساعتين وبعدها يستأنفان العمل من الخامسة بعد الظهيرة وحتى الثانية عشرة مساء، سأله ياسين عن الأهم. فأجاب عبد الحليم أن كل واحد فيهما يقبض على ستين يورو كاملة يوميًا في يديه، وأنهم يعيشون مع ثمانية مصريين آخرين كلهم من الزقازيق.

✧ ✧ ✧

أنا قفلت التليفون من هنا وعقلي وج.

ستين يورووووو

يعني حوالي خمسمائة جنيه في اليوم.

يعني بيكسبوا في اليوم الواحد قد مرتبي في شهرين، يعني حيكسبوا السنة دي قد اللي أنا ممكن أكسبه في أكثر من ستين سنة. يعني حيكسبوا في أربع سنين اللي أنا ممكن أكسبه في ميتين وأربعين سنة.

لازم أسافر دلوقتي.

✧ ✧ ✧

ياسين البارودي من مواليد ١٩٦٤، تخرج في كلية الآداب جامعة الإسكندرية عام ١٩٨٧. وقبل الاحتفال بمرور عشر سنوات كاملة على تخرجه تم أخيرا تعيينه عام ١٩٩٦ بوسائط لا يعلم عددها إلا الله أستاذا لمادة المواد الاجتماعية في مدرسة الشهيد أحمد مبروك الإعدادية بمرتب مائة وأربعة جنيهات مصرية لا غير، وفي نهاية عام ٢٠٠٤ وبعد أن أتم الأربعين ربيعا وصل مرتبه إلى مائتين وستين جنيها.

تزوج ياسين من عائشة بعد تعيينه بشهر واحد ورزقهما الله بالحسن والحسين ثم جاءت زينب مسك الختام.

عائشة بالإضافة إلى كونها زوجة رائعة، أثبتت أنها طباخة ماهرة فقد استطاعت خلال شهر واحد من زواجهما أن تزغط البطة وتضيف خمسة عشر كيلوجرامًا إلى وزن ياسين بمعدل نصف كيلو في اليوم الواحد حتى أصبح وزنه مائة وأربعة كيلوجرامات وكانا يتضاحكان على أن مرتبه يوازى جنيهًا واحدًا لكل كيلوجرام واحد من وزنه، ووعدته أن تجعله ثلاثمائة كيلوجرام خلال شهرين على أمل أن يزيد مرتبه بالمعدل نفسه ولكن بمجرد تشريف الأبناء أعاد وزنه إلى وزن الثمانين كيلوجرام المعتاد.

لدى ياسين أربعة إخوة ذكور، اختفى الأول في العراق وانقطعت أخباره منذ سقوط بغداد في الخامسة من فجر الخميس ٢٠ من مارس ٢٠٠٣ على أيدي القوات الأمريكية ولا يعرف مصيره إلا الله، ويعمل الثاني محاسبا في دولة الإمارات، أما الثالث وهو عبد الله وهو الصديق الصدوق لياسين فلم يسافر ولم يتزوج بسبب

إصابته بمرض شلل الأطفال. وقد فتك الفشل الكلوي بمحب آخر العنقود ومات في عام ٢٠٠٠ وترك ابنة وحيدة ورفضت ياسمين زوجته أن تتزوج من بعده.

اشترك الإخوة الخمسة منذ عام ١٩٩٢ في عمل مزرعة دواجن كان المسئول الأول عن إدارتها رسميًا هو عبد الله باعتباره الأخ الأكبر وكان يساعده محب الدينامو الحقيقي، وشهدت المزرعة سنوات رواج ولكن منذ عام ٢٠٠١ بدأت الخسائر تتوالى من ناحية بسبب عنف المنافسة وقسوتها من شركات دخلت السوق بمنطق احتكاري، ومن ناحية أخرى لافتقادهم عقلية محب الجبارة التي كانت السبب الحقيقي في نجاح المشروع، ولم يستطعوا إيقاف النزيف إلا بقرار إغلاقها في ديسمبر عام ٢٠٠٤.

جاء قرار الإغلاق مريعًا على الوالد الذي أصبح هو المتكفل الوحيد بعائلة ابنه المختفي في العراق وبعائلة المرحوم محب وعبد الله بسبب إعاقته، ولم يكن إيراد الأحد عشر فدانًا التي يمتلكها كافيًا لكل تلك المصروفات بعد أن باع ما باع من أفدنة لعلاج ابنه محب.

تكمن المفارقة الحقيقية في أن «ياسين» يعتبر نفسه من كبار رجال البلد، فجده كان عمدة البلد، وعمه العمدة الحالي، ومن ورائهما سلسال من العمد يمتد إلى أزمنة سحيقة. ولكن جده كان رجلًا شديد الخصوبة فجاء إلى الدنيا بعشرة أبناء من ذكور وإناث وتشرذمت الأرض على الأبناء والأحفاد. وأصبح الجميع بتغير

الأحوال وانخفاض قيمة المردود من العملية الزراعية في حالة عوز وفقر مدقع.

✧ ✧ ✧

إحنا بنزرع قطن من زمن. القطن بقى له على الأقل ١٥ سنة سعره ما بيغطيش التكلفة، سنة ١٩٩٧ مثلا القطن ماجابش نصف تكلفته، أيوة.. لما الحكومة رفعت سعر السولار، حاولنا نمتنع ومنعنا العربيات واللواري إنها تتحرك، لموا السواقين في الأقسام واتلبوا تمام التمام، وخرجوا من القسم على المحطة عدل عشان يشتروا السولار كانوا يا عيني مستعدين حتى يشربوه بالهناء والشفاء. المصيبة كمان إن البذرة الأصلية بتاعة القطن المصري، يعني السلالة المصرية مابقتش موجودة نهائي، راحت لإسرائيل ولجنوب إفريقيا، البذرة اللي الحكومة بتجيبها لنا النهاردة مختلفة خالص. دول جابوا لنا مرة بذرة طويلة التيلة، وبعد ما زرعناها قالوا لنا إنها مش مطلوبة في السوق العالمي ورفضوا يشتروها من الفلاح.. طب وإحنا مالنا؟

ما الحكومة تتحمل غلطها مش هي اللي جابتها لنا.

قنطار القطن في الخمسينيات والستينيات كان بيصفّي ٤٠ جنيه، وسعر الفدان كان بـ ١٠٠ جنيه، يعني محصول الفدان كان يشتري ٢ فدان!! جدي الله يرحمه ويرحم زمنه كان يستنى محصول القطن علشان يجوز ابنه، دلوقتي بنستنى محصول القطن علشان اللي عاوز يطلق ويخلص.

✧ ✧ ✧

فكّر ياسين في السفر أكثر من مرة خلال السنوات الماضية وحاول الحصول على تأشيرة إيطاليا، وبعدها بسنوات على تأشيرة فرنسا، ومن بعدها اليونان ولكنه فشل في كل مرة في الحصول على التأشيرة. كانت مطالب القنصليات لا تمت لعالمه بأية صلة. وجاء الاتصال الهاتفي الذي تلقاه من أبناء خاله كطوق نجاة لحالته المالية الميئوس منها وقرر من فوره الاتصال بأحمد أبو سلامة لتحديد لقاء بينهما، وبالفعل تم تحديد موعد يوم الجمعة التالي ٧ من يناير في مقهى المسيري بدمنهور.

✦ ✦ ✦

ما اعرفش أنا إزاي الراجل جوزي ده قدر في يومين اثنين يكلم كل واحد في البلد ويحكي لهم إنه خلاص رايح يقابل السمسار الجمعة الجاية، واتفق كمان مع شاكر وصادق إنهم حيطلعوا معاه. سألني النهاردة بعد الغذاء إذا كنت حانبسط ولّا لأ لو سافر؟ ما عرفتش أرد عليه وأقول له إيه. خفت لو رديت كدة ولا كدة يزعل. سكت ودخلت المطبخ. بس أنا بصراحة حابقى سعيدة لو يسافر قبل ما العيال يكبروا ويبقوا محتاجين له.

بالليل على كباية الشاي قال لي إنه نوى وخلاص. اتفقت معاه إنه ما يزودش عن خمس سنين، كفاية قوي. رحت أجيب له العشاء وبعد ما أكل كل الخس الموجود في البيت ولقيت رقبته بتطول وهو بيكلمني لدرجة إني خفت يتحول زلحفة، سألني:

ـ هي يا عائشة لازم تتحسب بالمدة ولا بالتحويشة؟ مش الصح الواحد يرجع لما يحوش مبلغ نتفق عليه من دلوقتي. إنتي عايزاني أرجع لك بكام يا عائشة؟

ما رديتش عليه ساعتها.. بس السؤال ما نيمنيش طول الليل.

✧ ✧ ✧

أسعد القرار النهائي بالسفر الذي اتخذه ياسين الجميع عدا ياسمين أرملة محب الذي وقع عليها الخبر كالصاعقة. فبعد مرور أكثر من أربع سنوات على وفاة زوجها، كانت تنتوي مفاتحة حماها في فكرة تزويجها من ياسين. لم تكن قد تعدت السابعة والعشرين من عمرها وخلال العامين الماضيين حاولت حماتها أكثر من مرة مفاتحتها في أمر الزواج فمن غير المنطقي أن تظل طوال حياتها بلا زوج. رفضت ياسمين بحدة وأعلنت أنها لا يمكن أن تقبل فكرة أن تنشأ ابنتها مع غريب.

كانت على مدار تلك السنوات قد فكرت وقررت أن عم ابنتها هو الأولى بتربيتها من غيره. بالتأكيد ليس من الضروري ذكر ما هو بديهي في هذه الحالة، فياسمين تستلطف وتستملح «ياسين» ولا ترى رجلا غيره يدب على الأرض. قدمت له السبت والثلاثاء وكل أيام الأسبوع ولكنه لم يجد الجرأة أو الرغبة في أن يلاقيها ليلة جمعة. تعبت من الوحدة وجاء قرار سفره كالصاعقة على رأسها.

هل عليها مفاتحة حماها ويحدث ما يحدث؟

ولكن حتى لو وافق فيا فرحتها بزوج آخر غير موجود.

كانت ياسمين منذ وفاة محب تعيش مع حماها وحماتها وأصبحت بالتدريج نتيجة لتقدم سن حماتها تقوم بكل أعمال المنزل وتتحمل ما لا طاقة لها به من متاعب سن الشيخوخة الذي أصاب أهل البيت بعد اختفاء البكري وآخر العنقود.

وبعد تفكير طال، قررت ياسمين أن تفاتح «ياسين» نفسه في الموضوع، وحددت الموعد بعد ظهيرة الأربعاء ليكون قبل التجمع الذي اتفق عليه ياسين مع جميع من يريد الذهاب معه لمقابلة السمسار.

✧ ✧ ✧

قابلت ياسين على المغربية، كان خارج من الغيط وهو لابس جلابية بيضاء منور بيها السما.. ولا البدر في زمانه، قرّبت منه غصب عني وبصيت حواليا ما لقيتش حد. لزقت في بدنه، حسيت بالصهد وكأن جسمي بقة جمرة نار، زقيته بحنية على تل القش اللي في ريح البوابة. ووقّعت نفسي على القش قال يعني اتكعبلت وشديت إيده علشان يقع بثقله على جتتي العطشانة. شفت بعيني الدخان طالع من جسمي في لحظة ما بقينا واحد. لكنه فطّ وقام وجري على البوابة.

✧ ✧ ✧

ياسمين فلقة قمر، جمعت في جسدها أجمل ما في أعراق الأرض، وجهها فردوس، نهدها قدَّ من رخام أبيض، قوامها في رشاقة لبؤة هندية، بارزة الأرداف كغزالة إفريقية وكأنها على

استعداد دائم لملاقاة الحبيب وسط صرخات القردة العليا. أما ياسين فهو الآخر طول وعرض وشموخ وجمال.. يمكنه وبكل سهولة أن يكون بطل قصيدة الأطلال التي غنتها أم كلثوم عندما تقول: «أين من عيني حبيب ساحر.. فيه عز وجلال وحياء .. واثق الخطوة يمشي ملكًا.. ظالم الحسن شجي الكبرياء.. ». ولم يكن يفرقهما غير حرف الميم.

- انت عارف يا ياسين إن انا لقيت نفسي النهاردة باقول ياسين وياسمين.. ياسمين وياسين واكتشفت ان الاسمين لايقين على بعض قوي. قلهم كدة.

- العواف يا ياسمين

- بص يا ابن الناس الطيبين. أنا باعرض عليك دلوقتي إنك تتجوزني. وأنا راضية اني أكون زوجة تانية وعائشة هي ست الكل.

- عايزاني أتجوزك يا ياسمين؟

- يا ياسين مفيش ست ترضى على نفسها اللي أنا باعمله ده. بس كله علشان بنتي. انت فاكر إني بافكّر في نفسي؟ لا وعزة جلال الله. أنا بافكر في بنتي وبس.

- أنا مسافر يا بنت الناس وبعد ما أرجع يبقى يحلها الحلال.

✦ ✦ ✦

في ساحة رملية واسعة مطلة في جانب منها على ترعة ومن الناحية المقابلة على حارة طويلة متعرجة اصطفت على جانبيْها

منازل بائسة. تجمع في وسط الساحة مساء الأربعاء عدد كبير من أبناء القرية في مقهى فلوحة. بدأ الحوار بالتعليق على مباراة إنبي والزمالك التي انتهت بالتعادل ١ـ١ . وتطور الحديث إلى كيفية الخروج من مصر بعد أن مل الجميع حالة التعادل الدائم في كل شيء. أعلن كل الشباب الحاضر دون استثناء رغبته في السفر وبدأ الكلام الجاد: السعر؟ وكيفية الدفع؟ والأهم من كل ذلك من أين سيحصلون على الأموال اللازمة للسفر؟ وإذا بالشيخ صالح وهو رجل في الستين من العمر ذو صوت رخيم وأداء إذاعي يتدخل في الحديث:

احنا طبعا سمعنا كلام كثير النهاردة. لكن ما حدش قال كلمة حق واحدة.

الحقيقة معروفة للجميع لكن ماحدش عايز يقولها. أنا أقول لكم الحقيقة في وشكم.

اللي بيختار الطريق ده في السفر بيتهان، اللي سبقوكم اتعاملوا معاملة سيئة، وهناك في ليبيا المعاملة بتبقى أسوأ. الشباب بيقعدوا في أودة لا حد بيشوفهم ولا بيشوفوا حد كأنهم مساجين في سجن عذاب، لغاية ما ييجي ميعاد السفر اللي بيحدده شوية نَوَر على لصوص، مافيا بحق وحقيقي. سمعنا وسمعتم انتم كمان إن السماسرة في ليبيا بيكونوا واقفين لشبابنا بالسلاح وسمعنا إن واحد من الركاب لما شاف البحر عالي وخاف يركب المركب انضرب زي الحرمة، وركبوه المركب مرغم. الكل عارف إن الطريق ده طريق موت.. سامعين، طريق موت. مع ذلك كل الأهالي النهاردة

ناوية تجازف بأولادها وناوية ترهن أراضيها. أهاليكم للأسف حيستلفوا من بنك القرية وحيبيعوا الأرض ولَّا الجاموسة الحيلة علشان يسفّروكم.. إنتم عارفين كويس إن المركب اللي بيسافر ما يتحملش أكثر من ٢٠ فرد وبيحملوه فوق الخمسين.. عارفين إيه اللي ممكن يحصل؟ أنا بأقول لكم بعلو صوتي إن الشباب اللي حيسافر بالطريق ده مفقود. مفقود.

رَكَن الشيخ صالح صوت الوعيد وأخرج طبقة حنونًا من حنجرته الثرية:

يا أولاد لازم تعرفوا إن الله رزاق وهو عليم بالحال.

انتهى الاجتماع باتفاق كل الحاضرين من الشباب على الذهاب يوم الجمعة إلى السمسار أحمد أبو سلامة مع ياسين وكان عددهم أربعة وعشرين شابًا. وعاد الشيخ صالح إلى منزله محطم الفؤاد.

✦ ✦ ✦

صليت الجمعة ورحت رايح على قهوة المسيري علشان أقابل ياسين وإسماعيل وقلت أعرَّفهم على بعض ونقعد لنا ساعة أشرح لهم المطلوب. لقيت لك فوق الأربعين واحد مستنيني. ملوا القهوة، والشارع والحتة. كان شوية منهم قاعدين على الرصيف الناحية الثانية، وشوية على براميل كانت مرمية في الشارع، احتلال كامل للمنطقة.

أنا قلقت يبقى فيها شبهة تظاهر وأروح أنا في سين وجيم. ربنا يستر. وأنا كمان ما باحبش أبدا أكلم الزباين في مجموعات كبيرة ولكن ما باليد حيلة.

تعرفت عليهم، شباب من نكلا العنب ومن إشليمة ومن النبيرة ومن جبارس والسوالم بحرى والسوالم قبلى ودميسنا وكفر عوانة وأمليط. كل واحد منهم جابلي جيش عرمرم. ممكن والله الواحد يدخل بيهم حرب. بدوا يعرفوني على الرجالة، أول واحد سلمت عليه خلع ذراعي ما عرفتش أسلم على حد بعده، كان تلح.. طول بعرض اسمه طه وجنبه كان قاعد الطوخي. وأنا باتكلم عيني ما نزلتش من على وحش اسمه زقزوقة قلت له يروح يلعب ملاكمة أحسن له، ومعاهم عرفوني على محمد شندي وعبده الخراط وشاكر وعليوه الفحل وسمحمح وبياضة. مجموعة مالهاش حل. خير واتحدف عليَّ. خير له طعم المنجة بعد ما المنافسة بقيت على أشُدها اليومين دول، نحمده ونشكره.

قلت لهم يجهزوا بازابورتاتهم وشهادة الخدمة العسكرية، وإن كل المطلوب خمسة عشر ألف جنيه.. عشرة دلوقتي وخمسة لما تكلموا أهاليكم قبل ما تطلعوا المركب وتطمنوهم إن كل شيء تمام. واتفقنا نلتقي في نفس المكان يوم الجمعة برضه بعد شهر بالتمام علشان أعرف العدد النهائي اللي مسافر. واتفقوا إنهم عايزين يسافروا في الصيف علشان الجو يبقى هادي والبحر مواتي ومش عالي ويلحقوا يحضَّروا المعلوم.

✧ ✧ ✧

اختلى أبو سلامة بياسين وإسماعيل داخل المقهى وهو على علم بأن ما سيقوله لهم سوف يصل بالتفصيلِ إلى كل الحاضرين. كان السمسار يريد أن يطمئنهم أن هناك حلولا جديدة ومبتكرة في حالة عدم توافر الإمكانات المادية المطلوبة للخروج من مصر.

ـ طبعا انتم ناس مية مية وزي الفل.. والنهاردة فيه بينّا عيش وملح وعلشان كدة أنا عايز أساعد، وما أبخلش عليكم باللي أنا عارفه بأمر الله.

ـ خير يا أبو سلامة.

ـ صلّوا على النبي.

ـ عليه الصلاة والسلام.

ـ شوفوا يا رجالة.. وربنا يزيدكم من نعيمه. بالنسبة للناس اللي ما عندهاش ولا مؤاخذة إمكانية. فيه النهاردة مشتشفى محتاجة لناس تتبرع بالكلى علشان مرضى والعياذ بالله حيموتوا من غير العملية دي. والمستشفى بيدفع مصاريف السفر كلها.

ـ إنت يا بني سمسار ولا جزار.. الله يخرب بيتك.

ـ وليه الغلط ده يا إسماعيل.. الجزارين دول هما السماسرة ولاد الكلب اللي بيطلبوا علشان يجيبوا تأشيرة لأوربا إنهم يعملوا كشف طبي كامل وفي الكشف بيسرقوا اللي هما عايزين يسرقوه.. إنتم ما بتقروش جرايد ولّا إيه. إنما أنا بأشتغل بما يرضي الله. بأشتغل في النور. إحنا علينا إننا نقول وكل واحد ينام على الجنب اللي يريحه.

ـ ما اللي حيشيل كلية مش حيعرف ينام إلا على جنب واحد.

يضحك ياسين على نكتته على الرغم من أن أبو سلامة وإسماعيل لم يفهماها.

ـ اللي حيسافر حيعرف بعد كام سنة ياخد إقامة وبعدها الجنسية والرعاية الصحية هناك ما أقولكمش عليها. ممكن يركبوا له بدل الكلى خمسة. عيشة تانية يا جدعان.

ـ طيب أي واحد ممكن يتبرع؟

ـ طبعا لأ. بيبقى فيه تحاليل وكشف وحركات وفي الآخر بيقولوا ينفع يتبرع ولّا لأ.

ـ والحركات دي إحنا اللي بنكعها.

ـ طبعا لأ.. دي كدة تبقى نصباية مش تبرعاية. كل الحاجات دي بلوشي. لدرجة إن أنا بأفكر أقول لهم حاتبرع. علشان يعملوا لي كشف كامل على حسابهم، علشان أطمّن برضه على المكنة وبعد كدة أقول لهم ما عطلكوش.

ـ يا نهارك أبيض مالها المكنة، مش برضه شغالة.

ـ والله يا ياسين مخستكة شوية اليومين دول.. الوضع بقى محرج شوية.. السستة خلاص جابت زيت.

ـ كلنا في الهوا سوا

خلاص يا «رجالة»، إن شاء الله أول جمعة في الشهر الجاي.

✧ ✧ ✧

كانت المفاجأة هي حضور وهدان ابن الشيخ صالح مقهى المسيري، فمنذ تخرجه في المعهد التجاري لم يجد عملاً وقرر بعد سنوات من البحث عن عمل أن يقيم مشروعا. وبعد تفكير وتمحيص، خرج ببعض الاقتراحات التي رفضها كلها والده وانتهى الأمر إلى أنه رضخ لمطلب والده أن يبني برجًا للحمام يكون إيراده كله له.

استثمر الشيخ صالح كل ما كان يملكه وما استطاع بشق النفس أن يقترضه. كان لا بد أن يجمع مبلغ خمسة عشر ألف جنيه. ثلاثة عشر ألفًا لبناء البرج الذي كان يسع خمسة آلاف قادوس، وألفان آخران لفراخ الحمام. كان برجًا عملاقًا بالسلم الخشبي الداخلي للوصول إلى كل القواديس وتم وضع السيراميك الأملس حول جسد البرج من الخارج بارتفاع مترين لمنع الثعابين والفئران من التسلق، كما تمت العناية الفائقة بمواصفات الباب الحديدي.

أنهى وهدان بناء البرج منذ حوالي خمسة أعوام واحتفاء بهذا الحدث السعيد تزوج من ابنة خالته هنية. وعلى مدار تلك السنوات الخمس لم يرزقهما الله بذرية ولم يرزقه الله كذلك من برج الحمام بشيء يذكر لحكمة إلهية لا يعلمها إلا هو. ففي العام الأول، استطاعت بومة التسلل إلى البرج، وفي العام الثالث ضرب مرض لعين عددًا كبيرًا من الحمام. أما هذا العام فقد بدأ بداية عظيمة وكان التكاثر المأمول يسير بخطوات حسنة، وفجأة وقبل جنى الأرباح بفترة نزلت سلسلة من الأمراض كطائر الرخ على البرج أطاحت بثروته الحيوانية كلها بضربة ضارية ترنح وهدان بعدها ولم يستطع منذ ذلك الحين الوقوف ثابتا. كنت تجده يدخل البرج وحده ويغلق

عليه الباب ويجلس بالساعات يبكي أيامه ولياليه، وفي أحيان أخرى كان يبحث عن بومة في مخبأ علوي يسمع بخياله ضربات أجنحتها حتى كاد أن يجن. كان يصعد السلم ويبحث بيديْه داخل كل قادوس من خمسة الآلاف بالبرج عن البومة. كان أحيانًا يسمع صوتها فيصرخ فيها: «اخرجي يا بنت الكلب، أنا حألاقيكي حتى لو لبستي طاقية الإخفاء». وفي نهاية فشله في القبض عليها يجلس في وسط البرج يلهث كالثور الهائج.

قرر وهدان أن حله الوحيد هو السفر وليفعل كما فعل الآخرون، أما الغرق الذي يتحدث عنه أبوه فيا ليته يعلم أنه غرقان بلا بحر وبلا أمواج. غرقان داخل برجه ينتظر أن تلتهمه البومة اللعينة. وسوف يعلن اليوم في المقهى وأمام البلد وأمام والده أنه سوف يسافر مع «أبو سلامة» وأنه سوف يسرق المال إن لزم.

✧ ✧ ✧

لما شفت وهدان بيغرق قدامي قلت «يا ترى العملية اللي خدوا بيها الكلية بتاعته هي السبب؟» كان وهدان أول واحد في المركب كلها يموت. اللي ماسك في الجركن جنبي قال لي: «ده ما ماتش غرقان، ده مات بالسكتة القلبية». قلبه يا حبة عين أمه ما استحملش. لأن الغرقان بيقولوا بيقب على وش المية بعد أربع ساعات من الغرق. ده قب في أقل من خمس دقائق. فكرت إن الولية الدكتورة «نيفين عدلي» اللي لهفت كليته ضعفت بنيته وقلبه فراحت منه الشهادة. ربنا يفتح له أبواب الجنة. يا رب يا سميع وتكتبها له شهادة برضه. حاولت أقرّب منه وأمسك جثته وأقلبه بس ما عرفتش الدوامة كانت جامدة وقعدت ألف وكل حاجة بتلف معايا. وطول

ما أنا بلف مشاوير المستشفى في مصر والعملية بتلف في دماغي.
الحكاية بدت في شهر يوليو لما توكلنا على الله وطلعنا رسمي على ليبيا. ووصلنا منطقة «زوارة». هناك عرَّفنا أبو سلامة على الراجل الليبي، اللي هو مدير الموضوع ده كله. ضابط اسمه «جمال علي» برتبة نقيب.. قعدنا حداه من يوم الاثنين لغاية يوم الجمعة. كنا قاعدين صاحيين نايمين في بيت الضابط ده. ويوم الجمعة الصبح طب علينا راجل وقال لنا ياللا اجهزوا عشان السفر دلوقتي.. حتى ما اداناش فرصة نصلي الجمعة. اتحركنا معاه وحصَّلنا في السكة النقيب جمال. وصلنا على شط البحر في منطقة مهجورة مفيهاش صريخ ابن يومين. والتقينا هناك بثلاثة أشخاص معاهم تليفونات كبيرة جدا ماسكينها في إيديهم وعاملين جو اتصالات جامد قوي. نزلونا ٨ أفراد بـ ٨ أفراد في زودياك صغير يوصلنا حوالي مائتي متر جوه البحر علشان نركب المركب، لغاية ما المركب اتملى بالستة وثمانين بني آدم.

كانت المركب عاملة زي مراكب الصيد بس على أوسخ حبتين. لما تحركنا سألنا الكابتن - كانوا بيسموه القبطان - عن سرعة المركب فقال لنا إنها بتمشي في الساعة بسرعة حوالي ٢٥ كيلومتر، ده بعد ما قعد يحول من العقدة للكيلومتر، كانت الساعة ١ الظهر بالضبط لما تحركنا يعني في عز القيالة وكان اليوم ١٥ يوليو.

يوم مشئوم، عمري ما حانساه في حياتي. فضلنا ماشيين بالمركب ساعة ونصف يعني كانت الساعة اثنين ونصف لما بدت المياه تطلع على أرضية المركب.. قلنا للكابتن لما لقينا المية زادت حبتين. قال اقطعه الحبال اللي ماسكة الجراكن وشيلوا المياه الزيادة .. قعدنا

ننزح في المية ييجي ربع ساعة وإحنا شغالين نزح لقينا موجة عالية هبدت فينا قامت كسرت المركب. قعدنا نصرخ زى المجانين على الكابتن علشان يرجع. قال لنا راجع راجع. جه وهو بيلف المركب.. اتقلبنا.

اللي كان عنده فكرة عن العوم نزل المياه وعام بعيد عن المركب حوالي ١٥ متر. أنا ما باعرفش أعوم لكن قفشت في جركن ولقيت الجركن بيبعد عن المركب، كنت دايخ، والشمس جامدة.. حسيت الدنيا بتلف بسرعة قوي وآخر حاجة سمعتها صوت أجنحة الطير فوق رأسي، ورحت رايح في غيبوبة.

✧ ✧ ✧

كان سرب من الطيور يطير فوق ياسين. يتابع بدهشة المشهد من أعلى وهم يضربون بأجنحتهم الهواء بكل همة.

أيا ترى سوف يسترجعون هذا المشهد يومًا.. أم أن كل ثانية جديدة تطرد بلا رجعة وزر سابقتها؟

رجال معظمهم من الفلاحين الذين لم يروا البحر الكبير رأى العين قبل ذلك اليوم، عرفوه عبر الصور والأفلام ولكن لم يعلموا كم هو جبار عتي مثله مثل حياتهم الجدباء، هربوا من المشنقة فوجدوا الكرسي الكهربائي في انتظارهم. كل يسعى للبقاء حيًا في قسوة تجلي الذاتية في أبشع صورها، حاول محمد الذي لا يعرف العوم مثله مثل غيره أن يستمسك بيد أحدهم فضربه على رأسه بأقصى ما استطاع كي يبعد عنه، صراع قاتل حول كل برميل

من البلاستيك ولو كان لأحدهم سلاح في يديْه لاستعمله بلا تفكير لقتل من يعانده فهو يعاند الآن الزمن. صرخات وعويل من البعض واستسلام لمشيئة القدر ثم هبوط بطيء إلى قرار بلا قاع. كم كان حظ الطيور سعيدا. فهي الأخرى تهاجر كل عام عبر آلاف الأميال في أخطار محدقة لسبب وحيد هو البقاء أحياء، تغزل حول الشمس والبدر والنجوم بمجالها المغناطيسي رحلتها للبقاء بضربات قوية من أجنحتها. ولكن لم يخلق الرب للإنسان أجنحة للهجرة إذا أظلمت دنياه. لم يكن أمامهم غير الركوب على أجنحة خربة هروبًا من ذمم خربة. هبط طائر ولمس بقدميه رأس ياسين لينقذه من الموت.

✧ ✧ ✧

لما فقت بعد زمن الله وحده اللي يعرف مدته، شفت المرحوم وهدان قدامي بالضبط، جتة حبيبي ظهرت على وش المياه. قعدت أعيط على حالي وعليه وكل واحد بقي يدوَّر ازاي ينقذ نفسه من الموت.

ناداني زقزوقة اللي كان راكب على سطح المركب علشان أروح أقعد جنبه ما هو ما بيعرفش يعوم غير في جيمات الكومبيوتر وبس. لكن ما عرفتش أروح له. قعدت أدور بعيني على شاكر مالقيتوش. بعد بيجي تلت ساعة لقينا المركب بئ بئ بئ اختفت نهائيا وراح زقزوقة مع المركب وما طلعش وما شفتوش من ساعتها. قعدت أصرخ، وأدعي من قلبي، وأنده على أمي، ما عرفش ليه ما نديتش على أبويا.

ما كانش فيه قدامنا غير الدعاء لربنا. كل واحد فينا ماسك في حاجة ولا بد فيها وما كناش بنسمع غير دعاء أو واحد تاني ينادي على أمه وبعدها ينزل تحت وما يطلعش.

اتسحبت أنا مع تيارات البحر وبعدت عن الجماعة اللي معايا. قعدت أنده على طه وعلى عكاشة وعلى محمد.. يرجع لي صوتي خالي من أي خبر يسعد. الجزمة كانت تقيلة ووجعالي رجلي قعدت أحاول أقلع فيها لغاية ما عرفت بعد طول عذاب علشان كنت خايف أسيب الجركن. حسيت براحة وإني خفيف فقلعت كمان القميص. كان قميص غالي جبته بستين جنيه من شارع صفية زغلول في إسكندرية. بعد حوالي ست ساعات، الليل دخل علينا. ولكن من حين لحين كنت باسمع صوت صدى صرخة.

بعد كام ساعة خِلْصت المقاومة اللي جوة الواحد. ما بقتش قادر. كل حتة في جسمي بتصرخ من الألم، والأمل راح مع آخر ضوء للشمس والأرض بعيدة ملهاش أثر، وفكرة إن الواحد يلاقي مركب تنقذه اتبخرت مع مخ ساح من الشمس. والعطش بيشَرَّخ في زوري وبيقطع في لحم وشي وكنت عارف إني لو شربت من الجركن مش حاعرف أعوم ومش حاعرف أكيد أمسكه تاني.

نويت وتوكلت على الله وقريت الفاتحة وقررت إني أشرب من الجركن اللي أنا قافش فيه واتشاهد على روحي وأسيب نفسي للمولى عز وجل يعمل فيَّ اللي يريده. فكرت كويس هل اللي أنا حاعمله ده يبقى انتحار؟ لكن أكدت لنفسي إن ده مش انتحار لأني مجرد سبت نفسي للي خالقني.

بالفعل فتحت الجيركن علشان آخد بق مية، كنت وصلت لمرحلة الموت من العطش. لكني فوجئت إن الجركن مليان بنزين.

كنت خلاص في حالة يأس كاملة. سبت الجيركن وغطست في المياه ولقيتني نازل وأنا مفتح عيني ومش شايف حاجة. شربت من المالح غصب عني، لكن رغم كدة لقيتني باطلع تاني على وش المياه ولقيت الجيركن في مكانه وكأنه مستنيني. ما صدقتش نفسي ساعتها، وجالي يقين إن أنا ممكن أعيش وإن ربنا سبحانه وتعالى غيَّر المية اللي في الجركن ببنزين علشان ما أعرفش أتشاهد على روحي.

مش عارف نهائي الوقت عدّى إزاي لغاية لما الشمس طلعت تاني، باين عليَّ نمت وأنا حاضن المخدة بتاعتي.

لقيت الجثث على وش الميّه في كل حتة ودخلنا تاني في دوامة جامدة وفضلت ألّف أنا والجثث اللي حواليَّ تلف معايا. وفجأة البحر اتعدل وحسيت إني بتسحب على برة.

كنت في حالة ما يعلم بها إلا ربنا. رجلي الشمال ما بتتحركش نهائي ورقبتي هي كمان مش عايزة تتحرك. وبعدين لقيت رجلي اليمين راخرة مش قادر أحركها. جالي رعب مسك في قفايا. ولما رجلي لمست شيء حسيت بخوف فظيع وكأن الشيء ده ممكن يبلعني أو إنها دوامة حتأخذني مرة ثانية على جوة. ما عرفتش غير بعد فترة إن رجلي كانت بتلمس الأرض. لما طلعت على الشط. أغمى عليَّ.

✧ ✧ ✧

كما في الأفلام المصرية القديمة في مشاهد التائهين في

الصحراء، ظهر رجل عربي ملثم يرتدي ملابس الصحراء البيضاء. اقترب من ياسين وأخرج من جيب جلبابه قارورة ماء جلدية وسقاه منها رشفة صغيرة. وتركه ينام على الشاطئ وجلس هو بجانبه وترك جمله يتأمل الخلاء على مبعدة منهما. استيقظ ياسين على أصوات مفزعة لم يتبين مصدرها ولا طبيعتها. حاول فتح عينيْه ولكنه لم يستطع. تساءل: أهو في الجنة أم في النار؟ وهل سوف تتاح له رؤية وهدان وزقزوقة وعكاشة وطه ومحمد؟ كان على ثقة من أنه قد مات وشبع موتًا. وتأكد أكثر من موته عندما تم رفعه في الهواء ووجد نفسه طائرًا محلقًا والهواء يداعب وجهه المبتل. وعندما وضعوه في سيارة الإسعاف وسمع صوت الموتور. فتح عينيْه أخيرًا وعرف أنه لم يمت.

لم يتفوه بكلمة طوال الطريق وحتى بعد دخوله المستشفى. ظل جامدًا وكأنه حجر أصم على الرغم من كل الأسئلة التي طرحها عليه مجموعة الرجال الموجودين في السيارة. ولكنه عندما سمع صوت الطبيب المصري الذي جاء للكشف عليه انفجر باكيًا وكأن كتلة إحساسه قد تفجرت شظايا.

تم نقله بعد ساعة من الزمن بسيارة بوليس إلى سجن خاص بحرس الحدود، بعد أن تأكد الضابط الليبي أن ياسين سليم معافى وليست به إصابة بدنية، وأدخلوه في زنزانة مظلمة تمامًا وجد فيها عكاشة فاتحًا له ذراعه.

كان في هذه الزنزانة كل من تم إنقاذهم من الستة والثمانين فردًا. كان عددهم سبعة وعشرين فردًا من مصريين و مغاربة. وفي صباح

اليوم التالي عندما جاءوا لاصطحابهم والتعرف على الجثث، طلب ياسين من ضابط ليبي حذاء وقميصًا، ولكنه ظل حافي القدمين وبفانلة داخلية ممزقة ماركة جيل.

تعرف ياسين على جثة شاكر وعلى جثة وهدان وعلى مجموعة أخرى كانت معه في منزل النقيب جمال علي. بحث عن زقزوقة ولكن لم يجده. ثم بدأوا التحقيق معهم.

اسمك؟

الجنسية؟

مين اللي مسفرك؟

فين جواز سفرك؟

مين اللي ساعدوك في ليبيا على السفر؟

كنت مسافر على فين؟

في أي يوم وصلت ليبيا؟

جيت من أي طريق؟

كانت الساعة كام بالضبط؟

قعدت الكام يوم دول فين في ليبيا؟

هل إنت عارف إنك ارتكبت جريمة؟

بعد الاستجواب، تم نقل الجميع إلى الأمن الشعبي، وهناك تم استجوابهم من جديد، وتم تكرار الأسئلة نفسها عليهم. وبعدها تم عرضهم على النيابة.

حاصرهم الانتظار الممض، والحر غير المحتمل، وأنهار من العرق تنساب في مجارٍ حول سلسلة الظهر، وتنتهي في مؤخرتهم لتحدث رائحة عفن ممزوجة برائحة ملح مياه البحر التي تنضح من مسامهم حتى تمنوا الموت في عمق البحر. كانت دائمًا الأسئلة نفسها تتكرر. وأعاد الجميع على المحققين الإجابات نفسها وفي النهاية يعودون إلى زنزانتهم المظلمة وهم في حالة شوق لمساحة من الحرية يمكن أن يجدوها في ركن منزوٍ داخل الزنزانة.

✧ ✧ ✧

تاني يوم، يعني يوم الاثنين بدأت الضغوط علينا كلنا من السلطات الليبية علشان نتنازل عن ذكر اسم الضابط الليبي وأنا قدامي أتعرض علينا مبلغ ١٥٠٠٠ دولار علشان ما نذكرش اسمه ولا أسماء إخوته.

رفضنا وأصرينا أنه يتحمل ذنب الضحايا اللي ماتوا بسببه. حمَّل مركب بـ ٨٦ شخص وهي ما تتحملش ٣٠.

فكَّرت أقول لهم طب ما بدل الخمستاشر ألف دول حد يقب بجزمة وقميص رجليَّ فأفأت بس سكت.

اتعرضنا على المحكمة قام القاضي أجلنا أسبوع. وفي الجلسة اللي بعدها هبدنا كمان تأجيل ووراه تأجيل لمدة شهر ونصف

وآخرتها اتحكم علينا بـ ٤ شهور و ٥٠ ج غرامة واتحكم على النقيب جمال بالحبس ٤ شهور برضه وعزل من رتبته. وفي المحكمة جم بتوع السفارة المصرية وسألوا علينا واخذوا مننا عناوينا في مصر علشان يطمنوا أهالينا.

يوم بياكل في يوم واللي بعده يبلع الأسبوع اللي وراه، كنا بناكل في الدقائق والساعات لكن ماعرفناش ناكل حاجة ثانية. الأكل كان أستغفر الله ما يتكلش، بقينا في الآخر زي الأشباح. قعدت أقول فينك يا عائشة وفين طبيخك؟ ولما الانتظار زهق مننا أخذونا على طرابلس ومن هناك على المطار.

أول ما نزلنا من العربية قدام المطار لقينا واحدة إيطالية مزة شكلها زي القمر ومعاها راجل مش راجل واقفين مستنينا وفضلوا يصورونا. قلنا والله وبقينا من المشاهير.

لكن طبعا مشاهير عند الطلاينة ولاد كلب في مصر، أول ما الطيارة وصلت القاهرة استقبلونا أحلى استقبال. استجواب في المطار ومن هناك طلعنا على مجمع التحرير. أخذوا أقوالنا تاني، ومن التحرير اترحلنا على الخليفة. شرفنا في الزنزانة أربع أيام ترويق، ومن الخليفة اترحلنا على البحيرة. ظبّطونا تمام في أمن الدولة ومنها أفرجوا عنّنا.

✦ ✦ ✦

كانت القرية لحظة وصولهم في حالة حداد، الصمت والوجوم والحزن هم أبطال المشهد، كان الجميع يسير مطأطأ الرأس في

لحظة جنائزية مهيبة. ومن خلف ستار وقفت ياسمين تبحث عن حبيبها:

بصراحة فرحت. لما لقيته داخل مدلدل راسه كدة قلت ده فرصتك يا بت وجت لغاية عندك وما تسيبيهاش. ربنا رايد وبنتي من حقها برضه تتربى مع عمها هو أولى بيها. الغريب إنه حتى وحالته كرب كدة ودقنه عاملة زي أم الشعور لكن برضه فلقة قمر. آه ياني، قلبي لما شافه فضل يدق يدق. وباين عليه سمع الدق. لقيته بعدها بيومين داخل عليَّ وعايز يهم بيَّ. ما صدقتش نفسي وقلت أكيد البحر عقَّله وعرَّفه ياسمين بتحبه قد إيه.

فتحت له دراعاتي من شرقها لغربها لكن لقيت الغلبان مدلدل كله من راسه لديله. أتاريه ماعرفش مع عائشة جه يجرب حظه معايا. قلت كبوة أسد.

وأنا في حضنه بصيت لمرايتي وقلت لها: لو أنا أول واحدة عرفت ترجعه تاني لحالته، مش برضه حتدق المزيكة بدقوا المزاهر؟

كلبشت في حضنه لكن لقيته فط زي الوحش، والدخان طالع من راسه، وخرج زي المجنون. قعدت بعدها أحايل فيه وأسبوع وراء التاني وهو بيلف في البلد زي التايه. لميت الفلوس اللي معايا وقلت للحاج أمين البارودي أنا نادرة أزور السيدة زينب وحآخد معايا أخويا خليفة. أذن لي الحاج وبالفعل خدت بعضي على مصر، ومن المحطة على السيدة زينب وهناك قعدت أدور على أي صيدلية وسبت خليفة واقف على الباب.

ـ يا دك.

ـ أفندم..

ـ ت ن م..

ـ علّي صوتك مش سامع حاجة..

ـ أصل أصل أصل جوزي ولا مؤاخذة....

ـ ماله جوزك؟

ـ لا مؤاخذة..

ـ لا مؤاخذة ماله؟ فيه إيه؟

ـ فيه مشكلة كدة وهو معايا... أصله..

ـ عنده مشكلة انتصاب مثلا؟

ـ أيوة سيادتك..

ـ عنده مشاكل في القلب؟ عمل عمليات قبل كدة؟

ـ لأ ما عندوش.. قلبه حديد.

ـ عايزة تدفعي كام؟

ـ معايا ثلاثين جنيه.

ـ خدي التلات علب دول ده دواء اسمه فايركتا ياخد نص حبايا بس قبل الجماع بساعة وإن شاء الله خير.

✧ ✧ ✧

دقوا المزاهر يا ما شا الله عليها. تزوجت ياسمين من حبيب

القلب باستثمار قدره ثلاثون جنيهًا فقط لا غير. لكن بانتهاء علب الدواء، بدأ ياسين في البحث مرة جديدة عن وسيلة للخروج من المحروسة. فالأحوال هي الأحوال بل إلى الأسوأ تسير وبمعدلات متسارعة. مرتب المدرسة الذي كان نكتة بايخة أصبح مع الأيام بصقة مهينة. بالطبع اختفى تمامًا أبو سلامة ولا أحد يعرف عنه شيئًا. أصبح مرأى الشيخ صالح وحسين وإبراهيم إخوة شاكر وهم يسألونه عن «أبو سلامة» للثأر منه كابوسًا يطارده في النهار، أما كابوسه الليلي فكان المرور مساء أمام محل الفيديو جيم دون رؤية زقزوقة. ولكن كارثته تأتي من كابوسه الوجودي: أين المفر؟ ولا يوجد معه ما يسمح له بإعادة الكرَّة لإنقاذ أولاده من غد بلا شمس. واستمر السؤال يداعبه في النهار وهو يقوم بالتدريس لتلاميذ لا يجيدون حقيقة القراءة وتتلقى رأسه في الليل لكمات من محمد على كلاي تجعله يسير مترنحًا. وفي حالة الترنح التي كان فيها، هداه تفكيره وهو جالس تحت شجرة الجميز في حوش المدرسة إلى الدكتورة نيفين عدلي. فليذهبْ إليها ويعرض عليها كليته للبيع ويقبض منها ثمن خروجه.

نيفين عدلي

في يوم السبت الموافق ١٨ من فبراير ٢٠٠٦ استقر عزم ياسين على السفر إلى القاهرة للقاء الدكتورة نيفين. لم يكن يعلم تمامًا ما الذي يجب عليه أن يقوله لها؟ فأبو سلامة كان قد تدبر أمر كل من تطوع للتبرع بكليته. لم يقع العطاء حينها من أبناء قريته إلا على وهدان. كان قد بحث عن عنوانها واتصل منذ أسبوع وحجز مكانًا في ذلك السبت في التاسعة مساء. استخار ربه وأخذ الميكروباص في الرابعة عصرًا ووصل إلى القاهرة في السابعة والربع مساء وانطلق بعدها سيرًا على الأقدام من باب الحديد إلى العيادة في شارع شريف بوسط البلد. وجد العيادة شديدة الازدحام. وقف تائهًا حتى أنقذه الممرض من حيرته ونادى عليه. ذكر له اسمه واعطاه مائة من الجنيهات بيد مرتعشة كان قد اقترضها من العمدة. جلس ينتظر دوره وهو يتأمل الوجوه من حوله، انتقلت بالتدريج إليه حالة التعاسة التي تطل من مسام الجميع وهم يتنفسون هذا الهواء الثقيل المنتشر في أرضية صالة الانتظار. لم يجد في الحجرة هواء

كافيًا يسحبه إلى رئتيْه وبدأ شعور بالاختناق يتملكه. ظل يستجدي بعضًا من الأكسيجين ولكن لم تلتفت إليه أي دفقة هواء.

بعد ساعة من الانتظار بدأ يبحث عن أي شيء يسري عنه. وجد جريدة الأهرام على المائدة أمامه. ظل يغازلها بعينيه متحيرًا، وفي النهاية مد يده وأخذها وهو ينظر حوله متسائلًا: هل من حقه قراءتها؟ نظر إلى الممرض الجالس بعيدًا وراء مكتب صغير جدًّا ولكن الممرض لم يعره أي اهتمام. فتح ياسين صفحة الرياضة. الزمالك يعرض ٦٠٠ ألف دولار لشراء محمد فضل والإسماعيلي يرفض الصفقة مطالبًا بستمائة ألف يورو. تساءل ياسين: هل يمكن أن يشتريه أحد بستمائة ألف مليم؟ ثم هز رأسه نافيًا أي إمكانية لأن يشتريه أحد. ثم تساءل: ما حكاية الدولار واليورو في صفقة بين ناديْن مصريْن على لاعب مصري في خبر منشور في جريدة مصرية؟ أمر له العجب. ولكن الخبر جعل ياسين يتأكد أن عليه أن يبدأ في التعامل مع هذه العملات الغريبة. لا بد أن يرحل من فوره.. ثم فكر في بديل سريع قبل رحيله وهو أن يتقدم بطلب إلى وزارة التربية والتعليم بصرف المرتبات باليورو وهو في هذه الحالة سوف يحصل على حوالي ٥٠ يورو شهريًا يمكنه أن......، ولكنه بعد تفكير لم يجد ما يمكنه فعله بهذا المبلغ الفخيم. أغلق الجريدة كمدًا وقرفًا فلمح خبرًا في الصفحة الأولى عن قرار الحكومة الإسرائيلية أمس إلغاء الامتيازات الممنوحة لكبار الشخصيات الفلسطينية في التنقل بين الضفة الغربية وقطاع غزة. ضحك ياسين ملء شدقيْه على وقاحته. فقادة فلسطين وكبارها لا يستطيعون الانتقال داخل بلدهم من مكان إلى مكان وهو الحقير يريد أن يذهب إلى بلاد

أوروبا ويقبض باليورو مثل لعيبة نادي الإسماعيلي. يا له من وقح. في الغد يصدر الأوروبيون والأمريكيون قرارًا يمنعه من الحضور إلى القاهرة ويمنع الميكروباص من التحرك خارج كوردون سوف يرسمونه إن شاء الله حول إيتاي البارود. ويمكن أيضًا أن يصل القرار بمنعه من الذهاب إلى خارج قريته. سوف يأتي نص القرار المطبوع على ورق أبيض مصقول من البيت البيض من رجل قلبه أبيض: «يمنع ياسين البارودي من التحرك من حجرة نومه إلا لمسافة لا تتعدى عشرين مترًا طولًا». وعندها حمد ربه أن الحمام في منزله يقع عبر مسافة تقل عن العشرين مترًا من حجرة نومه. وأخيرًا سمع الممرض يصرخ باسمه.

✦ ✦ ✦

الدكتورة نيفين عدلي جراح المسالك البولية وأستاذ بالقصر العيني. تقوم بالتدريس صباحًا والكشف في العيادة الخارجية بالمستشفى، وإجراء العمليات في الظهيرة وتمارس أمومتها بعد العصر، وفي المساء تجلس وراء المكتب الخشبي العتيق المطعم بالصدف والعاج الذي ورثته عن أبيها مع العيادة الكائنة في وسط القاهرة. تلمع في عينيْها انعكاسات الإضاءة على الصور والشهادات التي تركها والدها وعمها على حوائط الغرفة المكدسة بكل أنواع البراويز. شهادات من فرنسا وانجلترا والولايات المتحدة وصور للعائلة باللونيْن المفضليْن لها الأبيض والأسود. تعود أقدم تلك الصور إلى منتصف الأربعينيات، وهي لوالدها وهو يتوسط دفعته في كلية الطب، ولعل أحدث الصور المعلقة لوالدها أيضًا مع

الرئيس جمال عبد الناصر في أثناء حفل تسلمه وسامًا من الدولة على إنجازاته في مجال بحوث المسالك البولية. تظل نيفين قابعة هناك تحت رعاية أرواح العائلة الهائمة في الأجواء، تكشف على المرضى حتى منتصف الليل، ولديها يقين صوفي أن الرب أودع فيها ملكة علاج البشر. في كل ليلة تملس بيديْها على صورة لوالدها وضعتها على المكتب في برواز من الذهب الخالص لتودعه قبل الرحيل. تعود يوميًا لتجد زوجها نبيل شاروبيم وقد أعد لهما عشاء ملوكيًا على أضواء الشموع، تطمئن من فور وصولها على أبنائها الثلاثة سيلفيا ومايكل وكارول ثم تخرج على أطراف أصابعها لتدخل في أحضان زوجها.

نيفين ماكينة ألمانية بموتور ياباني وتقوم بتحديث البرمجة من الولايات المتحدة عن طريق الانترنت بكابلات فرنسية، ولكن بروح مصرية قبطية خالصة تضرب بجذورها في آلاف الأعوام.

✧ ✧ ✧

قليل ما بيعدي على الواحد راجل بجمال اللي اسمه ياسين البارودي ده ولا رشدي أباظة في زمانه، كان لازم هو كمان يمثل في السينما. لما جالي النهاردة في العيادة افتكرته. ما كنتش فاكرة شفته إمتى ولا إزاي. بس افتكرت شكله أول ما دخل عليَّ. معقول واحد فلاح وحالته بالفقر ده ويبقى في الوقت نفسه بالجمال ده؟. وأنا اللي طول عمري بأقول على نفسي إني ست طبقية في موضوع الجمال ده.. خلاني أغيَّر رأيي في نفسي. بعثته للدكتور شندي علشان الفحوصات علشان ينضم لطابور المتطوعين المحتملين

اللي عمال يطول كل يوم. فكرت أكلم شريف خيرت يشوفه، احتمال يخليه يمثل في فيلم من بتوعه. المصيبة اللي عرفتها منه النهاردة إنه كان متصور إن أنا ممكن أشتري منه كليته وأسفَّره أوربا. كان جاي لي في صفقة بيزنس.. خد وهات. ما كانش فاهم لما قلت له إن أنا أول مرة أسمع القصة دي في حياتي. أكد لي إن صاحبه اللي اتبرع بكليته هو ده بالضبط اللي حصل له. عمل العملية والسمسار قبض الفلوس من عيلة المريض وسفَّره. قبل ما يمشي قال لي إن صاحبه مات غرقان. مات يوم ١٥ يوليو السنة اللي فاتت. حكاية مرعبة.

١٥ يوليو ده نفس اليوم اللي سافرنا فيه كلنا الصيف اللي فات كندا. سألته كان يوم جمعة؟ قال لي أيوة. كان نفسي أسأله ألف سؤال: إزاي المركب غرقت؟ ومين السبب في الجريمة دي؟ وليه وعشان إيه وإزاي بس الأسئلة وقفت في زوري. اكتفيت إني خدت منه اسم صاحبه. ناوية يوم الأحد أكتب اسمه وأسيبه على المذبح. يا يسوع باطلب الرحمة ليه ولينا جميعا.

✦ ✦ ✦

كان الاتفاق بين نيفين وعائلتها أن تنتهي مبكرًا من العيادة في هذا اليوم بالذات. فالليلة هي آخر ليلة قبل بدء الصيام الكبير. اتفقوا على الذهاب إلى مطعم الباشا في الزمالك لالتهام ما لذ وطاب من اللحوم، على أمل أن يصمد في معدتهم لمدة خمسة وخمسين يومًا. كان الأبناء قد بدأوا يُرفِّعون منذ أسبوع تقريبًا بأكل أطنانٍ من الشيكولاتة والآيس كريم والبيتزا. ولكن الليلة لها نكهة خاصة فهي الليلة الأخيرة وهذا هو العشاء الأخير. وصل نبيل والأبناء أولا

واختاروا مطعم الروف. جلسوا في مقابل مبنى الإذاعة والتلفزيون ومبنى وزارة الخارجية وأعلن نبيل بصوته الجهوري أنه يمكنه الليلة التهام برج وزارة الخارجية كله بأسمنته وحديده وقبحه وسوف يكون قد عمل خيرًا لترجع الوزارة إلى قصرها الرائع الكائن بميدان التحرير قصر صاحبة السمو السلطاني الأميرة نعمة الله هانم زوجة الأمير كمال الدين حسين ابن السلطان حسين كامل.

تأخرت الدكتورة نيفين كالعادة فاضطروا في النهاية إلى الاتصال بها، لمعرفة ماذا تريد أن تطلب، فقد بدأت عصافير البطن تزقزق. لم يكن زوجها يعلم أن «وهدان» قد شرخ بقصته وتر قلبها حتى باتت في لوعة تتفطر.

عندما دخلت نيفين الروف بدأ جون لحود في الغناء. اغتاظ جدًا وهو يراها تقبل نبيل قبلة كبيرة في فمه، فلم يستطع جون أبدًا أن ينسى أنها كانت حب حياته الأول. غنى لها أغنية (Que je t'aime) «كم أحبك» للمطرب الفرنسي جوني هاليداي التي غناها عام ١٩٦٩ وكانت نيفين تعشقها في صباها.

تنقسم العائلة في موضوع الصوم. فالرجال لا يصومون إلا اليوم الأول وفي الأسبوع الأخير فقط وتنضم إليهما سيلفيا، أما نيفين وكارول فتصومان بكل جدية. فمايكل مثل أبيه يذهب إلى القداس مرة كل ثلاثة أشهر ويصوم أيامًا قليلة، وحتى في تلك الأيام لا يستطيع منع نفسه من شرب اللبن مساء ويعتبر ذلك ضرورة سوف يسمح بها الرب بلا شك. أما نيفين وكارول فتصومان صيامًا حقيقيًا طوال فترة الصوم الكبير. ولكن الجميع ينتظر عيد القيامة المجيد

بفرحة حقيقية، وينتظرون رحلة كل عام في الأسبوع التالي لعيد القيامة، لزيارة الأب إسطفانوس الأب الروحي للعائلة في دير الأنبا أنطونيوس. والأب إسطفانوس كان زميلًا لنبيل في الفصل وتجمعهما صداقة حقيقية على الرغم من اختلافهما العميق، ولكن كما يقول نبيل دائمًا: (Tout se passe tout se casse sauf les amis de la classe) «أي أن أصدقاء الفصل المدرسي لا يمكن نسيانهم». ولا تذكر نيفين أنها خالفت أبدًا ما يقوله لها أبونا إسطفانوس فهو أب اعترافها، وتكن تقديرًا عميقًا لحكمته إلا في موضوع واحد ناقشوه خلال رحلة العام الماضي، وهو الحوار الذي دار بينهما حول الهجرة إلى كندا. تتذكر تمامًا كلماته:

ـ مفيش أمل يا قدس أبونا من البلد دي.. مش عايزة ولادي يعيشوا غرباء، مش قادرة أتصور إنهم يكونوا أجانب في بلدهم.

ـ ممكن يا نيفين تناوليني الكباية اللي جنبك؟

ـ أملأها لك يا قدس أبونا.. دي مفيهاش غير بؤ مية واحد.

ـ يا بنتي شوية المية دول يرووا العطش للعطشان.. لو فكرتي دايما إنك لازم تملي الكباية لآخرها بعد شوية مش حترتووي من كباية وحتدوري على قزازة وبعدها حتعوزي حنفية مفتوحة على طول.. مفيش آخر للشعور ده.. المية اللي في الكباية دي كافية.. زي البداية اللي ولادك ممكن يبدأوها في بلدهم.. أما المية في قزازة المهجر فما حدش عارف إذا كانت نقية ولّا لأ؟ هل هي شكل ومنظر يطمن من برة وتكون مسممة من جوة؟ اشربي يا بنتي شوية المية دول اللي في الكباية.

رفعت نيفين كوب الماء وبدأت تشرب في تمهل وكأنها تشرب من زير كامل وارتوت كما لم ترتوِ من قبل. عادت بدفقة روحية هائلة وشعرت أن ما ارتوى هو نفسها، هو هذا الثقب البارد في صدرها الذي يجعلها يوميًا في حالة قلق دائم على ما هو قادم من الأيام. شعرت بسلام داخلي ولم تعد تنظر إلى ذلك الماء الوفير في الزجاجة المثلجة المسماة كندا. لكن بعد أيام قليلة من العودة من دير الأنبا أنطانيوس، حدث لابنتها ما لم تكن تتصوره.

فما حدث لسيلفيا في الساعة الواحدة وخمس دقائق من يوم الخامس والعشرين من مايو ٢٠٠٥ جعل د. نيفين تهرول لتقديم أوراق اعتماد عائلتها للهجرة إلى كندا. ففي هذا اليوم اصطحبت ليلي شاروبيم الصحفية بوكالة الأسوشييتد برس ابنة عمها سيلفيا وسعاد حسين صديقة ليلى إلى منطقة وسط البلد، لمتابعة ما يحدث في استفتاء تعديل المادة ٧٦ من الدستور المصري، والمقترحة من الحزب الحاكم. كانت شوارع القاهرة قد تحولت كما هي العادة في مثل هذه الأحداث إلى ما يشبه ثكنة عسكرية انتشرت بها قوات الشرطة التي كانت بعض فصائلها ترتدي ملابس مدنية، وكانت قد بدأت حملة من التفتيش العشوائي من رجال الأمن، ضد مواطنين ساقهم حظهم التعس إلى المرور في هذه الشوارع. وفي أثناء مرورهن في شارع عبد الخالق ثروت الذي خلا بالصدفة من أي وجود أمني، وأمام محل بيع الكلاب والقطط والعصافير الذي كان مغلقًا، هجمت عليهن مجموعة من الشباب وبدأوا في التحرش الجنسي بهن.

أخرج أحدهم عضوه الذكري واقترب من سيلفيا وبدأ في

ممارسة العادة السرية أمامها وهو يتأمل وجهها المذعور. هجم آخر على ليلى وقبض بيديه على صدرها، وتأوه، ثم شد الصليب الذهبي المعلق في صدرها. وقام ثالث باحتضان سعاد من الخلف وخلع عنها حجابها وبدأ يحاول إدخال يده داخل فستانها. وبدأ الشاب الذي يمارس العادة السرية في الاقتراب من سيلفيا التي تعلقت بيد ليلى.. صرخ في وجهها ومد يده التي كانت ممسكة بقضيبه ليتحسس وجهها. أغلقت عينيها وضغطت على زر تشغيل «الأيبود» (Ipod) واستمعت بكل حواسها المشرذمة إلى أغنية فرقة ميتليكا (St. Anger round my neck) «الغضب المقدس يخنقني».

✧ ✧ ✧

اللي حصل في اليوم ده مش ممكن أنساه لغاية لما أموت. أنا كنت مرعوبة على سيلفيا، يا حبيبتي صغيرة.. عندها كام. ييجي ١٦ سنة. ما كنتش عارفة الموضوع ممكن يوصل لحد فين؟ شوية بلطجية باين مدفوع لهم فلوس من الأمن علشان يتحرشوا جنسيا بينا وبأي متظاهرين. المصيبة إن البلطجة مالهاش حدود معروفة. كان ممكن يعملوا فينا أي حاجة. بس بعد لما روّحت وهديت وقعدت أفكر لقيتها فكرة جديدة جدا ومبتكرة. بصراحة يستاهلوا عليها جائزة الإبداع من وزارة الثقافة. التحرش الجنسي لفض المظاهرات. بجد فكرة عبقرية. زمان الدولة حرقت القاهرة وبعدها بكم شهر قامت الثورة. قالوا لو ولعناها ممكن تقوم ثورة. مشيها المرة دي بالقبلات والآهات واللمسات. سلاح أمني جديد بالفازلين لتمرير أي تعديلات وكله علشان عيون النونس. رجعنا البيت وسيلفيا في

حالة (Shock)، صدمة جامدة قوي، مش قادرة تعيط ولا تنام وعينيها جامدة. بصيت لها لقيتها عاملة زي القزاز المشرّخ. سبتها مع طنط نيفين. شكلها كدة حتديها حقنة مهدئة.

✦ ✦ ✦

في اليوم التالي مباشرة يوم ٢٦ من مايو ٢٠٠٥، قام نبيل ونيفين بتقديم أوراق الهجرة إلى كندا عن طريق مكتب استشارات هجرة كندية. أوراق لا عد لها تم تحضيرها في مساء الليلة المشئومة.. شهادات ميلاد العائلة، شهادات التخرج، أوراق الزواج والعمل والدخل والخبرة، أخرج نبيل كل أوراقهم منذ الميلاد وحتى آخر ورقة أصدرتها جهة رسمية أو شبه رسمية في تاريخ حياتهم. لم يكن ينقص إلا أوراق التواليت من الحمام. عرضها على المستشار وكانت زرقاء من ماركة فرنسية ولكن المستشار لم يجد وقتًا للابتسام. طلب أربعة آلاف دولار كندي كأجر لعمله الاستشاري في حالة قبولهم وأعلمهم أن هناك رقمًا مشابهًا سوف يدفع بصورة رسمية للسفارة الكندية بالإضافة إلى تكاليف السفر إلى كندا والإقامة هناك لمدة أسبوعيْن على الأقل للحصول على أوراق الإقامة والتجنس في حالة فوزهم بالقبول السماوي. خرج المستشار من حجرة الاجتماعات الفخمة التي كانوا يجلسون فيها بعد أن حصل على شيك الدفعة الأولى من أتعابه ليلحق بعائلة أخرى كانت في الانتظار في حجرة مجاورة ودخلت عليهم امرأة جميلة ترتدي ملابس بسيطة ولكن تظهر بوضوح علامات البذخ على كل تفصيلة فيما ترتديه. أكدت لهما بعد أن أعادت فحص الأوراق بسرعة

أن فرصة قبولهم كبيرة خاصة مع وجود ثلاثة أطفال لهم في سن المدرسة وأن لديهم أقارب من الدرجة الأولى هناك. وأن النقاط التي يمكن أن يجمعوها كافية بالتأكيد للحصول على الهجرة. فإجمالي النقاط هي مائة واثنتان وثلاثون نقطة يجب أن يحصل المتزوج منها على الأقل على سبع وستين نقطة. ثم أوضحت لهما أنهم سوف يفقدون منذ البداية النقاط الثماني عشرة للسن باعتبار أن «نبيل» قد تعدى سنه الواحدة والأربعين. كما سوف يفقد عشر النقاط الخاصة بوجود عرض وظيفي؛ باعتبار أنه ليس لديه عرض الآن. تساءل نبيل كيف يمكن لأحد أن يحصل على عرض وظيفي، ويضعه في الثلاجة لمدة تتعدى العامين؟ ولكنه في العموم لم يهتم بالتفاصيل فهو سوف يدفع للمستشار أجرًا؛ لكي يقوم هو بعمليات الجمع والطرح والقسمة على الأسس الكندية القويمة.

✦ ✦ ✦

بقالي سنين بأقدم خطوة وأرجع خطوتين، أختي هناك في كيبيك واثنين من إخوات نبيل واحدة في هيوستن والتاني في أونتاريو. بنتكلم بقالنا فترة دلوقتي، هل حقيقي حنقدر نكمّل في مصر؟ سؤال بيوجع زي سكينة مغروزة في الرقبة. الأسباب كثيرة.. المجتمع بصفة عامة بيتجه نحو الأسلمة وضد المواطنة. مين اللي بيمول كل اللي بيحصل ده في اتجاه أسلمة كل شيء؟ ما حدش عارف. ازاي قدرت الدولة في ثلاثين سنة بس تغير عادات الناس في الشارع؟ مش عارفين. الغريب إن الناس ما بقوش حتى فاكرين كانوا عايشين ازاي من ثلاثين سنة. مش بس الحجاب والنقاب إنما عشرات التفاصيل

الصغيرة. أمثلة ما لهاش عد. يعني مثلا من عشرة ولّا خمستاشر سنة هل كانت شركة مصر للطيران بتحط إجباري آية قرآنية قبل إقلاع الطائرة؟ طبعا لأ. الغريب إن في الآية كلمة منقلبون، طبعا بتخوفني الكلمة دي من انقلاب الطيارة. هل من سنتين ولّا ثلاثة كنتي وانتي بتطلبي بيرة في رمضان يطلبوا منك جواز سفر علشان لازم تبقي أجنبية؟ طبعا لأ. نسيوا إن فيه مسيحيين في البلد دي. أنا عارفة إن دي تفاصيل لكن التفاصيل في النهاية هي اللي بتشكل الحياة كلها. نتج عن ده إنه أصبح فيه مدارس فيها مسيحيين وبس ومستشفيات فيها أغلبية مسيحية ومستشفيات تانية فيها أغلبية مسلمة. جوزي كان بيقول لي حاجة استغربت منها جدا.. إن مفيش لعيبة كورة مسيحيين ما عدا كام واحد يتعدوا على صوابع الإيد الواحدة. ليه؟ لأن المدربين مسلمين كلهم وما بيطلعوش لعيبة مسيحيين. أصبح فيه فرز طائفي في كل مكان، وده ماكانش طبعا حاصل من ثلاثين سنة. المرعب واللي بنتكلم فيه أنا ونبيل كل شوية إن بكره ولّا بعده، الإخوان المسلمين يمسكوا الحكم ويطبقوا الجزية، وساعتها حنبقى مواطنين من الدرجة الثالثة أو السابعة. ويعملوا لنا زي بلاد في الخليج عندهم درجات للمواطنين.

✧ ✧ ✧

كانت الدكتورة نيفين جالسة وحدها يوم الجمعة صباحًا في النادي تحتسي عصير جوافة باللبن، حولها كانت المقاعد خالية تمامًا، فالازدحام يبدأ عادة قبل صلاة الجمعة مباشرة حيث يبدأ الأعضاء في الوصول إلى النادي للصلاة، وبعد الانتهاء من صلاة

الجمعة تغزو النادي جحافل من البشر بحيث يصبح الحصول على مائدة وبضعة مقاعد أمرًا مستحيلًا. طلبت الدكتورة نيفين من النادل كوبا من عصير الموز باللبن، ثم أنهت الجوافة بجرعة واحدة.

أنا أولادي قبل ما أنقلهم كلهم مدارس إنترناشيونال اللي إنجليزي واللي أمريكاني كان مفروض عليهم فرض فى مناهج التعليم نصوص إسلامية في مادة اللغة العربية وفي المواد الاجتماعية. مش قصدي تاريخ إسلامي ده طبيعي ولازم كمان.. إنما قصدي دين إسلامي وبكميات رهيبة وآيات قرآنية طويلة وما حدش قادر يفتح بقه. كل مدرسين اللغة العربية غاويين يدوهم موضوعات تعبير في قلب الدين الاسلامي، لما اتغيروا المدرسين والوضع هو هو قلنا لازم دي أوامر. آخر تعبير كتبته أنا مع مايكل عن حكمة نزول سيدنا جبريل على سيدنا محمد في شهر رمضان. ده موضوع في اللغة العربية! وفي نفس الوقت ورغم كثافة البرامج الدينية الإسلامية في التلفزيون إلا أن البرامج الدينية المسيحية في التلفزيون منعدمة تماما وكذلك في التعليم طبعا وسؤال اشمعنى أصبح مستحيلا.

صوت الميكروفونات في الجوامع جايب لنا صداع يوماتي، ومش مسيحيين بس وكمان مسلمين كثير من أصحابنا ومش قادرين برضه نعترض. يوسف إدريس قبل ما يموت اعترض وكتب مقالات من نار في الجرائد وغيره كثير، أظن كمان أحمد بهاء الدين كتب، لكن النهاردة صعب جدا تلاقي واحد فتح بقه في الموضوع ده إلا قلة منحرفة من المسلمين.

بنتي أصبحت خايفة تمشى فى الشارع كاشفة شعرها والصليب على صدرها. أصبحت البنت المسيحية شكلها غريب في الشارع وكأنها مش من البلد دي. وفي النادي وفي الشارع ياما بنسمع شتيمتنا بودانا فى خطب الجمعة وبأعلى صوت. طب وآخرتها إيه؟

طبعا ممكن يرد الكثير طيب ما خلاص انكشحي بقة. بس دي بلدي، جدوري فيها من ملايين السنين، أقلع نفسي إزاي؟

✦ ✦ ✦

في ١٥ من يوليو ٢٠٠٥ وفي أثناء انتظار العائلة في مطار القاهرة الدولي إقلاع الطائرة، قرأ نبيل أن المفتي العام للسعودية فضيلة الشيخ عبدالعزيز ابن عبدالله آل الشيخ قد أدان في بيانيْن صدرا عنه التفجيرات التي هزت العاصمة البريطانية وأوقعت عشرات الأبرياء. كما أدان فضيلة المفتي أيضًا قتل رئيس البعثة الدبلوماسية المصرية في بغداد السفير إيهاب الشريف في الثاني من الشهر الحالي، واعتبر العمليتيْن قتلًا للأبرياء بغير حق، وهو قتل ألبس لباس الدين زورًا وبهتانًا. وأكد فضيلة المفتي أن ما يجري في العالم من حوادث قتل فردية أو جماعية أو حوادث تفجير وتدمير ممتلكات وترويع آمنين.. كل هذه العمليات هي من الإفساد في الأرض، وهذا محرم في الإسلام والإسلام منه براء. طمأنت هذه الإدانة نبيل شاروبيم قبل إقلاع طائرة إير فرانس في الساعة الثانية والثلث صباحًا متوجهة إلى باريس ومنها إلى مونتريال في زيارة استطلاع عن الحياة في كندا وخاصة الجامعات والمدارس للأولاد. ولكن لم تنشر الصحف في ذلك اليوم، ولا في أي يوم

بعده خبر غرق سفينة في مياه البحر المتوسط، كانت تقل مصريين آخرين هاربين من الجحيم.

✦ ✦ ✦

لو كان هناك شيء مقدس وحيد في حياة نبيل شاروبيم لكان بلا شك التزامه الحديدي بمواعيد التنس. فهو يلعب ثلاث مرات في الأسبوع مع شلة التنس التاريخية التي لم تتغير منذ ما يزيد عن العشرين عامًا، تلك هي أولويته الأولى في الحياة. بعدها يأتي التزامه الأقل حديدية بفتح الصيدلية في الثامنة والنصف من صباح كل يوم. ورث تلك العادة عن والده الذي ظل طوال حياته يقوم بفتحها في الموعد نفسه بلا كلل حتى وافته المنية. وقرر نبيل الذي لم يعشق كثيرًا الصيدلة كوالده الذي كانت مقولته الشهيرة، لو لم أكن صيدلانيًا لوددت أن أكون صيدلانيًا أن دوره على الأقل أن يكون تاجرًا جيدًا، وكان بالفعل كذلك. تبعد الصيدلية أمتارًا قليلة عن عمارتهم التي ورثها هي الأخرى عن والده. ظل خلف أبنائه سيلفيا ومايكل وكارول حتى أصبحوا من لاعبي التنس المرموقين في النادي، ولكن بزت منهم كارول بالتزامها الطبيعي حتى باتت واحدة من أهم لاعبات مصر في سنها. ولكن أمام عدد الساعات الكبير الذي كانت تقضيه في تدريبات التنس، فضَّل أبوها أن تلتحق بالنظام الأمريكي وليس بالنظام البريطاني كسيلفيا ومايكل. يحب نبيل دائمًا حكاية قصة عشقه لرياضة التنس، وحينها يقص على مستمعيه فترة توقفه الوحيد:

ذهبْتُ إلى باريس عام ١٩٨٠ للدراسات العليا، وأول ما حطت

قدمي الأراضي الفرنسية بحثت فورا على ملعب تنس والتزمت في اليوم التالي بالتدريبات، وتمر الأيام وأذهب إلى مقهى «لي دو ماجو» (Les Deux Magots) بشارع سان جيرمان بالحي اللاتيني في وسط باريس لألتهم كأسين أو ثلاثة من الآيس كريم مع ساندوتش «كروك مادام» لأجد قدري في انتظاري، نيفين هانم شخصيًا جالسة وهي تضع نظارتها أمام وجهها وتمسك بوقارها في يدها اليمنى، وبكتاب في يدها اليسرى، قصيرة سمراء، ليس في جسدها جرام واحد لحم، ملامحها باهتة، أنفها وفمها يظهران بصعوبة في وجهها من صغر حجمهما، حتى الفستان الذي كانت ترتديه اختارت له لونًا لا لون له ما بين الرمادي والبيج، لون كالح يليق بيونيفورم مدرسة بائسة، وكانت تحتسي قدحًا من الشاي. ما الذي جعلني في ذلك اليوم أهيم بها؟ وما الذي يجعلني حتى هذه اللحظة أدور في فلك حبها؟ لا أعلم. حاولت أن أقترب ولكن كانت تفرض سياجا من الصرامة، حول المائدة الجالسة إليها، حتى ظهرت مادلين وهي صديقة مشتركة تحمل في يديها الشعلة. وتركت التنس منذ هذه اللحظة، وحتى عودتنا من باريس بعدها بست سنوات.

✧ ✧ ✧

وصلت العائلة إلى مونتريال وكانت في انتظارهم مفاجأة غير مناسبة على الإطلاق لما كانوا يرتدونه. فدرجة الحرارة كانت مرتفعة والرطوبة خانقة، بدأت العائلة في خلع كل ما كانوا يلبسونه من دروع واقية. كانت ماري أخت نيفين قد حجزت لهم في فندق باريس في وسط مونتريال، مبنى تاريخي تم إنشاؤه في عام ١٨٦٥

على بعد خطوات من حديقة لافونتين الرائعة وليس بعيدا من الحي القديم. لم يستطعوا التحرك في اليوم الأول من إرهاق الرحلة.

كانت العائلة قد وصلت إلى مطار القاهرة في الثانية عشرة مساء، وتأخرت الطائرة قليلًا عن موعد إقلاعها قرأوا خلالها الصحف في قاعة الانتظار في المطار. ثم بدأت الرحلة من القاهرة إلى باريس وكانت مدتها أربع ساعات ونصف الساعة، وفي باريس بدأ الانتظار القاتل لمدة خمس ساعات حتى موعد إقلاع طائرتهم. ثم الطيران من باريس إلى كندا لمدة سبع ساعات ونصف الساعة. علقة ساخنة. أخذت نيفين معها عدة كتب للقراءة في الطائرة، أما نبيل مثله مثل كارول فقد اكتفيا بالـ (PSP). هو كان يلعب(Pro Evolution Soccer) أما هي فقد كانت تلعب(Little Aid)، مايكل نام معظم الطريق، وكان يستيقظ ليأكل ثم يستأنف النوم، سيلفيا الجميلة الحالمة ظلت تسمع أغاني عاطفية كانت قد أضافتها حديثًا إلى العشرين جيجا من الموسيقى والأغاني المحَمَّلة على جهاز الـ(Ipod) الخاص بها، كانت تستمع إلى هذه الأغاني وهي تحلم بتيمور حبيب القلب.

استيقظوا مبكرا في اليوم الثاني، وتوجهوا في أول زيارة لهم في كندا إلى جامعة «ماكجيل» التي كانت لا تبعد كثيرًا عن فندق باريس الذي يقيمون فيه. فقد ذهبوا سيرًا على الأقدام. وماكجيل جامعة تقوم بالتدريس باللغة الانجليزية في قلب مونتريال الفرنكوفونية. تم تأسيسها عام ١٨٢١ على يد تاجر إسكتلندي يدعى جيمس ماكجيل. شهقوا انبهارًا لحظة دخولهم من البوابة التي تتوسط سورًا تاريخيًا لحديقة عملاقة. فالجامعة قصور متفرقة بين حدائق

خضراء. دخلوا أحد تلك القصور القديمة وقابلوا موظفة ذات مواصفات صينية قياسية أعطتهم بعض المعلومات عن الجامعة: بلغ تمويل عملية البحث العلمي لعام ٢٠٠٥/٢٠٠٦ مبلغ ثلاثمائة وسبعة وتسعين مليون دولار. وينتج عن هذا التمويل حوالي مائة اختراع سنويًا. يأتي طلبة الجامعة هذا العام من مائة وأربعين دولة. وتدرس الجامعة ثلاثمائة تخصص دراسي وعلمي. ولديها أساتذة على أعلى مستوى علمي في العالم يشاركون مشاركة إيجابية في عملية تطوير العلوم في دولة كندا. ثم بعدها أخذوا جولة تفقدية في أنحاء الجامعة وفي تخصصاتها المختلفة.

✦ ✦ ✦

حاجة تغيظ.. كلية الطب هنا بالذات تغيظ جدا. إيه اللي إحنا فيه ده؟ أبويا كان بيحلف لي إن طب القصر العيني على أيامه كانت أفضل من الجامعة اللي كمل فيها في إنجلترا. أنا فاكرة لما سافرت أول مرة سنة ١٩٧٥ لفرنسا. سعر التذكرة رايح جاي كان بحوالي مية وأربعين جنيه. زرت مرسيليا كانت أوحش ميت مرة من الإسكندرية. زرت بعدها إيطاليا بلد غلبانة ومصر أفضل منها. ومفيش داعي أتكلم عن اليونان. رحتها سنة ٧٦ كنا بالنسبة لها دولة عظمى. دلوقتي الفرق بينا وبين اليونان ما يتحسبش من العمر على رأي سومة.

المدهش في كندا إني ما حستش لحظة إني غريبة. الناس في الشارع من كل ملة ولون. الناس ماشية لا لابسة قصير ولا طويل، ولا لابسة صليب ولا محجبة، ما حدش بيبص لحد. ركبت مترو

والمترو كان زحمة وكنت لابسة قصير علشان أنتقم من اللي بيحصل لي في مصر.. ما لقيتش واحدة بتديني فجأة دروس في العفة. وكمان مش حاسة بغربة. مصريين كتير وهنود ومغاربة ويونانيين ولبنانيين وسوريين وعراقيين وهيسبانو من أمريكا الوسطى والجنوبية. كلهم شبهنا. في باريس مثلا أو في لندن وفي روما باحس إني أجنبية وإني سمراء وكالحة يعني إلى حد ما مرفوضة. هنا لأ. هنا الأسمر أسمراني على كل لون.

✧ ✧ ✧

عادت العائلة من كندا في أوائل شهر أغسطس في حالة انبهار بما شاهدوه. ثم سافروا بعدها ولمدة أسبوعين إلى منزلهم بقرية الدبلوماسيين الجديدة في الساحل الشمالي. ليعودوا وهم أشد سمرة وأكثر بهجة ليبدأ العام الدراسي للأولاد، وتنتظم بعدها دورة الحياة للعائلة. نسى الجميع موضوع الهجرة إلى كندا. فالأوراق في السفارة الكندية تأخذ وقتًا طويلًا قد يصل إلى ثلاثة أعوام. وبدأت نيفين تدريجيًا تقتنع أكثر وأكثر برأي أبونا إسطفانوس أنه لا معنى لترك الوطن، كما اقتنعت برأي نبيل الذي كان يقوله منذ البداية أن أوراق الهجرة إلى كندا ضرورة حتمية بالنسبة إليهم كترتيب للهروب في حالة الكارثة، أما لو لم تحل، فالبقاء أوقع.

✧ ✧ ✧

حسين يسري كان أول واحد من شلة التنس يعمل خطة الهروب البديلة للحظة الفيضان. كانت سنة ١٩٨٨، بعد ما مبارك جدد

لنفسه تاني، أصله أول ما مسك الحكم سنة ٨١ قال هي فترة واحدة وكفاية. فوجئنا بعدها بحسين راح يقدم أوراق الهجرة لنيوزلندا. قال لنا بشكل مسرحي:

«ذاهبٌ أنا إلى جزيرة الأحلام.. أرضُ السعادة والبهجة وسوف أترككم هنا في أرض الشقاء والعكننة».

قعد في موضوع الأوراق دي كتير وقعدنا نعد معاه النقط اللي حياخدها من تعليمه وسنه وشغله وولاده. ومن وراه كنا بنتريق عليه تريقة فظيعة ونقول والله رجعنا عيال تاني ونعد النقط اللي كانوا بيوزعوها علينا المدرسين وكأنهم بيوزعوا من لحمهم الحي. لكن في الآخر لمّ حسين نقط أكثر من المطلوب وخد تأشيرة الهجرة. اضطر بعدها يسافر لغاية هناك علشان يخلص كل أوراقه. رحلة لآخر الدنيا.. طيران لمدة ثماني وعشرين ساعة. وماعرفش ليه قرر يروح على مدينة اسمها «كريس شيرش» يعنى كنيسة المسيح. طلع الأول على العاصمة «ويلينجتون» ومن هناك على «كريس شيرش». رجع بعدها بثلاثة أسابيع وقال لنا: «كله تمام يا رجالة. اللحمة بالهبل والأمن الغذائي مضمون. نيوزلندا فيها حوالي أربعين مليون رأس غنم وماشية وفيها حوالي ثلاثة مليون بني آدم. يعني شعبها كله ممكن نزنقه في شبرا. ونهجم احنا على الخرفان بتاعتهم هتتك بتتك. بس المصيبة إني مضطر أسافر كل سنة علشان أمضي حضور زي في القطاع العام».

طبعا ماكانش عنده أي نية للهجرة إلا في حالة المصيبة. الإخوان يمسكوا الحكم، تقوم ثورة جياع، السعودية تحتلّنا تاني، أهه أي

مصيبة وخلاص. وأهو لسة متلقح في النادي بيسبوره النيوزلندي. طبعا كمّلنا ضحك على حكاية نيوزيلندا لمدة سنين وسنين وهو يقول لنا (A plan B is a must for us) «الخطة البديلة ضرورة حتمية» إنتم اللي أغبياء.

أدركنا غباءنا بعده بأكثر من عشر سنوات. ماجد كرلس كان تاني واحد.. أخد الجنسية الأمريكاني، يونس فاضل اتجوز مغربية عندها الجنسية الفرنسية، وخد الجنسية الفرنساوي وماشي فرحان بالباسبور النبيتي. جورج ميخائيل قدم على النيوزيلندي هو كمان وخدها. أما صديقي طلعت ذهني فده حكايته حكاية. أنا مش عارف دلوقتي قاعد في أنهي مصيبة.. واحد وراء واحد.. النهاردة كل الشلة واخدة جنسية احتياطي. وحطة رجل في البلد ورجل في المطار وعند أول بمبة تفرقع كله حيخلع رهوان. مفيش استثناء واحد وحيد إلا العبد لله. أنا كنت آخر الرجال الأغبياء. مش عارف ليه؟ أظن من كسلي أو من خيبتي أو لأني باحب الرهان على حد السكين بس إحنا خلاص بقينا على حافة النصل وكان لازم أبدأ في إجراءات الهجرة لكندا إنما كخطة بديلة فقط لا غير.

✦ ✦ ✦

ـ آلو إزيك يا تيمو؟

ـ إنتي اتجننتي الساعة اتنين الصبح.. حتروحي المدرسة إزاي بكرة؟ ميت مرة أقول لك لازم تنامي بدري.

ـ طيب ما قفلتش الموبايل ليه؟

ـ مستنني تليفونك.

ـ يا سلام.. أنا ما جاليش نوم.. قلت أكلمك.

ـ سيلفيا أنا نسيت أقول لك إن أنا بكرة بعد المدرسة عندي بطولة اسكواش في المعادي. حتبدي الساعة ستة.. ممكن تيجي؟

ـ وأقول لهم رايحة المعادي ليه؟ وبعدين بكرة التلات السواق مع مايكل علشان عنده درس في السنتر بتاع شارع سوريا.

ـ أنا بحبك.

ـ إيه الشجاعة دي واضح إنك نايم.

ـ اشمعنى بتقولي لي إنتي بأحبك ميت مرة في اليوم.

ـ مش أنا المجنونة وانت العاقل.

ـ ما العاقل ممكن يتجنن الساعة اتنين الصبح بس ما تعتمديش كثير إن الحكاية دي ممكن تتكرر.

كان تيمور ومنذ اللحظة الأولى لميلاده طفلًا هادئًا ومهذبًا ومريحًا. كان ينام في مواعيد منتظمة ولفترات طويلة، حتى إن والديْه تساءلوا: لماذا يشتكي الجميع من الأطفال؟ ومنذ التحاقه بالمدرسة احتل المرتبة الأولى على الفصل، وظل متمسكا بها ولم يسلم الراية أبدًا لأي زميل عبر حياته المدرسية اللهم إلا في آخر عام من المرحلة الإعدادية، عندما سافر أبوه إلى دولة قطر للالتحاق بوظيفة هناك. فقد ارتجفت قبضة يده الممسكة بالراية واهتز العلم من يده وفقدت المرتبة بعضا من قطنها الذي رحل مع والده على

متن الطائرة المتجهة إلى الدوحة ليستقر ويدعم الرخاء القطري. لكن منذ التحاقه بالثانوية الانجليزية لم يحصل أبدًا في أي مادة على درجة أقل من الـ A.

ومنذ بدء العام الدراسي الأخير لسيلفيا وتيمور.. قررًا أخيرًا وبعد سنوات من الحب الصامت والمستتر أن يصرحا بحبهما. كانت سيلفيا هي السباقة في التلميح ثم التصريح. ولكن فرض تيمور ومنذ اللحظة الأولى قواعد عقلانية صارمة على العلاقة. ورفض محاولات سيلفيا المجنونة لاستدراجه إلى أي مغامرات تخرج عن السياق شديد التهذيب الذي يعيش فيه. ووقف لها بحسم ليلة محاولتها تقبيله في النادي، عندما كانا يجريان في الجولف حول مضمار التريض لاكتساب مزيد من اللياقة البدنية. وناقشها بكل حب أن ذلك ليس من حقهما الآن، وحاولت أن تقنعه أنه يجب عدم تأجيل شعور اليوم إلى الغد، وأن ذلك من تعاليم السلف الصالح. لم يخضع تيمور لهذه التأويلات لكلام السلف الصالح. فهو شاب شديد الالتزام، الخط الفاصل بين الصواب والخطأ لديه عريض جدًّا وواضح جدًّا تم تحديده بكلام الوالدين والمدرسين ولم يتخطه أبدًا. إلا في قصة حبه لسيلفيا.

يتساءل تيمور يوميًّا في صباحه ومسائه هل من حقه أن يحب؟ وعندما يهتز قلبه للإجابة بإيماءة نعم يأتي فورا السؤال التالي: هل من حقه أن يحب مسيحية؟ كان هذا السؤال الأخير يقضّ مضجعه ويؤرق حياته خصوصًا أنه لم يكن يريد أن يطرح هذا السؤال بالذات على أمه، وألقى بآلاف الآهات والتأوهات على غربة أبيه الذي يحتاجه اليوم أكثر من أي يوم مضى. فكر أن يحكي له عبر الانترنت.

فهما يتواصلان كل يوم من خلال برنامج سكايب ويتحدثان لفترة بالصوت والصورة. ولكن برودة الشاشة التي تفصلهما تلقي بثلوجها على قلبه ولسانه وتمنعه من أن يكون طبيعيًا تمامًا.

✦ ✦ ✦

تيمور هو وبدون مبالغة خالص أحسن ولد في الدنيا. مؤدب وجميل وشاطر ورياضي وجسمه حلو وشعره حلو وبيجيب في كل المواد «ستار». ندا صاحبتي بتقول لي إن «لوجان هانزبرجر» اللي حبته «روري جلمور» في مسلسل (Gilmore Girls) هو أجمل ولد في الدنيا بشعره الأصفر وعيونه السود وإن ظفر واحد من لوجان برقبة تيمو. فهو (everything you could ever want in a guy)، قلت لها إن انا باموت في المسلسل ده لكن تيمور أجمل منه ميت ألف مرة. واتخانقنا إمبارح وقالت لي إن أنا عمياء فقلت لها إنها حمارة. وبعدها قعدنا نضحك. وفي الآخر الموضوع قلب غم لما فتحت معايا موضوع إذا كنت ممكن أَسْلَم علشان أتجوزه. قالت لي كمان إن أمها وأمه بيروحوا دروس دين اليومين دول ولو عرفت إنه بيحب واحدة مسيحية حتموته.

أنا حقيقي مش عارفة حاتصرف إزاي. ما أقدرش أبقى مسلمة.. ده أكيد. لكن حاجيب واحد مسيحي أحبه منين. هو الحب بالريموت كونترول. ما الفصل أغلبه مسلمين والنادي أغلبه مسلمين واللي باشوفهم في مدارس الأحد وفي رحلات الكشافة غلسين أو مش غلسين المهم إني ماحبتش ولا واحد منهم. أنا حبيت تيمور وبس.

أنا في كارثة ومش عارفة أتصرف إزاي.. بس الحب أهم من الكارثة وأهم حاجة في الدنيا.

✦ ✦ ✦

ولأن الحب بالنسبة إلى سيلفيا أهم من الضغوط التي يفرضها المجتمع وأهم من رد الفعل العنيف المتوقع من والديْها، فقد استطاعت إقناع مايكل بالذهاب في سيارة حسين زميله في الفصل إلى مركز «البسملة للخدمات التعليمية» فهما يرتادان هذا المركز مرة في الأسبوع لتلقي درس في مادة الكيمياء مع أستاذ شهير في هذه المادة حتى تستطيع هي الحصول على السيارة المخصصة لهم والتوجه إلى نادي المعادي لمشاهدة مباراة تيمور في الاسكواش. يلعب اليوم مع أحد أبطال العالم تحت سن الـ ١٧ سنة وقد صممت على الذهاب بعد أن شعرت برغبته الحقيقية في حضورها، وهو أمر نادر الحدوث مع شخصيته المتحفظة. دخلت حجرتها وأغلقت الباب بالمفتاح، ثم حاولت فتحه مرتيْن متتاليتيْن للتأكد أنه محكم الإغلاق. وبعد أن تأكدت أن لا أحد يمكنه أن يقتحم حريتها تنفست بعمق الأكسيجين الذي لا يمكن أن يتنفسه غيرها، فتحت دولاب ملابسها على مصراعيْه وقررت أن ترتدي «ترنينج سويت» قرمزي اللون كانت قد اشترته من مونتريال منذ ستة أشهر وتذكرت كلمة البائعة الهندية عندما سلمتها الكيس: «هذا ترنينج يمكن أن تحضري به فرحًا وتكوني به أجمل المدعوات».. ولكن بعد أن ارتدته قررت أن تجرب بنطلون جينز أنثويًا تتدلى منه مجموعة سلاسل مكونة من حبات لولي كانت قد اشترته من فلورنسا مع

تي شيرت من «مانجو» جاءها هدية من صديقاتها في عيد ميلادها. ولكنها لم تقتنع تمامًا بالفكرة بعد أن تأملت نفسها بعناية أمام المرآة. وبعد نصف ساعة كان الدولاب قد خلا تمامًا من الملابس التي امتدت وتلامست وتعانقت على أرض الغرفة لتشكل سجادة زاهية الألوان. لكن بعد أن نظرت إلى ساعتها ارتدت من فورها الترنينج القرمزي ووضعت على شفتيْها (Gloss) «ملمع شفاه» ولم تعرف في لهوجتها أي بارفان تحب أن يستنشقه تيمور عندما تقترب منه خلسة، فأخذت معها أكثر من قنينة عطر ولكنها توقفت قليلًا قبل اختيار حقيبة مناسبة، وعندما لم تجد قررت أن تشتري واحدة بسرعة في طريقها إلى المعادي. خرجت جريًا وفي نيتها أن تمر على الصيدلية لتقترض مائة جنيه لشراء الحقيبة ولم تعر أخويها الجالسين أمام التلفزيون أي التفاتة وخرجت من الشقة بنفس سرعة خروجها من باب حجرتها. أنزل مايكل ساقه المتكئة على المائدة ليستطيع الالتفات إلى الخلف ليرى مصدر الصوت. ولمح يد أخته وهي تصفع الباب خلفها. خفّض من صوت التلفزيون «بالريموت كونترول» الذي لا يفارق يده في أثناء وجوده في غرفة المعيشة ونظر إلى أخته نظرة غضب.

ـ لازم أقول لمامي.. العبيطة فاكرة ان ما حدش عارف.

ـ لو قلت لمامي حأموتك..

ـ سيلفيا بتعمل حاجة غلط وغلط وغلط .. وهي عارفة كدة كويس.

ـ ما هي علشان عارفة.. يبقى تسيبها لغاية ما هي تحل مشكلتها بنفسها.

ـ على الأقل لازم نقول لها إن إحنا عارفين.. والنادي كله عارف حكاية الهبلة دي.

ـ علشان خاطري يا مايكل سيبها في حالها وأنا واثقة إن هي حتعرف تحل مشكلتها.

✦ ✦ ✦

وصلت سيلفيا إلى باب نادي المعادي في الساعة السادسة والنصف مساء والليل في بداية انتصاره اليومي الممل على أشعة الشمس الغاربة. نزلت مسرعة فقد تأخرت عن حبيب القلب نصف ساعة كاملة. أبلغها السائق أنه سوف يعود بعد ساعة لتغيير زيت السيارة ولملء خزان الوقود وسوف ينتظرها أمام النادي. انطلقت إلى البوابة فأوقفها الحارس لطلب بطاقة العضوية.. شرحت له حكايتها ولكنها لم تدخل في تفاصيل رنين نبضات قلبها لمن يلعب الآن داخل هذا النادي. ولكنه رفض السماح لها بالدخول. فسألته عن إمكانية شرائها تذكرة دخول، وحينها اكتشفت أنها تركت حقيبتها الجديدة في السيارة وبها قنينة العطر. بحثت عن السائق ولكنه كان قد اختفى. فكرت أن تطلب من أحد الواقفين استعمال هاتفه للاتصال بالسائق.. حاولت أن تتذكر رقم هاتفه دون جدوى.. هل من المعقول أنها لا تعرف رقم السائق الذي تتصل به عشرين مرة في اليوم؟ قررت أن تحاذي سور النادي لمحاولة الوصول إلى بوابة ثانية. سارت في شارع النادي والسور عن يسارها وبعد أقل

من دقيقتين من السير كانت وكأنها انتقلت من عالم إلى عالم. فقد كان ميدان النادي يعج بالناس وبالصخب وبالسيارات والآن لا أحد هناك. وفي لحظة تسرب القلق إلى عقلها انشقت الأرض عن ثلاثة من الشباب قرر أحدهم أنه لا وقت هناك فغرف بيده قطعة مستديرة من مؤخرتها. صرخت، وفي أقل من ثوانٍ معدودات توقفت سيارة بوليس وأقلتهم جميعًا إلى قسم الشرطة.

✧ ✧ ✧

لو جالي ملاك من السما وسألني إيه أسوأ كابوس ممكن يجيلي.. أو أبشع شيء ممكن يحصل في دنيتي، الأرجح إن خيالي ماكانش ممكن يوصل لمصيبة زي ده. طول عمري بأسأل يعني إيه القشة والظهر والبعير. ودلوقتي بس فهمت إن أنا البعير ومصيبة الحب دي هي القشة. أنا حاسة إن ظهري مقصوم.. سيلفيا قصمت لي روحي خلاص. النهاردة أول يوم في حياتي أعتذر عن العيادة. وأنا رايحة القسم كان صوت مايكل وكأنه شريط عمال يتعاد في وداني.. «أصل سيلفيا يا مامي بتحب واحد مسلم معاها في الفصل، واحتمال علشان كدة خدوهم على القسم».. أحاول أكلم الباشا.. الباشا طبعا بيلعب تنس زي عوايده، وقافل موبايله وتتحرق الدنيا باللي فيها.. المهم مزاج سموه ما يتعكرش.. وزميله ما يخسَّروش الجيم. أنا خلاص حاموت لو عشت في البلد دي دقيقة كمان. من أسبوع واحد لما جالي الفلاح ده وقال لي إنهم ماتوا في المركب ما كنتش مصدقة إن فيه حد في العالم ممكن يعمل كدة في نفسه. قلت عليهم مجانين، ما أنا نعرة أمي الإقطاعية أوقات بتلحس دماغي،

بس أنا دلوقتي مستعدة أموت أنا وسيلفيا في مركب علشان أوصلها لبر الأمان.

✦ ✦ ✦

كان الثلاثاء ٢٨ من فبراير ٢٠٠٦ هو التاريخ الذي كتبته نيفين بعد عودتها من قسم شرطة المعادي في مفكرتها ليكون التاريخ الفاصل والحاسم في قرارها الهجرة الفورية من مصر إلى كندا.. وبعد أن وضعت القلم على الوسادة الخالية لزوجها الذي لم يكن قد عاد بعد.. بدأت في الاتصال بأقاربها في كندا للتفكير في حل عملي لإرسال ابنتها من فورها إلى هناك على أن تقوم بامتحانات آخر العام في كندا. ظلت تلهث كالمجنونة وراء أي حل للخروج بابنتها من هذه الكارثة التي حلّت بهم. عاد نبيل إلى المنزل هادئ البال فافترسته نيفين بوابل من اللافا البركانية التي كانت تموج بصدرها. فما كان منه إلا أن أكد لها أن الأمر عادي جدًا وأن سيلفيا ما زالت مراهقة وسوف تحب الواحد تلو الآخر، وأن قلب المراهقات كالخرشوفة مع كل شروق شمس يوم جديدة تبزغ ورقة جديدة.

أشعل هدوؤه غضبها. تطاير دخان المعركة من حجرة النوم إلى حيث تقنفذ مايكل وكارول في غرفة المعيشة. جلسا في صمت بين الصراخ القادم من يسارهم والبكاء القادم من يمينهم. كتمثالين من الشمع يكادان أن ينصهرا من فرط الرعب. حاولت كارول أن تنهض أكثر من مرة لتذهب لمواساة أختها وحبيبتها ولكنها نسيت أنها تمثال غير قادر على الحركة. وأمام عجزها المطلق فوجئت بسيلفيا تفتح باب حجرتها وتتجه إليها وتحشر جسدها الصغير في

المساحة المحدودة الخالية من المقعد. كانت سيلفيا في حالة من الرعب، عاشت مرة جديدة ظهيرة يوم ٢٥ من مايو ٢٠٠٥، عندما تحرش بها الشباب في وسط القاهرة، وتملكتها حالة الغزال لحظة الانقضاض الأخير للضبع على الدائرة البنية الجميلة أسفل جيدها. لم تلحظ أمها حالة الهلع التي تسكن حدقتيْها.

✦ ✦ ✦

نظر مايكل إليها وحادثها بعينيه:

أنا عارف يا سيلفيا إني غبي. كل الناس بيقولوا عليَّ غبي.. باذاكر زي الحمار وبانجح بالعافية.. وفي الفصل أنا آخر واحد بيفهم اللي المدرس بيقوله. أستاذ عبد الرسول بيقول عليَّ إني فاضل لي التنهيقة وأبقى حمار برخصة.. لكن أنا أول مرة أعرف بجد إني غبي كان النهاردة.. كارول قالت لي أوعى تقول لماما وأنا أتدلقت زي الجردل وقلت لها على تيمور.. لما كلموني من القسم اترعبت عليكي وقلت أكيد اتقبض عليكي علشان الحكاية دي.. من ساعة ما رجعتي يا سيلفيا وصوتي مش طالع وانتي مش عايزة تبصي في وشي ومش عايزة تكلميني. عايز أقول لك إني خفت عليكي ومش قادر أتكلم.

✦ ✦ ✦

كانت ليلة فارقة في حياة العائلة. قرر نبيل ونيفين بعد أن هدأ وطيس المعركة أن تظل سيلفيا في مصر حتى الانتهاء من امتحانات الآي جي. وبعدها مباشرة تسافر إلى كندا أو الولايات المتحدة

للالتحاق بالجامعة هناك. وأنه حتى تاريخ السفر تظل تحت متابعة مباشرة من أحدهما. وأن عليها أن تذهب إلى الكنيسة يوميًا ولو لمدة ربع ساعة كي يتفتح قلبها بالإيمان. كما حددا يوم الجمعة التالي للذهاب جميعا إلى «أبونا إسطفانوس» للاعتراف وطلب المغفرة عن الخطايا ولكي يطلبوا من «أبونا» أن يصلي من أجلهم حتى يتمجد فعل الرب في الاختيار الصالح لهم ولسيلفيا، وأن يطلبا من «أبونا» تمني الهداية لابنتهما. لم تنم العائلة ليلتها وظل نبيل يقوم باتصالات هاتفية دولية إلى أصدقائه في الولايات المتحدة وكندا للحصول على أي معلومات قد تكون مفيدة بخصوص الالتحاق بالجامعة.

فجأة قفز إلى ذهنه صديقه طلعت ذهني المقيم في الولايات المتحدة منذ أكثر من ستة أعوام.. فهو الوحيد الذي لا يعرف ماذا يفعل بكل هذه الدقائق والساعات الممنوحة له من الله يوميًا. يود لو يقلصها فهي أكثر من احتياجه ويدخرها لصرفها من بنك الزمن بعد عودته إلى مصر مرة أخرى. تذكر أنه التقى بزوجته وأطفاله في النادي منذ أيام وقام بتسجيل رقم هاتفه الأمريكي.

«طلعت ذهني» فكرة ممتازة..

✧ ✧ ✧

طلعت مش بس جدع وفاضي وصايع وما وراهوش لا شغلة ولا مشغلة، الأهم من كل ده إنه مكنة علاقات اجتماعية.. يعرف طوب الأرض. بقاله ييجي ست سنين في أمريكا وقرَّب يتعرف على الثلاثمائة مليون اللي هناك. بعد ما صاحب وحب وتعرَّف

على السبعين مليون اللي هنا واحد واحد. باين عليه كان بيسخّن هنا علشان يروح يقزقز الشعب الأمريكي كله، وربنا يستر ما يدخلش بعد كدة على الشعب الصيني الشقيق.. طلعت أسطورة في حكاية العلاقات الاجتماعية والإنسانية. لو كلمت أختي اللي في هيوستن حتحتاس. متلقحة في الشغل طول النهار ونايمة طول الليل. حاجة غلب. أما طلعت فأنا ما استبعدش إن تكون صاحبته الأنتيم رئيسة جامعة هارفارد.. حيكلمها ويقول لها «دخّلي سيلفيا الجامعة أرجوكي يا دكتورة درو فاوست» حتقول له الأستاذة فاوست إنت تؤمر يا طَلعُتّة، وبعدها يشوف لها كمان زوج قبطي واخد الجنسية الأمريكاني ومليارديرٍ وشكله حلو ويموت في حبها. طلعت بيخلّص.

عملنا نفسنا نايمين أنا ونيفين وقفلنا النور ولسة قاعدين في ضلمة كاملة بسببك انتي يا سيلفيا يا حبيبتي.

طلعت ذهني

كانت مفاجأة مذهلة.. كنت قاعد مع واحدة جديدة من الصين الشعبية مش عارف اسمها إيه ولسة بتقلع السوتيان علشان ترقص لي على «انت عمري».. لقيت الموبايل بيرن. نبيل شاروبيم حتة واحدة.. قعدت أصرّخ في التليفون. البنت افتكرتني مجنون. قلت له معايا حتة تستاهل بقك.. لقيته جد جدا، فهمت إن عسكري المرور معاه. وبعدها فهمت المشكلة.

أنا أكثر حاجة خضتني مش أن سيلفيا بتحب مسلم لكن إنها بتحب أصلا. لما سافرت من مصر كان عندها عشر سنين وكانت تدي سبعة بالكتير. وشها بيبي خالص.. يوم ما اتولدت أنا فاكره زي امبارح.. كان في أول فبراير.. قلت لازم أدخل عليهم إيدي مليانة.. لفيت على المحلات في الزمالك وانا متكتك من البرد.. ورحت جايب هدية بالطو شتوي معتبر. قعدوا يتريقوا عليَّ من كتر البالطو ما كان كبير. نبيل يوميها قال لي: «ده بالطو ينفعها لما تتجوز بعد عمر طويل»... معقولة العمر الطويل مر بالسرعة دي.. والبت المفعوصة بتحب. يا نهار أبيض.. ده احنا باين علينا عجزنا قوي.

✦ ✦ ✦

توجه طلعت إلى المرآة ليتطلع إلى التجاعيد التي بدأت تظهر أسفل عينيْه، وإلى الشعر الأبيض الذي صال وجال وتسيد وانتهى الأمر. لكم تدهور حال جسده في الأعوام الأخيرة. لم يفكر لحظة في الكهولة، كيف يمكنها أن تجرؤ على طرق بابه وهو الذي يواظب على ممارسة الرياضة كما لم يفعل أحد. ساعتان من التنس يوميًّا، وساعتان في الجيمنيزيوم ما بين تمارين رياضية وساونا. لكن الكهولة الغادرة لم تكتف بطرق الباب ولكنها دخلت وجلست وتربعت. لم تكن السنون التي يحملها طلعت ويجري لاهثًا بها قد ارتطمت بعد بحائط الخمسين، ولكنه لم يكن يعترف أبدًا بسنه، كان يصرخ في المرآة وحيدًا: «أنا في كامل قواي». لمح الفتاة الصينية في المرآة مستلقية على الكنبة التي كانت تستحوذ على ثلث غرفة المعيشة ترشف من كأس ويسكي وتتابع في صمت فيلمًا إباحيًّا صامتًا يعرض على شاشة الـ سي دي ٦٠ بوصة تحتل الثلث الثاني من الغرفة، أما الثلث المتبقي فترقد فيه مائدة مستطيلة كبيرة تتوسط الكنبة والتلفزيون. كان قد فقد تمامًا اهتمامه بها وبالمكان. هتف: يلعن أبو الغربة والاغتراب. دفع لها عشرين دينارًا وطلب منها الرحيل. قامت وارتدت ملابسها وقبلته في منتصف الدائرة الصلعاء في أم رأسه وخرجت. أغلق جهاز الدي في دي وتوجه إلى الأي بود وقام بتشغيل أغنية لمحمد عبد الوهاب وجلس وهو في حالة سكر بيِّن نصف عار يستمع للأغنية:

وطني حبيبي الوطن الأكبر

يوم ورا يوم أمجاده بتكبر وانتصاراته مالية حياته

✦ ✦ ✦

لم يبلغ طلعت ذهني صديقه الحميم نبيل أنه انتقل منذ أسابيع قليلة من الولايات المتحدة إلى الكويت. فقد أجَّل إبلاغ هذا الأمر إلى عائلته وأصدقائه حتى يطمئن إلى أن القرار كان سليمًا، وأنه سوف يتمكن من الاستقرار هناك. لم يفكر يومًا في السفر إلى الكويت أو حتى زيارتها ولكن كان إصرار صديقه العراقي «شوكت ثائر» هو السبب وراء هذا الانتقال عبر المحيط الأطلنطي.

أقام شوكت ثائر في مصر لمدة قصيرة عمل خلالها في بنك فيصل الإسلامي، في الإدارة نفسها التي كان يعمل بها طلعت، وتوطدت صداقتهم في هذه الفترة عندما كانا يتواجهان تسع ساعات صباحًا، ويتشاركان في النساء والحشيش مساء. عاد بعدها شوكت إلى العراق ثم اضطر إلى الفرار من جنون صدام المطبق. حصل على حق اللجوء السياسي في هولندا وعمل هناك في المجال المصرفي قرابة خمسة عشر عامًا وفي النهاية قبض بيد من فولاذ على الجنسية الهولندية. وفي ضربة من ضربات الحظ المبهجة حصل على عرض لا يمكن رفضه للعمل مديرًا لبنك في الكويت بالطبع باعتباره هولندي الجنسية يتقن العربية. لم تنقطع الصلة بين شوكت وطلعت طوال هذه الفترة. ولمعرفة شوكت بظروف طلعت في الولايات المتحدة، أدرك أنه الشخص الأنسب ليعرض عليه الحضور لإنشاء شركة مع شريك كويتي، على أساس أن يكون طلعت الشريك على الورق لحصة شوكت في الشركة فهو لا يمكنه في موقعه مديرًا للبنك الذي سوف يقوم بتمويل الشركة الظهور رسميًا شريكًا في هذه الشركة. وافق طلعت على مضض بعد اتصالات دامت أكثر من شهر.

✧ ✧ ✧

استقبلته في مطار الكويت مشرعًا أذرعي، فاتحًا فمي لحده الأقصى، مطلقًا جلجلات الفرحة به، ولكنني وجدته كما تركته في الولايات المتحدة منذ عام في حال لا تسر.. قام بتركيب رقم ثمانية ثلاثي الأبعاد خشبي الملمس على حاجبيْه من أعلى،ليترك إحساسًا وحيدًا على خلقته هو شعوره بالاكتئاب. أنا لم أعرف شخصًا في حياتي في عشق هذا الطلعت لوطنه.. كلنا خرجنا ابتهجنا، وهو منذ أن خرج من القاهرة وهو لا يقوم بعمل شيء لا يقربه من لحظة عودته إليها.. تصورت دائمًا أن مقولة «إن من يشرب من ماء النيل لا بد أنه عائد إليه مرة أخرى» مقولة عنصرية لا معنى لها حتى شاهدت بعيني أنه لا يوجد ماء في هذا العالم، يمكنه أن يروي ظمأ طلعت إلا مياه هذا النهر. فهذا المسكين في حالة ظمأ دائم. ظمأ لأخبار المحروسة، يقضي معظم نهاره يتصفح الانترنت لمعرفة دقائق الأحداث في القاهرة.. عندما عرفته في بنك فيصل لم أكن أتصور أنه بهذه الرومانتيكية، بالأمس كان في منزلي للعشاء، تلقى مكالمة هاتفية من صديق له في القاهرة وفي أثناء الحديث أخبره صديقه بأن حادثة سيارة، أوقفت شارع عباس العقاد لعدة ساعات ليلة أمس، أغلق الهاتف وهو في حالة غضب حقيقية.. كيف لم يعرف هذا الخبر بالأمس؟ هو يريد أن يشعر أنه لم يغادر القاهرة ولا لحظة في حياته، فما بالك لو علمت أنه لا يستطيع العودة، وأن قدمه لم تطأ أرض مصر منذ أكثر من ستة أعوام، يا له من تعس.

حضوره إلى الكويت أسعدني كثيرًا، فأنا أحب حقيقة هذا الرجل، وأنا واثق من أن الحياة في دولة عربية سوف يسعده هو

الآخر على الرغم من التردد الكبير الذي أبداه حتى اتخاذه قرار الحضور إلى الكويت.

✦ ✦ ✦

أنا جيت الكويت لإني ما بقيتش طايق أقعد في أمريكا. أنا سافرت من مصر على أساس إن أنا أقعد بالكثير (3 months) وأرجع تاني (Egypt). عمري ما اعتبرت نفسي مقيم هناك. علشان كدة أن باجمع صلواتي. فأنا في حالة سفر مؤقت ومن حقي شرعا أجمع الصلوات. وفضلت على دا الحال من ساعتها. ده طبعا غير أن الحياة في الـ (US)أصبحت غالية جدا عليَّ. في الأول كنت قاعد في منهاتن علشان دي المدينة اللي فيها الـ (lycee)، المدرسة الفرنسية اللي بيدرس فيها أولادي في مصر، قلت يكملوا دراستهم معايا وفي الصيف نرجع مع بعض. رجعوا همَّ واتنفيت أنا. مانهاتن كانت العيشة فيها مهولة.. غالية جدا.. الشقة أم ٥ آلاف (us)في الـ (month) أودتين مفيهومش دواليب. الدواليب في الـ (living). حاجة حُق كدة. دي أقل حاجة علشان تقيم في مانهاتن. أما لو طلعت قعدت في حتة بعيد شوية عن مانهاتن. ما أحكيلكش بقى على النفق الصبح وجمال أمه. كان لازم العيال ينزلوا قبليها بساعتين ونصف علشان يوصلوا المدرسة وتجيب لهم سواق الساعة خمسة الصبح. والجو عنيف.. سقعة شديدة والعيال كانوا صغيرين.

لما العيال وأمهم رجعوا.. رحت أنا على «سانتا كروز» في كاليفورنيا كان عايش هناك شريكي «أنور رمضان».. مكان بعيد

جدا بس جميل وطبعا كان أرخص كتير من مانهاتن لكن أهم حاجة إن جوها كان شبه جدا إسكندرية بلد أمي وأبويا.

إمتى حاموت بقى وأشوفهم.

✦ ✦ ✦

كانوا ثلاثة شركاء: طلعت ذهني وجمال سالم وأنور رمضان.

كان جمال الأول في الخروج، وتلاه أنور مباشرة، وصمد طلعت أربعة أشهر بعد رحيل أنور ولكنه اضطر في النهاية إلى اللحاق بسفينة نوح.

استقر جمال في لندن وحيدًا بعد أن طلَّق زوجته فجأة قبل سفره بيوم واحد، ليعلن مقاطعة نهائية مع أي خيط يربطه بهذه المنطقة الجغرافية المنكوبة. أما أنور فقد رحل مع عائلته، كاملة فبالإضافة إلى زوجته وأولاده أخذ معه والدته وخالته وسائقه والخادمة.

لا يمكن لواحد منهم أن ينسى لحظة البداية. يوم اجتمع ثلاثتهم في الأول من سبتمبر عام ١٩٩٩؛ للاحتفال بمرور عقد من الزمان بالتمام والكمال على تأسيسهم شركة الفجر للاستيراد والتصدير، ولإعلان وفاة الشركة متأثرة بجراحها من جراء طعنة نجلاء في أسفل الظهر من الحكومة المصرية ممثلة في قرارات وزير اقتصادها النابه. جاءوا إلى هذا الاجتماع مرتدين ملابس الحداد وكل منهم يعلم مسبقًا أنه لا بد أن يستعد شاء أم لم يشأ لإعداد حقيبته السامسونايت السوداء، بدلًا من أن يخرج من المنزل من

دون حقائب؛ حيث إن نزلاء السجن لا يحتاجون إلا لملابس زرقاء توفرها لهم الدولة مشكورة.

جلسوا في حجرة الاجتماعات الكبيرة التي تطل على النيل في مشهد خلاب يسحر العقول؛ فعلى اليمين كوبري الجامعة، ومن بعده كوبري عباس قاتل الطلبة، وعلى اليسار نافورة بديعة داخل النيل أمام جزيرة الزمالك حيث كان المقر التاريخي لمجلس قيادة الثورة الغابر. وأمامهم معلقة على الحائط في برواز ذهبي فخيم، الصورة التي جمعتهم في حفل تأسيس الشركة في الفاتح من سبتمبر عام ١٩٨٩ حين وقف ثلاثتهم وهم في حالة ابتسام قابضين على سكين ضخمة وهم يهمون بإنزال السكين لتقطيع تورتة كبيرة على شكل الكرة الأرضية.

✦ ✦ ✦

بدت نهاية شركتنا وخروجنا أو هروبنا من مصر بقرار حكومي في مارس سنة ١٩٩٩، صعب قوي أنسى سنة ٩٩، فوجئنا بدون أي مقدمات ولا غمزات ولا لمزات بقرار من وزارة الاقتصاد إن البنوك حتقفل الاعتمادات وتلغي تسهيل الاعتماد المستندي.

يا نهار أسود.. إلغاء الاعتماد!! فجأة كدة تلاقي قلم على قفاك وصوت يطلع لك وهو بيقول لك وهو فرحان سوربرايز (Surprise)

في كل حتة في الدنيا أي قرار يمس المواطنين بنبقى عارفينه قبلها بسنة أو سنتين ويقعدوا يدرسوه ويناقشوه علنا وبعدين

يدوا للمواطن فرصة علشان يظبط أوضاعه. إلا في بلدنا. القرار يطلع ويتنفذ في نفس اللحظة، وكأنه سر القنبلة الذرية، والغريب والمريب ان كل الوزراء بتوعنا ناس متعلمين على أعلى مستوى! مش عارف إزاي؟

إحنا كمستوردين، بنكسب بالحجم.. المكاسب الحقيقية بيعملوها بتوع الجملة والقطاعي. طبعا نظام كنا ماشيين عليه لمدة سنين وسنين بيترتب عليه مسئوليات. فالبنك كان حاطط نظام جدولة وبندفعها على دفعات وإحنا عاملين حسابنا في مكاسب البضاعة اللي لسة جاية.. وطبعا كان لدينا ديون معدومة ودفعات مش عارفين نحصّلها من تجار الجملة، ودفعات متأخرة جدا من شركات حكومية ورشاوي بنترمي هنا وهناك.. والفوائد شغالة ونار مولعة.. بس الحياة كانت ماشية.. وحجمنا كان جامد جدا ولما بتدير أصول بنص مليار جنيه.. ما ينفعش خالص الحكومة تيجي تلخبط الدنيا من غير لا إنذار ولا إحم ولا دستور.

اللي زاد وغطّى إن التوقيت ده في بداية ١٩٩٩ كان بداية وقوع الاقتصاد المصري اللي بجد واللي استمر بعد كدة بلا رحمة.. وبالتالي كانت التحصيلات ضعيفة جدا.. لأ مش ضعيفة كانت زي الزفت.. الناس ما كانتش بتدفع أصلا، كانوا مستعدين يدخلوا السجن وما يدفعوش لأن البضاعة ما كانتش بتتصرف أصلا.. ما حدش في البلد كان عنده فلوس يشتري البضاعة اللي ملت مخازن مصر من شمالها لجنوبها.

وقفت الحكومة الغبية وبنوكها وراء المستوردين اللي اشتروا

بجنون من جنوب شرق آسيا بعد ما العملة وقعت هناك.. المستوردين اللي كانوا شغالين مع بلاد زي ماليزيا وإندونيسيا وتايوان اتهبلوا وعرفوا يقنعوا البنوك تمولهم، البضاعة اللي كانوا بيشتروها بجنيه وعارفين يصرفوها في مصر لقوا فجأة ثمنها ربع جنيه. فاستوردوا بالعبيط من غير أي دراسة وفضلت البنوك تمولهم لغاية ما خلصت الدولارات اللي في البلد والبضاعة اتكدست وماحدش عرف يبيع.

عملوا أعبقر حاجة ممكن يعملوها في التاريخ، حوّلوا العملة الصعبة بتاعة البلد لوقف راكد بدل ما يمولوا مشروعات إنتاجية. زي بالضبط ما عملوا في الساحل الشمالي لما دفعوا مليارات على أسمنت وحديد بدل ما يوجهوا الفلوس دي لمشاريع استثمارية تشغل البلد. شغلوا الحديد والأسمنت والبناء كام سنة وخلاص، بقت بيوت وقف ما يجيش من وراها حاجة. الدورة الاقتصادية وقفت.

في اللحظة دي وفي الاجتماع ده حددنا إن الديون المعدومة لدى الشركة ما تقلش عن ١٥ إلى ٢٠ مليون جنيه. فمتهيألي الوقت لما ييجي يكبس عليك بحكاية تعليق وقف الاعتمادات فكأنك بتتخبط في الحيطة وانت ماشي بسرعة ٢٠ مليون كيلومتر في الساعة.

أول مايو كان ميعاد تجديد تسهيلات البنوك.. إحنا قلنا مش حنجدد بالنظام الجديد لأن إحنا كنا بندفع من مليون لمليون ونصف جنيه فوائد شهريا.. طبعا بالقرارات الجديدة حنشتغل إزاي علشان نسدد؟

ده بالإضافة إن كان فيه قرارات مجنونة من البنك إنك تقف وتجدول. أوامر من الحكومة والبنوك بتنفذ، وده في الواقع كان قرار بالإعدام. دورة شغالة وفجأة وقفتها.. إزاي بالذمة ممكن ندفع عشرات الملايين من الجنيهات من غير ما نشتغل أو نتحرك؟

يوميها جمال سالم قال في الاجتماع: «لأن البلد ما بقاش فيه احتياطي دولاري اتخذت الحكومة قرار حيخليها تخسر مئات الملايين من الدولارات من رجال الأعمال اللي مش حيتمكنوا من سداد مستحقاتهم للبنوك وحيهربوا من البلد وأولهم حيكون أنا».

وده بالضبط اللي حصل.. بدأت بجد موجة خروج عدد كبير من رجال الأعمال وبدأت الصحافة تعزف سيمفونية الخونة حرامية البنوك بيهربوا بفلوس البلد. ما حدش سأل نفسه وليه يا ترى فجأة كدة الكل بيهرب في نفس الوقت وبنفس الطريقة؟

ما حدش سأل: الناس دي بتهرب ليه وهي عايشة في مصر أحلى عيشة؟ ما حدش سأل نفسه ليه الدولة بتتخذ قرارات بالغباء ده؟ أنا شخصيا مش فاهم ده تخطيط ولا حمورية؟

✦ ✦ ✦

في نهاية شهر مايو عام ١٩٩٩، بدأت الشركة تجدول مديونياتها، وفي أول سبتمبر عام ١٩٩٩ كانوا قد سددوا ١٠٠٪ من أصل الدين و٣٠٪ من الفوائد المستحقة ولم تكن لديهم إلا أصول كان من الصعب تسييلها في ظروف الكساد. وصدرت قرارات بتحويلهم إلى المدعي العام. سافر جمال إلى لندن يوم ٣ من سبتمبر وسافر

أنور وعائلته إلى الولايات المتحدة يوم الجمعة التالي. وظل طلعت وحيدًا في القاهرة.

✦ ✦ ✦

على بلد المحبوب وديني

زاد وجدي والبعد كاويني

غنى عبد اللطيف عوض أغنية أم كلثوم بصوته الشجي أمام طلعت وشوكت وشركائهم الثلاثة من الكويت، وضجت الغرفة الصغيرة بالتصفيق من فور انتهائه من الغناء. ثم دخل إلى المطبخ كي يضع لمساته الأخيرة على العشاء الذي أعده للضيوف. وأعلن طلعت للجميع بكل فخر أنهم سوف يأكلون من يد تيفا أشهى بط أكلوه في حياتهم.

يعتبر طلعت نفسه رجلًا محظوظًا لوجود عبد اللطيف معه في الكويت، التقى به عند أكرم المنجي واتخذ من فوره القرار الذي لم يندم عليه للحظة. فخلال دعوة على العشاء في منزل أكرم الذي تعود علاقة طلعت به إلى نحو العشرين عامًا، وبعد أن التهما ما لذ وطاب، أعلن أكرم أن هذا هو العشاء الأخير لهذا الطباخ المعجزة، فسوف يتم رفده غدًا صباحًا.

ـ خلاص يا أكرم، لو عايز تمشيه، حآخده أنا.

ـ يا بني هات لك واحدة فلبينية أبرك.. ده فاكر نفسه موظف بدرجة طباخ وشوية شوية حيطالب بحقوقه في التظاهر.

ـ أنا عايز حد مصري.

ـ انت حتعمل زي بنتي اللي مش عايزة تاكل غير أكل مصري.

ـ انت مالك.. هاته بس نتكلم معاه.. أنا حأقنعه.

ـ شوف يا طلعت أنا عايز أقول لك حاجة مهمة.. أنا من ساعة ما وصلت أمريكا اكتشفت إن الناس هنا أرقى مننا.. ما تزعلش بس.. هي دي الحقيقة.. الموضوع أجناس وأعراق.. هما جنسهم أذكى وأفضل.. واحنا جنسنا درجة أدنى وأوسخ. وده موضوع ما يزعلش لو خدناه أمر مسلم بيه.

ـ أنت بتتكلم جد؟

ـ جد الجد.. حتى الجنس الأصفر أرقى مننا بكتير.. شوف اليابانيين والصينيين بيعملوا إيه واحنا بنعمل إيه.. طب بلاش دي شوف الفرق بين الشغالة المصرية والفلبينية.. ما هما الاثنين فلاحات.. حتلاقي البت الصفراء ممقوتة صحيح بس نظيفة ومرتبة ومنظمة.. مخلوقين كدة.. أما المصرية فحتلاقيها وسخة وعفشة وتقعد تعلم فيها سنين ومفيش فايدة وفي الآخر تخونك وتهرب منك. جنس وسخ.. أنا رأيي بصراحة تجيب لك واحدة من الصفر.

ـ أنا رأيي تروح تنضم انت للمرحوم هتلر وتخلص نفسك.. أنا يا سيدي عايز الواد تيفا بتاعك.

ـ حتراهن على مصريين حتخسر يا طلعت.

ولم يخسر طلعت كما توقع أكرم المنجي.. فقد أثبت تيفا منذ التحاقه بالعمل معه أنه بلغ بمقولة «رجل لكل الأعمال»

(Jack of all trades) أعلى مستوياتها. فقد كان الطباخ والسفرجي والسائق والمهرج والمطرب وبالأساس الأذن التي تستمع دائمًا إلى كل ترهات عاطف ذهني. وجد فيه خصال الرجل المصري الأصيل.. عامله بكل الحنان الجارف الذي يكنه لمصر فبادله عبد اللطيف العطاء بأكثر منه وأصبح يخاف عليه ويضعه في نن عينه وكأنه من بقية عائلته.

بعد أن التهم الشركاء الجدد للشركة الكويتية البط وأكل كل منهم أصابع من يجلس إلى جانبه، واستمعوا إلى أم كلثوم بصوت عبد اللطيف، قرر جميع الحضور من فرط النشوة أن يأتوا بمدرس لتعليم تيفا فن الغناء بأسلوب علمي في مقابل أن يحيي لهم سهرة أسبوعية في ديوانية الشيخ صالح يؤدي فيها وصلات من الغناء الشرقي الأصيل.. وهنا اشترط شوكت ثائر:

«لكن عليه أن يتعلم أغاني ناظم الغزالي».

✧ ✧ ✧

إمبارح كان يوم ما حصلش.. يوم في التمانيات.. مش ممكن أنساه.. يوم الأحد ٥ مارس ٢٠٠٦.. جالي الأستاذ إميل وهو فلسطيني بعود قديم وقال لي سمّعني يا سيدي حاجة للست، رحت مغني له «أنا بأكره إسرائيل» لشعبوله.. قلت أمزّجه بحتة شعبي في الجون، لكن ما انبسطش. رحت قالب على سومة.. قبل ما يمشي قال لي إنه ييجي مني بجد وإن صوتي له شخصية. عجبتني قوي حكاية له شخصية دي.. إذا كان أنا نفسي ماعنديش شخصية لكن باين إن صوتي خد الشخصية مني وسابني صايع النذل الجبان.

بعد ما مشي استأذنت علشان أكلم أيمن صبحي في أمريكا أصل ٥ مارس ده يوم فرحه على الأستاذة هاجر. فاتت سنة مش عارف إزاي عدت وكأنها يوم. كانت ليلة ما تتنسيش بوردها وأكلها.. هو كمان طلع راجل.. من يوم ما سبته وهو دايما بيودني ويتصل بي وكأني ما سبتوش.. ويوم ما كنت جاي على الكويت حاولت أكلمه علشان أبارك على المولود.. عرفت إنه جاب بنت وسماها زينب.. بس تليفونه كان مقفول على غير عوايده. المهم كلمته امبارح ويا ريتني ما كلمته.

✦ ✦ ✦

جلس طلعت مع أحد المحامين ومحاسبه القانوني وأعلن أنه سوف يقاتل وحيدًا طواحين الهواء وأنه لا ينتوي الرحيل مثل شركائه الجبناء، وأن مصر لو أدارت له ظهرها فعليه أن يدور حول خصرها لمواجهتها مرة أخرى واحتضانها بكل عشق. كان ذلك في نهاية سبتمبر عام ١٩٩٩ عندما بدأ يعمل معهم ليل نهار لدراسة كل الأصول العامة والشخصية وتقييمها ثم وضع جدولًا زمنيًا لسداد المتبقي. حاول في هذه الفترة تفعيل أي أعمال لمساندته في سداد المديونيات ولكن وقف له البنك بالمرصاد. وبدأ بالفعل خلال شهر أكتوبر في تنفيذ الجدول الزمني الذي وضعه. وأثبتت له هند زوجته في هذه الفترة مدى روعتها وأصالتها.. تزوجها عن حب فانفتحت له أبواب كهوف على بابا المفعمة بالعشق والعطاء والدفء الإنساني الحقيقي. امتلكت سحر افتح يا سمسم ففتحت له أبواب جنة لم يعرفها من قبل. ولكن دائمًا ما كان يسر لنفسه في

لحظات الكرب هل كان يصح له أن يتزوج من فتاة مدللة بهذا القدر؟ ولدت فوجدت نفسها تعيش وسط خدم إسكندر الأكبر. كيف له أن يتصور أن هند هذا الكائن الوديع يمكن أن تتحول إلى فولاذ أشد صلابة من الإلهة باستيت عندما ابتلعت حرارة رع. باعت «هند» كل ممتلكاتها ولم تفهم لوهلة تقدير زوجها لأمر شديد البدهية.

ومر شهر نوفمبر مرور الجدعان، وجاءت الضربة الرهيبة في بداية ديسمبر.

* * *

في يوم ما طلعلهوش نهار نزل سيف القضا على رأسي قام فلقها. دخل عليَّ المكتب في صلاة الظهر اتنين من بتوع ضريبة المبيعات، جايبين لي فاتورة إن أنا جايب بضاعة بـ٤٥ مليون ولازم أدفع ضريبة المبيعات. قلت لهم الحقيقة: الشركة ما لهاش علاقة بالفاتورة دي خالص.

بعد مناقشات ومناوشات طلبت منهم يتأكدوا إذا كنت فعلاً مدخَل البضاعة دي ولَّا لأ..

ما تشوفوا يا جماعة مصلحة الموانى.. الجمارك.. تعالوا نشوف البضاعة دي دخلت أصلا ولَّا لأ.. فيه أساليب كتيرة ممكن تتأكدوا منها.. ده مش بضاعة بمليون... دي بضاعة بـ٤٥ مليون. طيب بلاش.. ما نشوف في البنوك.. يعني هل أنا فتحت اعتماد بالقيمة دي ولَّا لأ؟ ودا برضه اعتماد مش سهل.

ردوا وقالوا إحنا عايزين منك ضريبة المبيعات على الفاتورة.

يا جماعة ربنا يهديكم الـ (invoice) ده واد محاسب بثلاثة تعريفة ضاربها.. ده حتى حروفها دايبة. أنا مش فاهم دي أصلها إيه وفصلها إيه؟

طبعا واجهوني بالعقلية الحكومية المعفنة: «ادفع وبعدين اتظلم!».

أنا عايز أقول لِك إني متأكد أن حد وصَّى عليَّ عندهم. احتمال شركائي وإن بعض الظن إثم علشان عايزني أخرج من البلد لأن شكلهم بقى زبالة وهما طفشانين وأنا كنت فعلا ساعتها بأتكلم مع البنوك وقابلت المدعي العام وجبت تقييمات المكاتب وسددت بنك بالكامل وشغال مع البنك التاني. لكن الأكيد أكيد ولا جدال فيه إنهم جايين مِتْسَلَّطِين. ليه؟ لأنهم رفضوا تماما يترشوا حتى النهاية. ودا معناه الوحيد إنهم مرشيين من حد تاني.

المهم لما مشيوا كلمت محامي ورا محامي، وكلهم ناس جامدين قالوا لي دي مشكلة جامدة قوي يا طلعت وفلان وفلان محبوسين دلوقتي في قضايا ضريبة مبيعات.

وراموني القنبلة، أكيد وراء كل ده منافس مسنود من الحكومة ولّا مشارك الحكومة وعايز يتخلص من كل المنافسين. وبعدين قالوا لي ما تنساش صاحبك بتاع التكييفات ما هو راخر محبوس في قضية ضريبة مبيعات.

✧ ✧ ✧

لم تتصور هند أنها يمكن أن تحصل على معلومات عن زوجها من الفيوم.. فقد ذهبت مع ثلاثة من صديقاتها وأولادهم في رحلة

هادئة بلا رجال لقضاء يوم في عزبة تونس. جلسوا أمام حمام سباحة في منزل واحدة من صديقات هند وسط خضرة رائعة وفي درجة حرارة مثالية تليق بأن تختارها هند لتكون درجة حرارة الجنة.

اتصلت هند بأم عبد اللطيف لتحضر لهم أنواعًا من البط وسمك الموسى، وحكت كيف تطورت علاقتها بها منذ عمل تيفا مع زوجها طلعت حتى اشترت لها تليفون محمول ليستطيع ابنها أن يتصل بها وتتصل بها هي الأخرى. وصلت أم عبد اللطيف لتفجر قنبلة أطاحت بهدوء اليوم وبعثرت دقائقه في كل مكان: «طلعت بيه وعبد اللطيف في الكويت من ييجي شهرين».

✧ ✧ ✧

أنا بعد ما روّحت وهديت اكتشفت إن اللي ضايقني بجد هو إحراجي قدام أصحابي.. ما حبش خالص أبان قدامهم إني حمارة ومش عارفة حتى جوزي فين.. شيء سخيف ومهين جدا.

أنا دائما بألاقي للناس أعذار مالهاش عد، بس المرة دي رغم إني متأكدة من غير ما اخترع أي أعذار إن طلعت كان قصده كل خير. خايف يوترني بمشروع كمان فشنك.. خايف عليَّ من التجارب. خايف أختفي وأتلاشى. آخر مرة زرته شفت عينيه مذعورة وأنا خارجة من المطار.. عنده حق.. أنا كمان بقيت مش عارفاني وأنا بأبص على نفسي في المرايا. بس برضه ما كانش ينفع يحطني في الموقف الزفت ده.

معقولة يا طلعت بتاعة البط هي اللي تقول لي أنا.. جوزي في أنهي بلد في الدنيا!!

نفسي تقولي لي هو لازم أوقات نكذب علشان نطبطب على بعض ونحمي بعض؟ أظن لازم.. لأن الصدق أوقات بيبقى عامل زي السكين. بعثت ساعتها لطلعت اس إم إس وقلت له أنا عرفت إنه في الكويت من فترة.. ما حبتش أقول له من أم عبد اللطيف علشان ما يضايقش الولد الغلبان ده.. أهو أنا كمان بأخبي أهه. والله ما أنا عارفة الصح فين والغلط فين؟

سيبك انتي.. دنيا بايظة.

✦ ✦ ✦

فتح طلعت عينيْه المثقلتيْن من أطنان الخمر التي ابتلعها ليلة الأمس شاعرًا بصداع يكاد يفتك برأسه. فتح هاتفه المحمول فوجد الساعة قاربت على الرابعة بعد الظهيرة. استيقظ متوترًا بعد ليلة ليلاء مع أكبر كثافة عاهرات شاهدها في حياته، إلى درجة أنه فكر في الاتصال بالأستاذ جينيس طمعًا في تحطيم الرقم القياسي العالمي في كثافة العاهرات. الكارثة أنه لم يمارس بغبائه العادة السرية بعد رحيلهم كما اعتاد دائمًا ولم يقض بالأمس الساعتيْن اليوميتيْن الإجباريتيْن في الجيمنيزيوم؛ فقد كان لديه موعد مع مستورد كويتي من المحتمل أن يتشاركا في بيزنس.

لكن كان ما جاء به رنين تليفونه مرتيْن متتاليتيْن معلنًا عن وصول رسالتيْن تكفلتا بتلاشي توتره الجنسي واختفاء صداعه. فقد جاءت الرسالة الأولى حاملة خبرًا في منتهى الغرابة:

تم القبض على شريكه أنور بتهمة تشغيل عاملة تحت السن

القانونية في منزله خادمة بالسخرة. وتطلب منه زوجة أنور في الرسالة العون والاتصال من فوره بأحد أصدقائه من المحامين. وتحمل الرسالة الثانية خبر غضب زوجته الشديد من عدم إبلاغها بانتقاله إلى الكويت.

نادى عبد اللطيف وبعد استجواب قصير فهم أنه سبب البلوى، طرده من غرفة نومه بعنف، ثم نادى عليه وصالحه وطلب منه إعداد بيض بالبسطرمة. انهار على المقعد الوثير الذي اشتراه منذ يومين من تاجر هندي، ومد بصره عبر النافذة الملاصقة للسرير فرأى وجه زوجته. اقترب ببصره أكثر فدخل في تفاصيل حاجبيْها الأسودَيْن الكثيفَيْن المرسومين على بشرتها شاهقة البياض ثم نزل على عينيها، وغاص في أعماقهما وبدأ يبكي. تفجر إحساسه كالشلال. بكى وكأنه يمتلك ويحتكر بحار العالم. فاضت دموعه على شعوره العميق بالحزن والغبن والاضطهاد. لو وضعوا العالم في يمينه وهند في يساره لرجحت كفة يسراه بلا تفكير، فالدنيا ظالمة وقاسية وغير عادلة، وعليه هو على الأقل ألا يكون مثلها وألا يجازي زوجته جزاء سنمار. فقد منحت بلا حدود؛ فكيف يجرحها هو؟ لو طال أن يركب بساط الريح ليقبل أنامل قدميها ويطلب الغفران لما تردد. فكر في مصباح علاء الدين فدخل عليه عبد اللطيف بالبيض والبسطرمة. لم يشعر وهو يبتلع الطبق إلا بطعم دموعه.

اتصل بهند وقال لها إنه غائص في مقعد هندي بلون دم الغزال ثم بدآ في بكاء تواصلي كان بمثابة تواصل الحدقتين في حوار داخل كشك خشبي يعلوه لبلاب داخل الجنة. جلس في حالة صمت لمدة ساعة بعد أن تركته.

بعد أن أفاق، اكتشف أنه يجب أن يتصل من فوره بزينب زوجة أنور، التي انفجرت في البكاء هي الأخرى؛ فاعتقد طلعت أن تسونامي أخرى قادمة.

✦ ✦ ✦

الحقنا يا طلعت رحنا في داهية خلاص.. لسة راجعة من عند المحامي اللي اسمه ديفيد ده وقال لي إنه شكلها كده مفيش مخرج.. حيسجنوا أنور يا طلعت.. أنور دلوقتي في الحبس ومش عارفة أعمل حاجة.. الله يرحمك يا حاج.. لو كان عايش دلوقتي ماكانش ممكن ده يحصل أبدا.. كله مقدّر ومكتوب يعني إحنا هربنا من مصر فيتسجن هنا.. إيه المصيبة دي يا ربي. كله من البت بنت الكلب دي والله لأموتها.. جبناها من كوم حمادة قطة مغمضة ومسلولة من قلة الغذاء.. ربربت واتفرعنت. جنس مصري وسخ.

دا احنا جبناها أمريكا. دلوقتي ما حكيلكش بتتكلم إنجليزي بربنط زي الأمريكان بالضبط.. ومسميا نفسها «جين» (Jane) تتصور بعد اللي عملناه معاها تلف من ورانا، وترمي سمها الثعبانة الوسخة. لافت على واد بتاع دليفري (Delivery) بيتزا ودخلوا في قصة حب ووساخة وقلة أدب واحنا مش داريانين بحاجة. وطلع واد خامورجي وبتاع مخدرات. ما تفهمش علشان تتخلص مننا ولا إيه اتفقت مع الواد وأبوه، وراحوا للبوليس وسين وجيم وراح الراجل في حديد. أعمل إيه يا طلعت دليلي احتار.

✦ ✦ ✦

يتذكر طلعت جيدًا «جنات»، راعه ذكاء عينيْها في المرة الأولى التي رآها في سانتا كروز. كانت في التاسعة أو العاشرة من العمر ودخلت عليه بصينية الشاي. كان لعينيْها بريق وهي تقول له بصوت أكبر بكثير من سنها: «اتفضل الشاي يا طلعت بيه». كبرت جنات وتحدثت بلغة الأغيار عن حقوق الطفل وقوانين العمل. ولماذا لا تتحدثين بلغتهم فنحن جميعا عبيد سيادتهم. وسوف تنتقلين أنت من حماية أنور إلى غابة القسوة الأمريكية، وسوف تندمين عندما لا ينفع الندم. لن ينفعك ذكاؤك أمام الآلة الأمريكية، وسوف تدورين في ساقية ستحرث روحك حتى تفقدها كل ذرة حنان.

جلس طلعت إلى جهاز الكمبيوتر، وبدأ في كتابة رسائل إلكترونية إلى عدد من المحامين أصدقائه. واستغل الفرصة فبدأ أيضًا في إرسال خطابات إلى أصدقائه من أساتذة الجامعة للحصول على معلومات خاصة بسيلفيا حتى فات موعد الجيمنيزيوم لليوم الثاني على التوالي. فقرر عدم الخروج لحضور تدريب تيفا على الغناء، ولكي يطلب من إميل أن يعزف على العود بالأحضان ويغنيها تيفا فقد هاجت مشاعره، ويريد الآن أن يحتضن تراب الوطن الغائب على أوتار إميل هذا الفلسطيني الأردني الكويتي المختلط الذي كتبت عليه هو الآخر الغربة الأبدية.

✦ ✦ ✦

بالأحضان بالأحضان..

بالأحضان يا بلادنا يا حلوة بالأحضان..

في ميعادك يتلموا ولادك..

يا بلادنا وتعود أعيادك..

والغايب ما يطقش بعادك..

يرجع ياخدك بالأحضان

بعد شهر من تدريبات تيفا على الغناء، اتصل شوكت ثائر بطلعت واتفق معه على أن يلتقيا الليلة في ديوانية أحمد شريكهم على أن يحضر معه عبد اللطيف ليحيي الليلة. استعد تيفا جيدًا وشعر لأول مرة على الرغم من كثرة ما غنى في حياته، أنه في هذه الليلة مغنٍ ومغنٍ فقط. شعور جعل تنفسه يرتجف إلى درجة أن أعصاب مخه كانت تبذل جهدًا لتنفيذ عملية كل شهيق أو زفير تطلقه رئتاه المسكينتان. وجعل يعد تنفسه كأنه يتعلم التنفس لأول مرة في حياته. وقال لنفسه إنه أصبح فجأة (Jack of nothing) بدلًا من (Jack of all trades).

ارتدى عبد اللطيف أفضل ثيابه، وانتظر طلعت أمام المنزل المطل على الخليج العربي وهو يحاول ضبط تنفسه. ولكنه لم يتحسن حقًا إلا بعد أن تناول من يد «نابري» فنجانًا من القهوة السادة في المطبخ الملحق بالديوانية ووضع نابري يده على رأسه وقرأ له آيات من سورة يس. ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ﴾ (يس: ٧٧،٧٨).

منذ لحظة تلامس يد نابري ورأس تيفا تداخلت خيوط حياتيهما

حتى أصبحا لا يفترقان. فكلاهما كان صك ملكية نهاره في يده، وليس في يد عَمْرو، يفعل في ثوانيها الكثيرة ما شاء له أن يفعل.

نابري كان دوره الوحيد هو تقديم القهوة في الديوانية مساء، أما عبد اللطيف فقد كان هو الآخر لا يعمل إلا مساء، فطلعت الذي جاء إلى الكويت، واكتشف أن اليوم بعام، والشهر بقرن، أصبح يستيقظ من نومه بعد الظهيرة في انتظار جودو الذي لا يأتي.

أصبح الصديقان الجديدان ينطلقان كل صباح بسيارة طلعت، وهدفهم البحث عن عبد الحميد ابن عم نابري الذي انقطعت أخباره منذ أكثر من عام.

كان تيفا له الحق في قيادة السيارة كما شاء برخصة قيادته الأمريكية. وتعرفوا في رحلة بحثهم عن إبرة مفقودة في كوم قش إلى مئات المصريين المغتربين. وقد بدأوا جولاتهم بزيارة رابطة البيت النوبي بالكويت والاتحاد النوبي بالكويت واكتشفوا أن هناك الكثير من ضحايا الغربة وقرأوا الفاتحة على الذين دفنوا في أراضٍ غريبة.

✧ ✧ ✧

استيقظ طلعت مبكرًا ووجد الأمطار تهطل بعنف، فراقت له فكرة أن يتريض تحت المطر. ارتدى ملابس الرياضة وقبّل زوجته وأولاده وخرج من المنزل الصغير الساحر الذي كان قد استأجره لمدة شهر في أثناء إجازة الأولاد في هذه المدينة الساحلية التي لا

يتذكر اسمها و تطل على المحيط الهادي في أقصى غرب الولايات المتحدة قبل سفره إلى الكويت بنحو العام.

شعر بمجرد خروجه برجفة البرودة تسري في أعصابه، لم يهتم وأخذ نفسًا عميقًا ثلّج قصبته الهوائية، وبدأ في الجري الخفيف على غير هدى في مدينة لا يعرف خرائطها، وعندما فقد تمامًا البوصلة، وجد نفسه يمر من بوابة عملاقة من حديد مشغول على شكل أزهار التيوليب، نظر حوله فوجد حديقة تمتد إلى ما لا نهاية، تحيط به خضرة تلمع كالبلّور من قطرات الماء المنسدلة بعذوبة من السماء. تنبثق في كل ركن أشجار سامقة تطاول عنان السحاب لتداعبه بأفرعها بغنج حتى يستمر في إنجاب أبنائه. ممرات رملية ملتوية تصعد وتهبط وسط تلال من الخضرة تحف بها تماثيل رومانية من الرخام الأبيض.

توقف المطر وكأن السحاب قد اكتشف فجأة أن ينابيعه قد جفت، أو أن أفرع الأشجار توقفت عن مداعبته. وبدأت الشبورة تنقشع تدريجيًا، حينها فقط طلعت اكتشف أنه في مقبرة وأن ما يحيطه من كل جانب هي شواهد قبور لرجال ونساء ماتوا خلال القرن الماضي.

استمر في الركض حتى ظهر له من بعيد هلال أشهب يلمع بنور السماء، ثم ظهر هلال آخر ثم آخر. وعند اقترابه وجد عددهم لا ينتهي؛ كل هلال على شاهد قبر وتحتها أسماء يعرفها.

توقف عن الجري ودخل بقدمه اليمنى إلى أرضية من الحشائش الرائعة بالعافية واقترب من شاهد فوجد اسمه طلعت ذهني توفي في

١٨ من مارس عام ١٩٥٨. ارتج قلبه حتى كاد أن يسقط. ارتجفت ركبتاه فجلس بين شواهد القبور. أسماء عربية وإيرانية وهندية على رخام مشغول بزخارف الفن الإسلامي، بعضها ملون بألوان قوس قزح وبعضها حفر في رخام كرارة أبيض. نظر يساره مباشرة فوجد أن جاره ولد في القاهرة وتوفي هنا عام ٢٠٠٥. أدرك لأول مرة أنه يمكن أن يموت في أرض غريبة. يمكن أن يكون هنا جالسًا وحيدًا كعادته ويحصد روحه عزرائيل ليدفن في مكان جميل بارد غريب أجنبي كالذي يجلس فيه الآن. لم يتحمل الأمر. كيف دفنوا طلعت هنا عام ٥٨؟ وكيف دفنوا إبراهيم هنا وليس في القاهرة حيث ولد؟ هل يكتب عليه أن يظل إلى الأبد في أرض بعيدة؟ حاول الحراك لم يقدر. أصابه الحنين إلى البساتين بالشلل.

✦ ✦ ✦

حين سيطرت على طلعت فكرة أن شريكه «أنور» لن يتمكن من تحمل السجن في الولايات المتحدة وأنه سوف يموت داخل السجن كمدًا؛ قرر أن يبذل قصارى جهده لمحاولة مساعدة أنور في محنته. بدأ المشوار بقرار صعب جدًّا عليه وهو الاتصال بالنذل الأكبر شريكهم الثالث جمال الذي اختفى تمامًا من الوجود منذ أكثر من خمسة أعوام. فوالد جمال قد يكون الشخص الأكثر ملاءمة في العالم لمد يد العون لأنور.

كان جمال مستلقيا على أريكة دفع لاستئجارها جنيهين إسترلينييْن أمام بحيرة صغيرة في حديقة الهايد بارك في قلب لندن وفي يده كاميرته التي أصبحت كيده الثالثة لا تفارقه أبدًا. كان في

انتظار بدء مظاهرة ضد روبرت موجابي رئيس زيمبابوي وهو يقرأ في منشور ـ تم توزيعه ـ تصريحاته الهزلية في ١٥ من سبتمبر ٢٠٠٥ عندما وصف شعبه بأنه يعيش في سعادة مطلقة، وبأن لا أحد يمكن أن يموت جوعًا في زيمبابوي، ولكن المشكلة تكمن في أن الشعب لا يريد تغيير نظامه الغذائي؛ فالدولة لديها فائض من الذرة ومن البطاطا ولكنهم لا يحبون البطاطا. عندما رن هاتفه المحمول حط طائر غريب الشكل على حافة البحيرة أمامه مباشرة تردد للحظة: أيرد على التليفون.. أم يقوم بتصوير هذا الطائر الذي لم يشاهد مثله في لندن طوال مدة إقامته هناك؟ ولكن انتهى تردده وضغط على الزر الأخضر خوفًا من أن تكون المظاهرة قد تم تأجيلها.

ـ جمال إزيك.

ـ جمال ده مين؟ أنا اسمي جيمي .. وبعدين صوتك يا طلعت عمل لي فلاش باك عنيف قوي، وأنا مخي ما بيجبش تاريخ ما قبل الهجرة

ـ هجرة الرسول؟

ـ لأ هجرة الشعب المصري.

ـ لسة ما هاجروش كلهم.

ـ جايين جايين.. وكله وحياتك حيغير لونه وملته واسمه وشغلته وحياته زي حالاتي.. إنت مين بقى سيادتك؟

ـ أنور اتسجن.

ـ يخرب بيته.. رجع مصر إمتى؟

ـ ما رجعش.

ـ يعني مسجون في أمريكا؟

ـ البت الشغالة رفعت عليه قضية إنه مشغّلها في الفاعل غصب عنها وده تشغيل أطفال بالعنف ومن غير أجر.

ـ ليه ما كانتش بتاخد مرتب؟

ـ يا بني ركز معايا.. مش هي ده القضية.. طبعا كانت بتاخد، وأبوها ابن الكلب بياخد.. المهم دلوقتي حنعمل إيه لأنور.

ـ حنعمل؟

✧ ✧ ✧

كان جمال لا يريد أن يبذل أي جهد لأي شخص في الوجود. ليس عن أنانية بل عن قرار واع. «أريد أن أعيش لمدة عشر سنوات لنفسي فقط». فهو لا يريد أنْ يسمع شيئًا عن زوجته وعن أبنائه وبالتأكيد عن والده. سوف يفاجَأون به يومًا إن أراد المولى بعد تلك السنوات العشر رجلًا مختلفًا، رجلًا أكثر اكتمالًا ووعيًا بنفسه، وأكثر قدرة على أن يمنحهم الحكمة. لقد بذل من أجل حياة فرضتها ظروف المجتمع عمرًا بأكمله، وكان في هذه الحياة غريبًا يبحث عن ظله فلا يجده. هو الآن ولأول مرة يصنع ظله بيديْه. فرض عليه والده بما له من علاقات ومال أن يصبح رجل أعمال. فماذا يمكنه أن يصبح غير ذلك؟ وحينها أدرك المغزى من وراء غروب عائلات وبزوغ أخرى وأفول دول وانبلاج أمم. كان التبرير الذي أعطاه له مدرس التاريخ هو تراخي همم الذين عاشوا حياتهم

في ترف. فحفيد الملك الذي صنع المجد هو في العموم السبب في انهيار مُلك هذا الجد العظيم. ولكن الأمر الذي اكتشفه جمال عبر حياته الأولى المنقضية أن المشكلة ليست بالتأكيد في تخاذل هؤلاء، وإنما في ما أخذوا من أسباب العلم وتشربهم بالقيم العليا وتمسكهم بالسلوك القويم. فالحياة تفرض على المتقدم للسير في دروبها أن يكون جاهلًا وفظًا وعنيفًا ودمويًا. أن يكون مستعدًا للتنازل أخلاقيًا.

لا ينسى جمال مقولة عادل أدهم في فيلم «سوبر ماركت»:

«رمزي.. علشان تنجح لازم تتنازل أخلاقيًا».

يتذكر جمال جيدًا طريقة أداء عادل أدهم وهو يقول هذه الجملة بالسكون قليلًا على حرف الـ خ. وهذا التنازل الأخلاقي الذي لم يحدده الفيلم جيدًا رآه جمال بالتفصيل الممل، فمن يصل عليه أن يكون داعرًا وقذرًا ويفضّل أن يكون قوادًا. وبالتأكيد جاهلًا حتى يرضى عنه ذوو الأمر. أما كل ما يجب عليه إتقانه، هذا المتقدم في صفوف الحياة، فهو الحديث عن قدرته الجنسية عندما ضاجع الحسناء التي لم ير أحد حسنها من قبل. والحسن هنا هو مدى جنسية تضاريس جسدها. أما الأعمال فتتم بابتسامة ثم رشوة ثم طعنة. فسلاحك معروف: ظرف متخم، علاقة مع ذوي سلطان، امرأة هدية أو في درجة أدنى، فيلم إباحي وسكين لزوم التهديد والوعيد أو القتل إن لزم.

ذهب طلعت وجمال يومًا إلى لقاء رجل ضالع في فساد الدولة لإتمام صفقة، وقد كان السيناريو المتوقع كما شاهده جمال في

الأفلام أن يعرضا عليه رشوة فيتمنع قليلًا فيرفعون من قيمة المبلغ فيقبل هو في النهاية على مضض على أساس أنه يموت في دباديبهم، ويؤكد أن هذا المبلغ لن يحصل هو على مليم واحد منه، بل سوف يدفعه كله لإتمام الأمر. ولكن الفيلم هذه المرة كان مختلفا فقد طلب الملاكم مبلغًا محددًا وبدأ المعركة بأسنانه السوداء المنزرعة في نجم الدب القطبي. رد عليه الملاكم طلعت بخطافية فجائية في صف أسنانه، وجلس جمال متفرجًا على حلبة الملاكمة بين الرجليْن والدماء تتقاذف حوله.

«لو حضر محمد على كلاي في عز جبروته لخسر من هؤلاء المتوحشين في الجولة الأولى بالضربة القاضية الفنية».

شعر حينها بالغثيان وانتهت الليلة بذهابه إلى الحمام، وهناك استفرغ ما في بطنه. كان جمال ما زال في المرحلة الثانوية عندما قال له صديق والده الضابط في الجيش بصوت جهوري هز قاعة الطعام وحطم كوبًا من الكريستال:

يا جمال يا ابني!

بجَّح تنجح!

بجَّح تنجح!

كيف يمكن لإنسان عاش في رغد أن يكون دمويًا وقذرًا إلى هذه الدرجة المنحطة؟ من المنطقي أن يفشل هو في السير في هذه الدروب. بالتأكيد؛ كان جده التركي مستعدًا للخوض في مصارين من يقابله. طلعت يشبه كثيرًا جدّ جمال الكبير، فهو جسد مصارع صنديد وذهن مستعد صباحَ مساء أن يخوض قتالًا وراء قتال.

رفض جمال في النهاية وبحدة أن يكلم والده، فقد سبق أن اتفقا معًا بعد أن سدد له مديونات لا حصر لها، أنه لن يطلب منه شيئًا أبدًا.

لم يكن طلعت يعرف أن «جمال» قد أصبح مصورًا فوتوغرافيًا محترفا. كما لم يكن يعرف أنه انقطع بالكامل عن دنياه السابقة. فقد فتح صفحة بيضاء جديدة ليسطر عليها حروفًا لم يجربها خطه قبل ذلك. تجلت قدراته الفنية الكامنة بعد أن أفرغ ما في جوفه من أحماض. انتهت المحادثة الهاتفية نهاية غريبة بالحوار عن موجابي الذي لم يكن طلعت قد سمع باسمه من قبل، ثم فجأة ومن دون مقدمات صرخ جمال في غضب:

«تذكر يا طلعت ماذا فعلت بنا مصر ثم أغلق يا طلعت ملفها إلى الأبد.».

وأغلق في وجهه الخط منهيًا المحادثة.

✧ ✧ ✧

ضربات كثيرة أضلعتنا يا جمال بس القوي هو اللي يتضرب ويكمل المشوار. مين ممكن ينسى الضربات اللي وجعت وعلّمت على الجسد ووقّفت حياتنا وبعدتني عن أولادي وعن مراتي وعن بلدي؟

أحداث كثيرة.. بس أكثر ضربة أنا فاكرها ومش ممكن أنساها هي يوم ما طلّع اتحاد الصناعات قانون جديد، قانون خللى واحد بس يقش. قانون ختم سيخ حديد التسليح على كل ١٥٠ سم بختم المصنع. هي دي بالضبط كانت لحظة البداية الأولى لقصة احتكار

الحديد في مصر. قرار معلمين نتج عنه إن الحديد اللي مش مختوم ممنوع يدخل من الميناء.

طبعا كل المصانع في العالم اللي بنتعامل معاها امتنعت عن التوريد. لأن المصانع دي ماعندهاش مشكلة في البيع. مش مستنياك أصلا. تيجي بقى تطلب منها تعمل لك الحديد عمولة (custom made) دا معناه تعديل في خط الإنتاج، وطبعا ده مستحيل لأن الحجم الإجمالي لمصر ضعيف جدا بالنسبة لهم. ولما الحكومة أصدرت قرار ختم المصنع على كل ١٥٠ سم كانوا عارفين كويس إن فيه استحالة إن حد في الدنيا ينصاع لك.

كنا ساعتها واخدين اعتماد استيراد شحنة حديد. صدر القرار فاتخبطنا في الحديد بلكمة خطافية، خبطة سوداء والسيخ المحمي دخل في الصرصور. جينا بعدها لفينا على مصانع أكثر لغاية ما لقينا مصنع نستورد منه، فصدر قرار من الدولة بمنع استيراد الحديد.. قفا جديد. وبعد كدة سمحوا بيه. قلنا نشتغل شوية في الصاج راحت الدولة عاملة (dumping policy) على بلاد معينة علشان ما نجبش منها لأن أسعارها أقل مننا بكثير. يعني تدفع أنواع ضرائب مختلفة زيادة عليه وهو داخل، وده تزامن مع تصنيع صاج الدخيلة. فبعد ما كنا بندفع ٥٪ ضريبة مبيعات على الصاج بقت فجأة ٣٠٪. قبل القرارات دي كانت الشركات أمثالنا في مصر بتبيع الحديد والسفينة لسة في البحر. بعد القرارات دي وبالذات موضوع قرار الختم العبقري ده، أنا متهيألي إن فيه على الأقل خمسمائة شركة في مصر كانوا بيشتغلوا في الحديد والصاج أفلسوا أو قفلوا أو هربوا بفضل السياسات العبقرية للبلد و ابقى سلملي لي على جهاز الاحتكار.

✧ ✧ ✧

النهاردة يوم عيد. أحلى يوم عدى عليَّ في حياتي. حاسة إني بَتْمَشَّى على السحاب ونَفَس ربنا بيدخل رئتي ويملهالي بالقوة. قدرنا نخلص فلوس البنك التاني وفاضل مبلغ صغير على ضريبة المبيعات ونبقى انتصرنا على الكابوس اللي طابق فوق نفسنا.

حصل قفزة مجنونة في أسعار أراضي ٦ أكتوبر وعرفنا نبيع حتة الأرض اللي اشترهالي بابا. بِعْنا الراجل اللي وراه واللي قدامه ولسة صامد ومبتسم زي جبل المقطم.

الحياة حلوة وأمورة وكوتوموتو وفاضل على رجوعك يا حبيبي خطوة ولَّا اثنين.

طلعت طلب مني أجيب له تليفون أبو جمال في أبو ظبي. عرفت كمان أجيبه دلوقتي. أصل الدنيا لما توافق بتحضن بالجامد.

وأنا قاعدة في النادي مستنية الولاد يخلصوا درس التنس ومعايا د. نيفين وسيلفيا بنتها وريموندا وباسنت وإذ بباسنت دي بتقول أنا كنت امبارح مع أنكل سالم حسين في مؤتمر في دبي. هجمت عليها فادتني رقم موبايله اللي بيرد عليه. مفيش أفيد في الدنيا من قعدة الستات في النادي بنجيب فروة البلد كلها.. نخلَّص القعدة من هنا ونلاقي البشرية كلها عمالة تهرش في فروتها وتكح.

أنا سعيدة لدرجة إني حافرقع.

✧ ✧ ✧

لم يستطع أحد إنقاذ أنور من السجن وهو حاليًا النزيل رقم ٠٠٧

في زنزانة بسجن سانتا كروز، ولم يجد نابري وتيفا عبد الحميد هذا النوبي المختفي، كما فشل مشروع إنشاء الشركة التي جاء من أجلها طلعت إلى الكويت. وتجمد الزمن ثم تمدد بفعل الحرارة، وأصبحت الإصباحات كالليالي، والأيام كالأسابيع. إلا أن طلعت اعترف لشوكت ثائر أنه على الرغم من تأخر كل المشروعات التي حاول إطلاقها عبر وصوله منذ أكثر من عام، فإن إقامته في الكويت فتحت له أبوابًا للتفكير الجدي في استعادة نشاطه. فقد أصابته الإقامة في أمريكا بحالة من الكهولة لا يعرف مصدرها. حالة من الخمول والترهل أشعرته أن لا أمل في غد. محتمل أن يكون شعوره بأنها مقبرة نفيه من الوطن قد أطبق على أنفاسه حتى أصبح هناك بلا حراك. وقد ألقت هذه الفترة الكئيبة بظلال سوداء على حياته حتى الآن، ولكنه يشعر الآن بأنه تحرر وسوف ينطلق قريبًا طائرًا.

قرر طلعت أن يبدأ انطلاقه بمشروع عقاري سياحي علاجي في أسوان. ووجد الشركاء كويتيًا وإماراتيًا وعراقيًا. وبدأت قصة مشروعه بالحوار مع نابري الذي حكى له أنه شفي من مرض عضال في أثناء علاجه في رمال أسوان الساخنة، وبالبحث والدراسة اكتشف طلعت أن أسوان تتميز بالفعل بنسب عالية من الأشعة فوق البنفسجية، وانخفاض نسبة الرطوبة كما أن أشعة الشمس على مدار العام مع جفاف الجو يمثّلان مناخًا مثاليًا لعلاج أمراض مثل الروماتيزم، والالتهاب الشعبي والربو والتهاب الكلى المزمنة والأمراض الجلدية.

وانتهى بحثه باقتراح من نابري أن يتصل طلعت بأخيه حسونة

الذي يعمل في مجال السياحة في أسوان ليطلب منه البحث الفوري عن قطعة أرض لقرية سياحية.

كان ذلك في ٤ من يوليو ٢٠٠٧، والحكومات العربية تحتفل بكل حب بعيد الاستقلال الأمريكي.

حسونة صبري

رد حسونة على هاتفه المحمول وحاول أن يعرف من المتحدث؟ مشروع سياحي، أرض، عمولتك محفوظة، وما علاقته هو بكل ذلك؟ لم يفهم من طلعت أي شيء على الإطلاق. كل ما فهمه أن المتحدث من طرف أخيه في الكويت، كان ذهنه في هذه اللحظة مشوشًا فقرر الاتصال بأخيه لاحقًا لمعرفة سبب هذه المكالمة.

كان حسونة صبري واقفًا هو وعائلته بكامل هيئتها، ومعهم عشرات وعشرات من النوبيين في مطار أسوان، ينتظرون وصول جثمان خاله عثمان محمد القادم مع ابنه من ميلانو بعد أن قضى هناك أكثر من عشرين عامًا في العمل طباخًا في النادي المملوك لشركة فيات (Fabbrica Italiana Automobili Torino) «مصانع السيارات الإيطالية بتورينو».

كان الحضور في المطار يليق بزعيم من زعماء النوبة، فقد كان المرحوم ـ ونتيجة لمعرفته المباشرة بجياني أنيللي رئيس مجلس إدارة الشركة السابق، وحفيد جيوفاني أنيلي مؤسس شركة فيات عام ١٨٩٩ـ السبب المباشر في تعيين عشرات النوبيين في شركة

فيات والمؤسسات التابعة لها، كنادي التنس الذي كان يعمل به المرحوم. كان السيد أنيللي يهتم شخصيًا في كل زيارة له إلى نادي التنس، أن يطلب لقاء الشيف ليشكره على أطباقه المتميزة وخاصة الملوخية بالأرانب التي كان يعشقها رئيس مجلس الإدارة وكان المرحوم يقوم باستيرادها من مصر خصيصًا للسيد أنيلي، وهنا كان عثمان وبصوت خجول يطلب منه تعيين واحد من النوبيين المضطهدين في مصر، وعامًا بعد عام، وعقد عمل بعد عقد تم اعتبار الشيف عثمان بطلًا قوميًا للشعب النوبي.

كان الطقس في أسوان يوم ٤ من يوليو أشبه بدرجة الحرارة التي تخيلها دانتي، في جحيمه وهو جالس أمام مدفأته يكتب الكوميديا الإلهية، لكن مع عدم وجود رطوبة في أسوان، كان الجو محتملًا جدًا إذا ما قارنته بما كان يتنسمه طلعت في الكويت، فهناك كان الطقس لا يشبه جحيم دانتي وإنما الجحيم ذاته. كان جميع النوبيين الواقفين في المطار يرتدون جلابيب بيضاء شفافة قليلًا، بها مربعات تطريز صغيرة وتحت الجلباب سروال أبيض قصير وطاقية بيضاء صغيرة مطرزة لحمايتهم من شدة القيظ. أما مدير المطار فقد كان دائم الحركة في قاعة الانتظار، وعلى أهبة الاستعداد لاستقبال الجثمان بما يليق بمقامه، فقد كان يريد أن يرد ولو قليلًا من خدمات هذا الرجل، خاصة بعد أن أرسل إلى ولده عقد عمل محترمًا في مدينة تورينو.

بعد أن فقد المنتظرون ظلهم، هبطت الطائرة وخرج الجثمان من جوف المطار، وتدافع الجميع لنيل شرف رفع النعش على الأكتاف. كانت سيارة بيجو ٥٠٤ ستيشن خضراء موديل ١٩٧٩ في

الانتظار لاستقبال الفقيد، وانطلقت السيارة عبر شارع عباس فريد نحو مسجد الطابية للصلاة على الجثمان. كان يومًا مشهودًا بكت فيه نساء العائلة. وفي المساء تجمع الرجال أمام دار والد المرحوم في الجزيرة المقابلة لأسوان التي يسكنها النوبيون لتلقي العزاء، وسماع آيات بينات من كتاب الله والحديث عن محاسن المغفور له، وأفضاله على الجميع متناسين تمامًا طريقًا سلكه يومًا للسفر إلى إيطاليا عام ١٩٨٥.

بعد أن امتلأت رأس حسونة بالحواديت التي تشابكت خيوطها مع نسيج جسده، انسحب بهدوء من جلسة العزاء وتوجه وحده إلى النيل عبر غابة كثيفة من النخيل. خلع ملابسه بالكامل، ووضعها بعناية على حجر جرانيتي ضخم بلون الدم يجثم على الربوة الترابية، كما تجثم كتلة جرانيتية شبيهة على صدره منذ فترة ليست بالقليلة. قفز في المياه المثلجة على الرغم من سخونة الجو. اندفع سابحا بقوة في اتجاه الجنوب عكس التيار المندفع بقوة وحماسة ناحية الشمال، وكأنه تمساح من تماسيح النيل. كل ضربة من ضربات يده الفولاذية في الماء كانت لطرد الشياطين المردة المقيمة في ذهنه وترفض الحراك، تلك الشياطين التي تشعل باستهزاء ألسنة نيران الموقد المتربع في مخيخه الأيسر. تمنى لو يلتقي بواحد من تماسيح النيل المنتشرة في كل مكان؛ كي يدخل معها في معركة حياة أو موت لتفريغ طاقات غضبه التي لا يعرف لها موطنًا، ولكنه في النهاية خاف على التمساح من غليله. فالفقر يقتله، وهزيمة الزمالك ٣-٤ من الأهلي في نهائي كأس مصر تضايقه، وعدم إرسال نابري المال المتفق عليه كي يلحق به ويخرج هو الآخر تخنقه.

قرر وهو يسبح ألا يعود في هذه الليلة إلى فاطمة زوجته إلا بعد صلاة الفجر. فلا يوجد عمل ينتظره في الغد أو حتى فيما بعد الغد؛ فنحن في موسم الهلاك الصيفي حيث لا يتجه أحد جنوبا.

استيقظ حسونة مبكرًا على نسمة هواء تداعب وجهه، وجد عائلته مستسلمة لدفء النوم، تركهم وتتبع نسمة الهواء حتى وصل إلى المرساة، فوجد أن الرياح أتت بما تشتهي سفنه. ففي المرساة الخاصة بفندق كاتاركت وجد اثنين بأعراف حمراء وفلاح مصري أسمر قادمين نحوه. تقدم إليهم ووجه حديثه إلى الرجل المصري عارضًا عليه جولة نيلية لم يشاهدوا مثلها بمركبه.

بدأ حسونة يزن هذا الفلاح. أيعمل في السياحة.. أم أنه أرزقي يريد تقليب الخواجات.. أم أنه زبون مثله مثلهم؟ وعندما اكتشف بعد لحظات قليلة أنه مجرد زبون، انفرجت أساريره وظهرت أسنانه البيضاء الكبيرة وهي تلمع فرحة برائحة البنكنوت السابح نحوه للهرس تحت أضراسه الخلفية.

قفز حسونة بخفة النسناس من فلوكة إلى أخرى، كانت المراكب تستند الواحدة إلى الأخرى بحنان بالغ. استطاع بمساعدة المراكبية الذي كانوا نائمين في دعة، كل في فلوكته، أن يأتي بسرعة بمركبه قبل أن يغيروا رأيهم.

غمس فوطة في مياه النيل ووضعها بجانب السلم الذي فرده في اتجاه الرصيف؛ كي يضع كل شخص قدمه عليها ويمسح حذاءه فيها قبل أن يدخل قدس أقداس مركبه. ثم أخرج مخادع مدثرة بأكياس قطنية خضراء، ووضعها على المقاعد الممتدة على جانبي الفلوكة.

وبعد أن جلس الجميع شطف بسرعة الفوطة وعصرها وفردها في المؤخرة تحت أشعة الشمس. ورفع المرساة من الوسط وبدأ في فرد القلوع عالية كالجبل.

✦ ✦ ✦

جلس د. مرتضى البارودي وزوجته ديبورا على يسار حسونة بينما جلس أخوها ريتشارد في مؤخرة الفلوكة، وقد أخرج كراسة رسم كبيرة ونظر حوله في انبهار حقيقي وهو يتحسس بحركة عصبية القلم الرصاص الذي وضعه خلف أذنه مقلدًا مدرس الرسم الذي نسي اسمه، زميل ياسين في مدرسة قرية آل البارودي الذي كان قد جلس بالصدفة إلى جانبه في فرح أخته وتعارفا واكتشفا أنهما يعملان في مجال الرسم، مع اختلاف طفيف في الدخل؛ فهذا مدرس بثلاثين جنيهًا إسترلينيًا في الشهر وذاك مصمم يربح حوالي ثلاثة آلاف وخمسمائة جنيه إسترليني في الشهر.. أرزاق.

كان ثلاثتهم قد وصلوا إلى أسوان في اليوم نفسه قادمين من الأقصر بالقطار، رفضت ديبورا تمامًا فكرة الفندق العائم وفضلت أن يستقروا في الأقصر في فندق ونتر بالاس لمدة أسبوع، ثم يسافروا إلى أسوان بالقطار، والإقامة في فندق كتراكت القديم. وقع الجميع في عشق هذه المدينة الساحرة وأعلن ريتشارد وهو يدعك قلمه الرصاص أن هذه أجمل مدينة وقعت عليها عيناه في حياته، فردت عليه أخته بأنه كان ينبغي ألا يستهينوا برأي المرحوم السلطان محمد شاه الأغاخان الثالث الذي اختار أسوان لتكون مثواه الأخير من بين مدن الكون الكبير. أما مرتضى فقد كان نادمًا لأن أباه الحبيب رفض

أن يرافقه في رحلتهم هذه، خاصة أنه سوف يسافر إلى لندن من فوره عودته إلى القاهرة. حاول إقناعه بكل السبل فرد عليه ردًا بسيطا «لقد حصلت على نفحة سعادتي يوم فرحك، ولا يوجد في هذه الدنيا ما يمكنه أن يسعدني بعد ذلك».

لم يستطع مرتضى منع نفسه من التفكير في سعاد من فور دخوله الفندق.

«مرتضى في شهر عسلنا عايزة نروح فندق كتراكت في أسوان.. ده حلمي من وأنا في ثانوية عامة».

أنا هنا في الفندق نفسه مع امرأة أخرى يا سعاد.. هل هناك تجلٍّ للخيانة أكثر مما أقوم به الآن؟ أشعر بمشاعر يهوذا في لحظة خيانته للمسيح. روحي تتمزق.

عرف حسونة خلال الدقائقِ الأولى لركوبهم الفلوكة أنهم جاءوا إلى أسوان ـ خالصين مخلّصين ـ لا شركة سياحية تتابعهم، ولا مرشدَ سياحيًا يرافقهم. فغاص قلبه في جوفه فرحًا، ولم يتحمل جلسته فقفز، وخلع جلابيته ليبقى بالسروال والصديري، ورقص بهجة من جمال الديوك الرومي الجاهزة أمامه ليأكلها بالهناءة والشفاء.. استغل ريتشارد فرصة خلع حسونة لجلابيته وأخرج الكاميرا بسرعة وبدأ في تصويره. وعلى شاشة الكاميرا الصغيرة بدأ ريتشارد يتملى ملامحه.. مستطيل الوجه، ملامحه محفورة بوضوح وعمق في صلصال محروق في فرن قديم قدم الدهر، عيناه واسعتان كحيلتان، بياض مقلتيْه مشرب بلون برتقالي كأنه أنهى لتوه زجاجة نبيذ معتق، طويل ولكنه ليس فارع الطول، متين البنيان ولكنه ليس

مصارعًا وفي ذراعه جرح طولي كبير، سأله ريتشارد وهو يغوص بعدسته في زوم داخل ذراعه عن سبب هذا الجرح الكبير.

ـ تمساح أحول رآني كلبًا فخرج في لمح البصر من جوف النيل وهجم على ذراعي فهبشها، ولكنني استطعت الإفلات منه.

ـ ولماذا تصورت أنه رآك كلبًا؟

ـ الكلب هو عدو التمساح اللدود. كالقط والفأر. ولذلك فالكلاب هنا لا تسير أبدا على حافة النيل خوفا من هجوم التماسيح.

ـ لم أسمع أبدا بهذه العداوة المقيمة بين التمساح والكلب.

ـ هناك قصة تحكي لنا السبب وراء هذه العداوة التاريخية.

في يوم بعيد طلب كلب من التمساح أن يستعير لسانه كي يذهب به إلى حفل كبير، يضم كل كائنات النيل لكي يستطيع أن يبهرهم بحلو حديثه، ولكي يلتهم به أكبر قدر من الغذاء.. وافق التمساح وأعاره لسانه ولكن الكلب لم يعد أبدًا، والتمساح ما زال ينتظر حتى اليوم لسانه المفقود والغضب يكاد يفتك به. فمن المحتمل أن التمساح عندما هجم عليّ كان يتصور أن لسانه معي.

أكد مرتضى لزوجته كي يطمئنها أنه لا توجد تماسيح شمال السد العالي، وأنه من المستحيل وجود تماسيح في أسوان. فضحك حسونة ملء شدقيه وأكد أنه لا يوجد أكثر من التماسيح في النيل وفي أسوان تحديدا. فالتماسيح تمر من بوابات السد مع المياه دون أية مشكلة.

ـ هناك لافتات في أسوان نفسها تحذر من أن المنطقة مملوءة بالتماسيح. أما في القاهرة فتبذل المسطحات المائية جهودها لإيجاد التمساح الذى ظهر منذ شهريْن فقط لا غير في منطقة المعادى أمام فندق سوفيتيل، ويقال إن طوله يبلغ ستة أمتار، أما المهندس ماجد جورج وزير البيئة فأكد في تصريحات صحفية وبكل ثقة الوزراء أن طوله متران فقط، على الرغم من أنهم لم يجدوا له أي أثر. تكلم الوزير وكأنه رآه بأم عينيه وكان يسبح معه بالأمس وسط أمواج النيل الهادئة.

ثم أعلن حسونة لكي يطمئن الجميع:

ـ ولكن التماسيح تعيش في قاع النهر، ولا تهاجم البشر فلا خوف منها. فرد ريتشارد مبتسمًا: إلا طبعًا التماسيح ضعاف البصر.

ضحك حسونة وهو يرتدى الجلابية وقال بصوت هادئ عميق:

ـ سوف أريكم اليوم أرض النوبة العظيمة.

فوقف ريتشارد مبهور الأنفاس والتقط له صورة فوتوغرافية.

✧ ✧ ✧

من المؤكد أن حسونة هذا سليل ملوك سادوا وتسيدوا العالم. وإلا كيف يمكن أن تكون حركاته الطبيعية بمثل هذه الرفعة؟ نظراته وإيماءاته وسكونه كملك متوج، أداء صوته، رنين جرسه، ذراعه وأنفه وحاجباه كأنه أمير جرى تدريبه على يد جني كي يتوج سلطانًا للبشرية. الملكة إليزابيث تبدو بجانبه عاملة بوفيه. حتى ومرتضى

يمنحه أجر المركب لم يطلب ولم ينظر إلى المبلغ ولم يناقش، وكأن عبدًا يعيد لسيده وتاج رأسه مبلغًا من المال. ما هذه النظافة في كل شيء، المركب يضوي تحت أشعة الشمس كجوهرة. تلك أيضًا نظافة ملوك.. في بلدة مرتضى القذارة هي الحقيقة الوحيدة وما عداها باطل، وهذا هو المتوقع من بلد فقير كمصر. أما هنا في أسوان فلندن بجانبهم صفيحة قمامة. يجب أن أسأله غدًا إذا كان يعرف أصله، فنفرتاري ذاتها قليلة عليه، ولكنني أخاف أن يسألني عن أصلي البريطاني وسوف أضطر إلى الاعتراف بأنه يعود إلى قرصان أعور.

✧ ✧ ✧

دخل مرتضى وزوجته إلى حجرتهم المطلة على النيل، وتوجه ريتشارد مباشرة إلى خارج الفندق؛ للبحث عن محل لطباعة الصور. وجده على كورنيش النيل في مكان ليس ببعيد عن الفندق، سحب بنكنوتًا مصريًا ببطاقة ائتمانه وطبع عددًا من الصور لحسونة وعاد مسرعًا إلى غرفته وجلس على المكتب، وأخرج الأقلام والأوراق، ووضع الصور أمامه، وبدأ في رسم وجه حسونة وهو في حالة شوق.

✧ ✧ ✧

دخل حسونة منزله وهو يدندن بصوته الجميل، فوضعت زوجته فاطمة طفلهما الرضيع على المرتبة ونظرت إليه بحب.

- سرَّبت زعابيبك فين؟ ربنا يستر!

فأخرج لها ست ورقات من فئة عشرة الجنيهات وابتسم في سعادة.

ـ أيوه كده اضحك وخللي كل الدنيا تضحك لنا.

تعلمت فاطمة عبر السنوات أن تنحني عندما تقوم الزعابيب؛ لأنها عندما تهب تمزق أقوى القلوع، فما بالك بقلبها؟ كان منزلهما نتوءًا من منزل جد حسونة في جسد أرضهم، مكون من مضيفة وحجرة نوم واحدة، أما الممر بين الحجرتين فيتم التعامل معه باعتباره حجرة معيشة وحجرة سفرة وملعبًا للأولاد. أما جلسة فاطمة المحببة فهي أيضًا في هذا الممر، مباشرة تحت فتحة التهوية العالية المغطاة بسلك لمنع دخول الحشرات والزواحف. الممر مغطى بسجاد من الخوص الملون ملقى عليه متكآت مختلفة الأحجام. وفي وسط الممر يمكن أن ترى الصورة الوحيدة المعلقة في المنزل كله والتي تعتبر كنزًا لا يمتلكه معظم النوبيين.

لقطة فوتوغرافية لمنزل أهل فاطمة في قريتهم المستكنة الآن في قرار السد العالي. كان جدها يعمل في صحيفة «مصباح النوبة» عام ١٩٣٧ وقد التقط الصورة زميل مصور.

يقف الجد وثلاثة من أبنائه على يسار الصورة، وخلفهم بيت نوبي كبير. عالم اندثر وكأن قنبلة قد أتت عليه.

✦ ✦ ✦

استقبل حسونة في اليوم التالي قنبلتين عندما كان واقفًا في قاعة استقبال فندق كاتراكت القديم، كانت قنبلة واحدة منهما فقط تكفي لتفجير حياته.

ما هذه الكوارث التي تلاحقني بكل عشق؟

الكارثة الأولى عامة سوف تفيض بخيرها الوفير على الكثيرين من أمثاله: فندق كاتراكت سوف يغلق أبوابه بعد أشهر قليلة ولمدة عامين على الأقل. يا لها من كارثة محيقة. ماذا يمكنه أن يفعل؟ كيف سيعيشون هو وعائلته؟ فموقعه الوحيد تحت أقدام هذا الفندق وربحه من زبائنه. ولن يستطيع بالطبع إيجاد مكان آخر؛ فكل مرساة محجوزة لمجموعة من المراكب. عندما تم إغلاق فندق أوبروي للتجديد ذهب مراكبية أوبروي إلى الوباء، حاولوا مع مجموعة كاتراكت فرفضوا.

ساقية قلابة وجاء الدور علينا كي نصلى بنار الدنيا.

أما الكارثة الثانية فواقعة على رأسه وحده. فلقد اتصل به نابري وقال له إنه لن يتمكن من إرسال مبلغ خمسة الآلاف جنيه وهي الدفعة الثانية من مبلغ الثلاثين ألف جنيه التي دفعوها للسمسار قبل بداية شهر سبتمبر. ماذا سوف يقول لوالده الذي يجب أن يدفع دفعة القرض في منتصف يوليو؟ وهذا معناه أيضًا أنه لن يتمكن من الخروج من مصر قبل عام أو أكثر.

تأتي المصائب متكاتفة الواحدة لصق الأخرى.. فالوحدة قوة تفتك به بسرعة وسهولة. لم يلحظ مجموعته الصغيرة التي انضم إليها المعماري الإيطالي وزوجته إلا عند ما ربت د.مرتضى على كتفه.

اتفقوا على أن يأخذهم بالمركب إلى قرية نوبية في غرب سُهيل، ومن هناك اتفق على استئجار سيارة تقلهم إلى معبدي كلابشة وفيلة.

وفي اليوم التالي سوف يأخذهم بالمركب لزيارة المقابر الفرعونية في غرب أسوان. كانت الرحلة في اتجاه الجنوب نحو جبل تقوق حيث مدينة ناصر. مروا بجانب العديد من الجزر التي علقت عليها لافتات محمية طبيعية، وبعدها أشار حسونة إلى منزل محمد منير على يسارهم وشرح بلغته الانجليزية التي تشبه لغة ترجمان أهرامات الجيزة أنه مطرب نوبي ويعد واحدًا من أشهر مطربي مصر. وحكى أن أخاه «منير» الذي يقيم في القاهرة منذ سنوات ويعمل سائقًا لعربة أجرة له صوت يشبه صوت محمد منير.

دخلت المركب في دوامة عنيفة تدور فيها بلورات الماء بسرعة مخيفة، وكأنها داخل خلاط موصول بتيار كهربائي يفوق في قوته المليون فولت، وقامت فجأة رياح آتية من الشمال. فوجئت ديبورا بزوجها ولأول مرة يتشجع ببهاء الكون وروعة الخلق ويحتضن يديْها بيديْه ويمنحها قبلة في عينيْها.

كانت الجزر الصخرية في النيل بعدد نجوم السماء، ومياه النيل بلون زرقة عيون ديبورا، وشجرة هنا ونخلة هناك والرمال الناعمة تتشابك مع الأفق. الأسود الصخري والأزرق النيلي والأخضر الزرعي، والأصفر الرملي يشكلون خريطة برائحة مسك الجنة. كان المسكين ريتشارد في حالة وجد. كان فنانًا تشكيليًا يسير داخل لوحة لم يتخيل وجودها على الأرض. حاول كوروساوا في فيلمه «أحلام» أن يسير داخل أحلام فان جوخ ولكنه الآن يسير داخل أحلام الرب.

اكتفى حسونة بالفرجة على الفروق بين الشعبيْن الانجليزي

والايطالي على مدار اليوم وهو يكتم ضحكه. فكيارا الإيطالية كانت تصرخ بالصوت الحياني كل دقيقة من الجمال الذي يحيطها، وحينها يقف زوجها لالتقاط الصورة حيث تشير بذراعها ثم تمسك وجهها بيديها وهي تشهق بقوة. أما ديبورا البريطانية فلم يظهر على وجهها أي انفعال على الرغم من أنها كانت في حالة سكر من بهاء اللون. مرتضى هو الوحيد الذي كان في هذه اللحظات يستمتع بالكون بحاسته في الشم؛ فهي دائمًا الأقوى لديه. هناك رائحة جديدة تغمره بالكامل، رائحة قمح بالعسل الأسود جعلته في حالة سكينة. طاف بفكره أنه الآن ولأول مرة في حياته على أرضه. يشعر بأنه يمتلك كل ما تقع عليه عيناه. يا لها من مشاعر فياضة تملأ قلاع صدره. فحتى في قريته الآلات أجنبية والسيارات والأسمنت والحديد وملابسه كذلك، أما هنا فهذا المركب هو هذا الذي صنعه الفراعنة، ملابس حسونة صنعها صانع مصري منذ آلاف الأعوام، هذه الجزر هي ملكنا والنيل والبيوت التي تحيطه من حجر المنطقة، مبنية بعمارة النوبة التاريخية والألوان نحن الذين صنعناها، الحبال والناس والتماثيل، وبُلغة حسونة، كل ما يحيطه مصري برائحة القمح المصري. لم يشعر أبدًا هذا الشعور، لم يتخيل أنه سوف يعيشه حتى وفاته؛ فنحن نعيش عالة على حضارة أخرى، أما هنا فنحن الحضارة.

أسرَّ مرتضى لحسونة بأفكاره فرد قائلًا: إن الشعب النوبي هو بالفعل من أكثر أعراق العالم نقاء حتى يقال إن في مجلس العموم البريطاني تمثالًا لشخص نوبي مكتوب على قاعدته هذا المعنى.

ـ ولكن يا دكتور مرتضى وللأسف الشديد ليس معنى ذلك أن

ما يحيطنا ملكنا فتلك أحلام القط الأسود؛ فجزر النوبة المتبقية تباع الواحدة بعد الأخرى، بعد أن اغرقوا معظم أراضينا، يقال لنا محمية وبعدها تتحول هذه المحمية إلى فندق، وحينها نسمع أسماء رجال في السلطة كشركاء لبيع الجزر، ومن يتصور أنه بماله يستطيع فعل أي شيء يضرب بالحذاء حتى يجد البلطجي الذي يحميه. والكارثة أن من يمتلك اليوم يستطيع في الغد أن يبيع لمن يشاء، وسوق المشترين بعرض الكون. أما النوبيون فهم لا يمتلكون شيئًا مما يحيطهم. كان كل نوبي يمتلك منزلًا كبيرًا وحوله خمسة أفدنة للزراعة، دفنت الأرض حية وتم تكديسنا في ممرات تفضي إلى حتفنا، كان كل نوبي يمتلك قوت يومه بالزراعة، أما الآن فنعيش على فتات الموائد. نحن شعب مزارع، ولكن قرر السادات أن يحولنا إلى خدم في مهنة السياحة. ولكن هل نمتلك مهنتنا الجديدة؟ بالطبع لا؛ فالشركات السياحية والمرشدون السياحيون يتدخلون كل لحظة في تفاصيل رزقنا الوحيد الممكن. كنا كريسة المراكب ننظم رحلات إلى الجزر والقرى النوبية كما أفعل معكم الآن ورحلات لأفراح نوبية، كنا نقدم للزائر روحنا على طبق من المحبة. كنا نبيع الخرز في المراكب ونقبل دائمًا ما يمنحه السائح. النوبيون لديهم من الكياسة وحسن المعاملة والكرم ما يسمح لهم بأن يهتموا بسعادة الزائر لأراضيهم، وعن حسن ضيافة الشعب النوبي يقال: «إن من يدخل النوبة بالطول يجلس فيها بالعرض».

ولذلك تجدنا دائمًا نترك أعطر الذكريات للسياح. أما الآن فتنظر الشركات السياحية في كل «لحظة» لعصرها كالليمونة في كروشهم المتخمة ولا يفرطون في قطرة واحدة. حتى ضاقت بنا سبل العيش

أمام نهم الديناصورات التي لن تشبع إلا بانقراضها. تعطي شركات السياحة اليوم للمركب من خمسين جنيهًا إلى مائة جنيه للرحلة النيلية التي تستمر ساعتيْن لفوج سياحي كامل. ويحصدون هم الرقم نفسه وأكثر منه ولكن من السائح الواحد.

أما المرشدون السياحيون فيرفض معظمهم أن يبيع الريس أي خرزة على المركب وهي الوسيلة الوحيدة الآن للكسب، ليبيعوا هم في المحلات التابعة للشركات السياحية نفسها، كما يرفض الكثير منهم أن يحصل المراكبي على بقشيش معللين ذلك بأنه حصل من الشركة على قيمة الرحلة. يعاملنا المرشدون السياحيون وكأننا نعيش في رغد، أما هم فيستبيحون وحدهم دم السياح عن طريق عمولات قذرة. تتدخل الشركات الأجنبية والمصرية في كل مليم يخرج من جيب السائح وتذهب معظم تلك الإيرادات إلى خزائنهم الكائنة خارج مصر. في الكتب المدرسية يقولون إن محمد على باشا كان الزارع الوحيد والصانع الوحيد، أما الآن فشلة واحدة محدودة العدد في مجال السياحة تمتلك كل المراكب وكل المحلات وكل الشركات.

يعلو صوت حسونة دون أن يفقد عمقه:

ـ أحكموا قبضتهم على رقبتنا، فما نحصل عليه اليوم لا يكفي إلا لإبادتنا.

لماذا نتحمل نحن النوبيين كل تلك المهانة؟ وإلى أي مدى يمكننا أن نتحمل الجوع؟ إلى أي مدى يمكن أن نقبل أكل فتات الموائد؟

الرد الوحيد الممكن هو أن نواجه الديناصورات بالحقيقة قبل

أن نموت. نقول لهم إن معابد أبي سمبل وفيلة وكلبشة على أراضينا نحن، وكل ما تزخر به محافظة أسوان من حقنا نحن النوبيين.

✦ ✦ ✦

كان صبري نابري والد حسونة مستلقيًا على السرير مستسلمًا لحالة الكسل الجميلة التي تهبها الشمس بسخاء لأبنائها المخلصين، عندما دخل عليه ابنه لينقل إليه الخبرَيْن الأسودَيْن. كان صبري رجلا قصير القامة، نحيف الجسد، سمح القسمات، رقيق الصوت، نسمة جميلة لا يمكن أن تلحظها إلا إذا دققت البصر. صورة مغايرة تمامًا لحسونة الذي ورث عن جده لأمه ملامحه الكاريزمية، وحضوره الطاغي وصوته العريض. تلقى صبري الخبر بهدوء يليق بخبير مثمن في سماع الأخبار الكارثية، أخذ نفسًا عميقًا من الشيشة المستلقية إلى جانبه، وابتسم ابتسامته العذبة وسأله عن أحوال أبنائه. ثم تبادلا الحديث والحواديت وحكى صبري لحسونة عن آخر أخبار أخيه صالح الذي سافر إلى القاهرة منذ أكثر من ثلاثين عامًا، ويعمل هناك في جروبي شارع عدلي، وأخبار راضي أخيه الأكبر المقيم بالخرطوم. وانتهى الحوار بأن أبلغ الأب ابنه بأنه يسعى هذه الأيام إلى الهروب إلى السودان للعمل هناك، وبأنه اتصل اليوم براضي في الخرطوم الذي وعده أن يجد له وظيفة طباخ هناك. فالجنيه المصري كان يساوي منذ فترة ليست بعيدة ثلاثين جنيهًا سودانيًا، أما اليوم فالجنيه السوداني يساوي أكثر من أربعة جنيهات مصرية. وهذا معناه أنه يستطيع في فترة قصيرة أن يمتلك مبلغًا من المال يُمكِّن حسونة من الخروج.

تعبا من الحديث، فجلسا في صمت كل يتأمل بصيصًا من نور داخله، مشيا في سراديب داخلية وهما يئنان في صمت من صعوبة السير، اضطرا أكثر من مرة إلى التنهد بعمق لإدخال بعض الإضاءة داخل كهفيهما عسى أن يكتشفا شيئًا يريحهما من عذابهما.

✦ ✦ ✦

حلمت ديبورا في تلك الليلة بأنها حفيدة إيزيس أم الطبيعة وأصل الزمن، ورأت نفسها تتمشى بإزار فرعوني وعلى رأسها قرص القمر بدر بدور ينير معبد فيلة، وحتشبسوت على يسارها تقدم لها زهرة اللوتس.

كانت تسير وبطنها أمامها تسعة أشهر. وإيزيس ربة الأمومة تصاحبها حتى وصلوا إلى قدس الأقـداس. خلعت ملابسها بمساعدة حتشبسوت، وجلست على مقعد الولادة ومدت إيزيس يدها ولامست فرجها وقالت:

ـ يا حفيدتي الحبيبة سوف تلدين ولدًا يحمل اسم أوزوريس وسوف ينشر الخير في الأرض، ولن تكون في قلبه نقطة واحدة من شر ست.

ثم أدخلت يدها المقدسة داخل رحمها فأنارت قدس الأقداس بنور إلهي، يعمي الأبصار، وخرج الطفل أوزوريس وشكر بكلمات واضحة ربة القمر، وحينها خفت الضوء تدريجيًا فوجدت ديبورا حتشبسوت تبكي خشوعًا ورهبة.

استيقظت ديبورا وهي تتحسس بطنها، لاحظت حركة خفيفة

وكأن يد جنينها تريد ملامسة يدها. أيقظت مرتضى من عز نومه وأعلنت له الخبر.

- واثقة أنا أني من سلالة إيزيس جئت، وأنني مصرية الأصل هاجر أجدادها إلى انجلترا لسبب مجهول، وها هي تعود أخيرًا إلى أرضها الأم.

أكمل مرتضى نومه دون تعليق باعتبار أن الولية حامل، والتخاريف حلال في هذه الأحوال. ولكنه فوجئ على الإفطار بأنها واثقة ثقة مطلقة من أنها مصرية، ولها صلة قرابة مؤكدة مع حتشبسوت فسألها ضاحكًا: «ولماذا لا تكون لها صلة قرابة مع جربوع سوت؟» ثم تساءل: هل الانجليز أيضًا لديهم هذا الصنف من المناخوليا.. أم هم النساء في كوكب الأرض ينشرون «الترالالي» بكل حب؟

أما ريتشارد الذي أنهى رسم حسونة في الساعة الثانية صباحًا، وتأكد في أثناء ملامسته وجنتيْه والغوص في حاجبيْه، ودعك شفتيْه بقلمه الرصاص أن هذا الرجل سليل ملوك مصر العظام؛ فلم يستغرب كثيرًا من كلام أخته حتى شك مرتضى في نفسه على أساس أن الكثرة تغلب الشجاعة.

✧ ✧ ✧

النوبيون في جنوب أسوان مثل فاطمة زوجة حسونة يطلق عليهم فادكية ويعيشون في قرى مثل دكة وكوشتمملا وجوتا وكلبشة وديبوت وأمباركاف وديهميت وجرف حسين وتوشكا، ويتحدثون

فاجيكة، أما النوبيون في أسوان مثل حسونة فيطلق عليهم ماتوكية يتحدثون كنزي ويطلق عليهم أيضًا كنوز. يتحدث حسونة كنزية مع أهله وناسه وقد تعلم العربية لأول مرة بعد سن السادسة عند دخوله المدرسة الابتدائية وعندما يتكلم العربية تشعر لو تأملت مليًا طريقة نطقه أن هذه اللغة ليست لغته الأم، أما لو كنت البروفيسير هنري هيجنز في سيدتي الجميلة فسوف تدرك من أول حرف أنه يتحدث لغة أجنبية، على الرغم من أنه أفضل مَنْ في عائلته في لغته العربية، فأخوه نابري يتحدث العربية بخجل حديثي التعلم، وإذا أضفت إلى هذا الخجل خفوت صوته الذي ورثه عن أبيه، فسوف تدرك صعوبة فهم حديثه.

يتوقع حسونة اختفاء اللغة النوبية في أسوان خلال عقود قليلة قادمة من الزمان، فالكثير من الأطفال النوبيين اليوم لا يتحدثون كنزي، ويتكلم معهم آباؤهم بالعربية لتسهيل التحاقهم بالمدرسة بعد أن عانوا هم الأمرين من قسوة المدرسين والنظار من عدم تكلمهم العربية. اقترب من المركب ثلاثة أطفال لا يتعدى سنهم الأعوام الستة مقنفدين داخل براميل خشبية تسع أجسادهم الصغيرة بصعوبة وهم يجدفون بأذرعهم النحيلة وبدأوا ينظرون إلى ريتشارد وديبورا نظرات توسل عسى أن يتلقوا حسنة لله. ولكي يثبت حسونة صحة ما يقوله، بدأ الحديث معهم بالنوبية فردوا بالعربية، واحد من الثلاثة فقط كان يتحدث النوبية. أكد لهم حسونة أن نسبة من يتحدث بلغتهم أصبحت اليوم تحت سن السادسة هي الثلث في مقابل ثلثين، وبعد خمسين عامًا لن تجد بالتأكيد هذا الثلث. وبصوت خافت تغلفه المرارة وكأن حسونة يكلم نفسه:

«يجب أن نفعل شيئًا حالًا وإلا ضاعت حضارة النوبة إلى الأبد».

✧ ✧ ✧

وصلوا عند المقابر الفرعونية غرب أسوان، وصمم ريتشارد على أن يرافقهم حسونة الذي رغب في أن ينتظرهم في مركبه. رضخ حسونة للإلحاح بفرح وتقدمهم، ساروا وراءه نحو شباك التذاكر. نظر مرتضى إلى أعلى بوجل. ما هذه الدرجات التي لا نهاية لها التي تحتضن عنان السماء؟ كيف ستتسلق زوجته الحامل هذا الجبل الذي يبدو من حافة النهر، وكأنه بلا نهاية؟ طمأنته ديبورا وذكرته بأنها في حماية إيزيس، ولا يمكن أن يصيبها مكروه، أما ابنهما فهو في حماية أوزوريس إله الخصوبة والملقب بسيد الغربيين. ولكن عندما اقترحت ديبورا أن يمتطوا جمالًا للذهاب إلى مقبرة أغاخان من خلف الجبل في قلب الصحراء، صرخ مرتضى بأعلى صوته: ملعون أبو أوزوريس على أم إيزيس، سوف نفقد طفلنا يا مجنووونة. بدأوا في تسلق الجبل، ومرتضى يسير خلف ديبورا لحمايتها، ثم طلب من الجميع التوقف قليلًا في منتصف الطريق.

وصلوا أخيرًا إلى المقابر الفرعونية المحفورة داخل جسد جبل غرب أسوان، وبدأ حسونة الذي بدا خبيرًا يحكي لهم أن المقابر كلها لنوبيين حكموا جزيرة أسوان؛ حيث إن سكان هذه المدينة تاريخيًا كانوا يعيشون فقط في هذه الجزيرة. وأسوان كلمة نوبية تنطق بالنوبية «أسي وانج» وهي الماء الظاهر. أما الآن فيطلق عليها جزيرة أليفونتين، وهي كلمة انجليزية تعني الفيل وذلك لتقارب

شكل النتوءات الصخرية برأس الفيل، وقررت الدولة المصرية أن تحتفظ بميراثها الاستعماري، وتؤكد على تسمية أليفونتين وتنسى الاسم النوبي أسي وانج. ويستكمل حسونة حديثه: معظم الأسماء في بلدنا نوبية الأصل، فمصر هي كلمة نوبية «مسي» بتشديد السين ومعناها جميل. أي أن مصر أرض الجمال والبهاء. والغريب أن الجميع يتساءل: من أين جاءت تسمية مصر؟ ومتى جاءت هذه التسمية؟ وكالعادة نسوا تمامًا اللغة النوبية والحضارة النوبية التي كانت جزءً رئيسًا من نسيج الحضارة المصرية القديمة، حتى كلمة الأقصر كلمة نوبية تنطق بالنوبية أق سر بضم الألف وتسكين القاف، وتعني عقد الرقبة وذلك لطبيعتها الجغرافية، أما الكلام بأنها كلمة عربية بمعنى قصر؛ فهو كلام ساذج تاريخيًا ولا أساس له من الصحة إلا احتقار وعدم دراية بحضارتنا النوبية، فالجميع يتعامل مع معطيات التاريخ وكأنه ليس لنا وجود.

بعد زيارة أكثر من مقبرة، وصلوا إلى مقبرة سارنبوت الثاني (Sarenpout2) وهو حاكم جزيرة أسوان من الأسرة الثانية عشرة. وقد عاش تحت حكم أمنمحات الثاني. ليس في القاعة الأولى أي رسومات، ولكنها مصقولة داخل كتلة حجرية رائعة. دلفوا بعدها إلى ممر أبيض تتراص على يساره مجموعة من التماثيل التي تفضي إلى قاعة ذات أعمدة مزخرفة وعلى اليسار، سلال ممتلئة بالعظام، وفي عمق الصالة وجدوا كوة مرسومة، ألوانها من الطزاجة بحيث يمكن أن تحلف بالأيمان بأن الرسام أنهى رسمه مساء أمس. وقف ريتشارد مشدوهًا أمام هذه اللوحة حتى سمع الحارس وهو يشير إلى سرداب عليه سلك شائك يقول إن هذا السرداب يمتد مئات

الكيلومترات في قلب الجبل الغربي حتى يصل إلى مقابر البر الغربي في الأقصر وقد أغلقته منظمة اليونسكو. ثم أضاف الحارس بصوت نحاسي: إن كل من دخل هذا السرداب لم نعرف بعدها له أثرًا؛ فالداخل مفقود تلاحقه اللعنة الأبدية.

✦ ✦ ✦

أنا دخلت بالفعل إلى داخل سرداب بتذكرة ذهاب بلا عودة؛ فقدت روحي وأصبت باللعنة النوبية، أستطيع أن أتنازل عن حياتي راضيًا من أجل هذا الرجل. لم أتوقع وأنا في الثامنة والأربعين أن أحب بهذا الجنون. كنت متأكدًا أن عصر الوله قد مضى وانقضى، وأنني أعيش مرحلة العقل، وأن قلبي لن يرتجف ثانية داخل ضلوعي. لكن ذهب عقلي. ليس بيني وبينه أي شيء مشترك، نحن من عالمين مختلفين ونتظلّل بسماوات متباعدات ولكنني بداخل سردابه لم أعد أرى إلا هو. أغمض عيني فأرى ملامح وجهه، أغلق مفاتيح أذني فأسمع ذبذبات صوته، ماذا حل بي؟ لا أريد الآن من الدنيا إلا أن أصبح بجانبه. واثق أنا أنه ليس ميالًا إلى صنف الرجال ولكن ما حيلتي أمام جيشان روحي. لقد سيطر تمامًا على كل انفعالاتي وامتلكني إلى الأبد. ماذا يمكنني أن أفعل حيال مشاعري؟ هل من الممكن أن يعيرني أحد إجابة شافية لغليلي.

✦ ✦ ✦

عاد حسونة إلى منزله فوجد أباه أمام المنزل جالسًا مع اثنين من أفراد العائلة المترامية المبعثرة في كل أنحاء المعمورة، يحتسون

النعناع ويدرسون أفضل السبل للسفر إلى السودان. أكد عبد النبي ابن خالة أم حسونة أن الموضوع في منتهى الصعوبة، وأن إيجاد عمل هناك أصبح أمرًا متعثرًا بعد نزوح عدد كبير من أهاليّ الجنوب المصري إلى الخرطوم وكذلك من اريتريا ومن تشاد. أصبحت المرتبات في السودان شديدة الإغراء كفتاة تقوم بعملية ستربتيز. فمرتباتهم أصبحت تتخطى خمسة أضعاف المرتبات المصرية. أما محمود فقد حكى عن نسيب له أستاذ في جامعة القاهرة كان في زيارة علمية إلى جامعة الخرطوم، واكتشف هناك أن مرتب المعيد في هذه الجامعة الحكومية هو سبعمائة وخمسون دولارًا أمريكيًا أما المدرس فيصل إلى ألف وأربعمائة دولار أمريكي، بينما مرتبه هو بعد خمسة وعشرين عامًا من التدريس الجامعي لا يتعدى نصف مرتب المعيد الذي تخرج العام الماضي. لكن نتيجة لذلك بات الحصول على عمل شديد التعقيد.

السودان أصبحت حلمًا صعب المنال.

لم يلِيّن هذا الكلام المحبط من عزيمة صبري وقال له: «ما لنا نحن وأساتذة الجامعة؟». الأمل كل الأمل في وظيفة طباخ عند أحد السفراء أو القناصل أو وجهاء القوم. وقد وعده راضي بإلحاقه بعمل قريبًا. هذه ضرورة، فحسونة يحتاج إلى المال لكي يسافر إلى إيطاليا خاصة أن رزقه سوف ينقطع بعد إغلاق فندق كاتراكت.

ـ لا بد أن نصل إلى حل ونهاجر إلى السودان فورًا.

✧ ✧ ✧

تتلخص خطة حسونة للسفر إلى إيطاليا في أن يغير أولا من مكان إقامته من أسوان إلى الإسكندرية، ثم ينشئ ثانية شركة ويكون له سجل تجاري لتجارة الأجهزة المنزلية أو لتجارة الجلود، وثالثا يصدر بطاقة من الإسكندرية مكتوبًا فيها بحروف من نور أنه رجل أعمال، ويضع مالًا في حساب هذه الشركة الوهمية، وقد وعده أكثر من شخص بأنهم سوف يقرضونه مالًا لمدة يومين أو ثلاثة لوضعه في الحساب البنكي حتى إصدار بيان مصرفي بحساب الشركة. وفي النهاية، يصدر جواز سفر ببيانات البطاقة. ثم يتوجه إلى القنصلية الإيطالية بالإسكندرية للحصول على تأشيرة لمدة أسبوع لزيارة بعض أصحاب مصانع الأجهزة المنزلية، أو للتعرف على مصانع الجلود في إيطاليا باعتباره مدمن شم رائحة دبغ الجلود.

نجحت هذه الخطة قبل ذلك مع صديقه حربي الذي يعمل طباخًا في مطعم في جنوا، وعائلته الآن تعيش في جزيرة أسوان في بحبوحة من أمرها بفضل تحويلاته المالية لهم. ما لم يذكره حسونة لأبيه ولأقربائه أن حربي اضطر إلى الدخول في مغامرة جنسية مع موظفة إيطالية في الخمسين من العمر، وكان أداؤه الجنسي كعاهر من الروعة والكفاءة أنها ساعدته كثيرًا حتى حصل على التأشيرة. ولكن حتى العهر غير كافٍ وحده في معظم الأحوال، فبالإضافة إليه هناك تكلفة صناعة هذه الحدوتة الوهمية التي يعشقها موظفو القنصليات الأوروبية، وقد تعدت التكلفة مبلغ العشرين ألف جنيه في حالة حربي، والمأساة أنها غير مضمونة بنسبة مائة في المائة. تركهم حسونة يستكملون حواديت الخروج ودخل على زوجته ليعطيها غلة اليوم. وبمجرد دخوله إلى الممر الواقع داخل

منزله سمع صرخات والده، فجرى هو وفاطمة مذعورين نحو الساحة الخارجية.

✦ ✦ ✦

اجتمع مرتضى وزوجته وريتشارد كالعادة على مائدة العشاء في الفندق، وانتظر ريتشارد حتى نهاية الطبق الثاني ليعلن لهم أنه لن يسافر معهم، وأنه سوف يبقى أياما قليلة إضافية في أسوان لاكتشاف أمر هذا السرداب في مقبرة سارنبوت الثاني، وأنه يريد التأكد من وصول السرداب فعلا حتى البر الغربي في الأقصر. وأن كارتر الذي اكتشف مقبرة توت عنخ آمون كان مغامرًا صعلوكًا مثله تمامًا، وأصبح من المشاهير بسبب سيره وراء كلمات أبناء البلد. عبرت ديبورا عن سعادتها البالغة بهذا القرار، وظن مرتضى أنه ناسب عائلة مجانين. وعندما ذهب لغسل يديْه اعترف ريتشارد لأخته بحبه المجنون لحسونة، وأنه يجد أن هناك استحالة لتركه هكذا ببساطة، وأنه اتصل بدار النشر واتفق مع مديرها على أن يرسل إليهم العمل عبر البريد الإلكتروني. وطلب منها ألا تبلغ زوجها فهو لن يفهم أو يتفهم.

✦ ✦ ✦

خرج حسونة وفاطمة فوجدوا نابري بلحمه ودمه في مواجهتهم وحوله زوجته وأولاده. فقد موَّل طلعت ذهني رحلته من الكويت إلى أسوان مستغلًا سفر العائلة الكويتية التي يعمل لديها إلى الولايات المتحدة؛ لكي يبحث له عن قطعة الأرض المناسبة لمشروعه. على

أن يمكث نابري أسبوعًا واحدًا في أسوان يعود بعدها إلى الكويت غانمًا بقطعة الأرض. وبعد عملية الشراء، سوف تكون له نسبة ١٪ من قيمتها.

من الذي يمكن أن يساعدهم؟ فموضوع شراء قطعة أرض لمشروع بهذا الحجم، يحتاج إلى شبكة علاقات أكبر من شبكة ياهو. اقترحت فاطمة التي تعمل في الكهرباء أن يذهبوا إلى إحدى زميلاتها التي تعمل أختها في الزراعة، وبالتأكيد سوف تكون لديها معلومات عن بيع قطع أراضٍ.

ـ ولكن سوف تكون هذه أرضًا زراعية؛ ونحن نبحث لذلك المشروع عن قطعة لأرض على النيل تصلح لمشروع استثماري.

ـ سوف تكون لديها معلومات.. لا شك عندي في ذلك.

ـ أسكتي يا فاطمة.

أخيرًا قال لهم صبري إن على نابري الذهاب بالتأكيد إلى سليم رمضان؛ فمهما ارتفع وعلا فهو ابن من أبنائنا ولن يسعه طردنا كالذباب.

✧ ✧ ✧

سليم رمضان هو نوبي من جنوب أسوان. قصته حلم كل نوبي. فمثلما يحلم كل لاعب كرة صغير بقصة بيليه الجوهرة السوداء، هذا المعدم الصغير البائس الذي أصبح جوهرة متلألئة في الدنيا كلها. يحلم كل نوبي من أسوان بقصة سليم رمضان. فوجوده بينهم

هو ـ في حد ذاته ـ برهان أن القصص الخرافية لم تعد خرافية وأنها كما حدثت لأخينا سليم يمكن حدوثها لنا أيضًا.

سليم المراكبي الشاب كان في العشرين من العمر، عندما حدثت المعجزة. كانت صفارة البداية لقصته الخرافية قد انطلقت في أثناء رحلة نيلية إلى القرية النوبية قبل غروب الشمس بقليل. كان سليم حينها يقل مجموعة سياحية ألمانية عندما اقتربت منه سائحة من المجموعة، كانت امرأة شقراء نحيفة بشكل ملحوظ وأكثر ما يميزها عيناها الواسعتان بشكل مخيف، وأنفها الكبير وذقنها المسنون بحدة لإنهاء مثلث وجهها؛ كانت في الخامسة والأربعين من العمر، تبادلت معه الحديث،هو بلغته الانجليزية الركيكة، وهي تتحدث وكأنها تمتلك لغة شكسبير. بدا للحكم الذي أطلق صفارة بدء المباراة أن رموشها قد طالت بضعة ملليمترات، عندما انحنت قليلا بصورة عفوية واستنشقت رائحة جلده. طلبت حينها من الحكم وقتًا إضافيًا. وفي اليوم التالي، طلبت سليم للقيام برحلة نيلية أخرى وحصلت منه حينها على رقم هاتفه. في الليلة نفسها عادت مع مجموعتها إلى وطنها.

لم يمر أسبوعان إلا وقد عادت إلى أسوان، وحدها هذه المرة، ومكثت مع سليم أسبوعيْن أذاقته فيها خبرة السنين ومنحها هو جبروت الشباب الغض الذي لم يتنسم سنتيمترًا مكعبًا واحدًا من التلوث طوال حياته. بعد عودتها إلى ألمانيا، اكتشفت أن القصة لم تنته، وأن صفارة النهاية التي تصورت أنها سوف تسمعها من فور عودتها لم تتناه إلى أذنها. استمر سليم يأتيها في منامها حتى

اضطرت استجابة لضغوط أحلامها إلى أن تعود بعد أربعة أشهر للزواج به.

حملته ورحلت به إلى ألمانيا. ويكتشف سليم في ألمانيا العجب العجاب. فتلك المرأة النحيفة ذات الأنف العظيم تمتلك من المال، ما يمكنه من أن يشتري كوكب الزهرة والمشترى والأرض وما عليها.

مكث هناك في رغد لا يطاق لمدة خمسة أعوام، ثم طلب منها أن يعود إلى أسوان ليشترى مركبا. فمنحته نفحة صغيرة من المال يكفي لشراء النوبة وما عليها. وعامًا بعد آخر، أصبح أغنى أغنياء أسوان والمدن المحيطة.

✧ ✧ ✧

نحن لن نطلب منه مساعدة، كل ما نريده مجرد معلومة عن قطعة أرض.

مهما علا وارتفع في السماوات السبع، فهو في النهاية نوبي.

سوف أذهب إليه في الغد.

دارت أكواب الشاي.

ـ احكِ لنا عن أخبار الكويت؟

ـ حياة هادئة جميلة وسوف تؤتي ثمارًا وافرة.

ـ جفت هنا كل الينابيع كما تعلم، فما العمل؟ هل وجدت منفذًا لي في الكويت؟

ـ ليس بعد، ولكنني اتصلت اليوم بمبروك المنوفي.

ـ هل عنده جديد بالنسبة إلي؟

ـ لا أعلم، ولكنني تحدثت معه ظهرًا، وقال لي إنه سيزور أسوان في صباح الغد.

ـ أرجو أن تلتقي به قبل عودتك إلى الكويت. لا بد من طرق كل الأبواب. فلا أحد يمكنه أن يعلم بالنتائج؟

ـ سوف ألتقي به بالتأكيد، هل تعلم أنني قمت صباحًا بتسديد قسط خمسة الآلاف جنيه للحاج إبراهيم؟

ـ همّ وانزاح.

✦ ✦ ✦

انفض الجمع واتجه حسونة ونابري وحدهما إلى شاطئ النيل، كل يضع يده على كتف الآخر.

حسونة.. بالنسبة إلى عائلتي وأنا غائب.. أنا ممتن جدًّا لما تقوم به لأولادي ولـ...

فوجئ نابري بلطمات تنهال على وجهه، تلتها لكمة في بطنه. فبادله اللكمات وانتهت المصارعة كالعادة بأن خلعوا ملابسهم وقفزوا في النيل، وبدأوا سباقًا محمومًا نحو جزيرة النباتات في الناحية المقابلة من منزلهم، كان تيار الماء قويًّا نحو الشمال، ولكن قوة ضربات أذرعهم حالت دون أن ينجرفوا مع التيار، كانت الأكتاف شبه متلامسة وكل واحد يبذل قصارى جهده في أن يتقدم،

ولكن إصرار كل واحد منهما على أن ينتصر حال دون أن يسبق أحدهما الآخر، ولكن قبل الوصول إلى الضفة الأخرى بأمتار قليلة تضاعفت قوة ضربات حسونة ليفوز بالسباق كعادته. كان فارق العمر بين الأخويْن عشرة أشهر. كلاهما من مواليد العام نفسه، كانا متقاربيْن روحيًا كالتوءميْن على الرغم من اختلافهما الشاسع في الشكل فإن كليهما يتمتع بعذوبة وأصالة ومعدن نفيس.

عادا إلى الجزيرة - وهما يتراشقان بالماء - طفلين لم يتخطيا العاشرة.

✦ ✦ ✦

فتح مرتضى باب حجرته لريتشارد وأكمل إحكام غلق الحقائب.

جلس ريتشارد على أحد المقاعد الخشبية، وتأمل الغرفة التي بدت أكبر من غرفته بكثير. كانت الغرفة ذات أرضية خشبية تحدث صريرًا عند المشي عليها. كانت كل قطعة في الغرفة تحمل عبق التاريخ ورائحة ذكريات عطنة. كانت ديبورا واقفة في الشرفة مستندة إلى مقعد من وجع ألَمَّ بركبتها من طول الوقفة وهي تعد حقائب السفر. كانت في حالة سكينة منحتها إياها الربة إيزيس وهي تودع المنظر الخلاب للنيل، ولسلسلة الجزر الصخرية التي تمتد أمامها إلى ما لا نهاية. كانت الرياح الدافئة الجافة تلفح وجهها. فكرت أن هذا الهواء الشديد الجفاف هو صانع هذه الحضارة أو بالأحرى هو الذي أبقاها وسوف يحفظها إلى الأبد. تنفست بعمق حتى ملأت جوفها ثم طلبت من أوزوريس أن يأخذ نصيبه من هواء الأجداد، ويختزنه ويبدأ في اجتراره عند وصوله إلى هيثرو. اقتربت ديبورا

من ريتشارد، واحتضنته وربتت على رأسه بحنان؛ فلقد أخرجتها حالة الشجن المصرية من تحفظها البريطاني. ضحك مرتضى «ما كل هذا الحب؟ هل تتمحكين في أخيك قبل أن يصبح واحدًا من مشاهير علماء المصريات؟» ثم طلب مرتضى من ريتشارد أن يضع أسماءهم في مجموعة المكتشفين عندما يكون أول من يصل من أسوان إلى الأقصر عبر السرداب التاريخي. وعده ريتشارد خيرًا وقال له، إنه سوف يبدأ اكتشافاته بتعميده في مياه النيل، فقد اتفق مع حسونة على الذهاب إلى شاطئ ملاصق للكاتاراكت الأول. واتسعت ابتسامته وهو يقول: «سوف يساعدني هذا الغسيل الروحي، على أن أبدأ صفحة جديدة من حياتي كمكتشف للآثار المصرية السمراء ذات العيون الكحيلة». سافرت ديبورا وقد وقعت في وله هذا البلد. أصبحت المسكينة أسيرة لحالة عشق عميقة. وشعرت بأن حبها لمرتضى تضاعف آلاف المرات.

✧ ✧ ✧

أتذكر نفسي تلميذا في مدرستي غرب لندن وأنا أدرس سلسلة كاتراكت نهر النيل والتي تبدأ بالكاتاركت الأول في جنوب مدينة أسوان حتى الكاتاركت السادس شمال مدينة الخرطوم . أرى وجه أستاذي مستر هوارد بتفاصيل كل تجعيدة على وجهه الطيب، وهو يرينا خريطة نهر النيل واهب أعظم حضارات الأرض قاطبة. كيف مرت بي السنون بهذه السرعة الجنونية؟ لا أتذكر شيئًا من حياتي السابقة. هل أنا فعلًا على أعتاب الخمسين؟ لا أظن على الإطلاق.

هناك بالتأكيد شيطان مريد ضغط على زر التقديم السريع في شريط حياتي، وعليه الآن أن يضغط على زر العودة السريعة ويتركني أتأمل كل مرحلة مرت لكي أتذوقها على مهل. أريد أن أقف عند كل لحظة لفترة زمنية تسمح لي بأن أرسمها، وألونها بألوان الزمرد والياقوت. أريد أن أوقف هذه الثانية بالذات وأنا الآن مع حسونة عند الكاتاراكت الأول لنهر النيل وهو يخلع ملابسه للقفز داخل «نون» هذه المياه الأزلية. أريد أن أضغط الآن على زر التوقيف لكي أتمعن في تفاصيل جسده. عضلاته النافرة ولون بشرته الذي يلمع من كثرة عطف الشمس عليه. تفاصيل أنفه الكبير الذي يمنحه عظمة تضيف إلى إمارته إمارة. أريد أن أنحته صلصالًا وأبث فيه من روحي، وأضعه لصق جسدي حيًا فياضًا. الحل الأمثل ولا شك لكي تبقى هذه الصورة معي إلى الأبد، أن يختارني الرب إلى جانبه الآن ولسوف أكون سعيدًا. لتكون صورة هذا الشاطئ البازغ من صحراء برتقالية، نائمة في حضن نهر هادر، يضرب بعنفوان تلك الجزر الصخرية التي تنبت من أثدائها أشجارًا باسقة، ووسط كل هذا الجمال المتفجر يمتد حسونة بقامته ليوصل فيكتوريا بالمتوسط. لا لا أريد أن أموت، أريد أن يسخطني الشيطان جزيرة صخرية وسط هذا الكاتاراكت.

ـ ما الذي ستفعله بعد إغلاق الفندق؟

ـ الحل هو الخروج من مصر للعمل في أرض الله الواسعة.

ـ إلى أين؟

ـ أفضل ايطاليا.

- ولماذا لا تفكر في انجلترا وأنت تتحدث الانجليزية ولا تعرف الايطالية؟

- تأشيرة انجلترا شبه مستحيلة، بالإضافة إلى أن هناك حلولًا للتسلل إلى ايطاليا من البحر أو من الشرق عبر البر. أما انجلترا فبعيدة جدًّا.

- أنا بإمكاني مساعدتك.

- هل أنت جاد فيما تقول؟

- لو أردت لفعلت من أجلك أي شيء.

وفاضت نظراته بالحنان والرغبة والوله. ارتد حسونة وقفز من الشاطئ إلى المركب، وارتدى جلبابه وبدأ في تنظيف المركب للمرة الألف بعد المليون. صعد ريتشارد هو الآخر إلى المركب وطلب منه أن يكون له موديل؛ فهو يريد أن يرسم نوبيًّا ولن يجد أفضل منه وسوف يدفع له ما يريد. بل سينتظره غدًا في غرفته في الخامسة بعد الظهر ليرسمه ويتفق معه على تفاصيل حصوله على تأشيرة دخول انجلترا. لم يرد حسونة وأقلع بالمركب.

✧ ✧ ✧

كانت الجلسة وسط نخلات ثلاث في بهيم ليل الجزيرة تضم أكثر من عشرين نوبيًّا التفوا حول نابري وحسونة. جاء الجميع ليعرف أحوال الكويت ورائحة نفط الكويت. حكى نابري واستفاض. كان أخيرًا على سجيته وهو يتحدث بالنوبية فصال وجالَ، ودارت الحواديت كما تدور الكؤوس وانتهت في حضن

المرارة. تكلم حسونة عن مطالبهم في حق العودة إلى أرضهم بعد استتباب أمر السد العالي واستقرار منسوب المياه خلف السد، وتساءل: أين ذهبت أموال منظمة الزراعة والأغذية الدولية التي أمدت مصر بمبلغ مليار و٣٠٠ مليون دولار لإعادة توطين النوبيين في هذه المنطقة؟ إن إعادة بناء القرى النوبية حول السد ضرورة حتمية. ورد آخر: كيف ذهب مطلبهم البسيط بإطلاق اسم محافظة النوبة على محافظة أسوان أدراج الرياح، وفي هذه الحالة يقتصر اسم أسوان على المدينة ذاتها كعاصمة للإقليم؟ حتى المقاعد التي يخصصها رئيس الجمهورية بالتعيين في مجلس الشورى لم يعين فيها أي نوبي في أي وقت مضى، ولا يوجد استثناء يوحد الله. وقف رجل في الخمسين ودار حولهم وتكلم في أسى بالغ: «كيف يمكننا إعادة الاعتبار لاسم النوبة؟ طالبنا باستبدال اسم بحيرة السد العالي ببحيرة النوبة، ولكن لا أذن تسمع فصوتنا همس، كل الجهود ذهبت هباء من أجل الاهتمام بالتاريخ النوبي، واللغة النوبية وتدريسهما، لنا لغة حية يراد إماتتها أو قتلها، ويجري إحياء لغات ميتة في دول أخرى. وقف أحد العاملين في القناة الثامنة صارخًا: «تم إنشاء قناة تلفزيونية في أسوان، وكان أقل تقدير أن تكون إذاعة وقناة تليفزيونية نوبية، ولكن أبدًا. الحكومة لا تكتفي فقط بتجاهلنا وكأننا حشرات، وإنما تشن حروبًا ضدنا حتى لا نمثل التمثيل اللائق في المجالس النيابية؛ فقد تم ضم دائرة مركز نصر النوبة ذي الكثافة السكانية النوبية المعقولة إلى مركز كوم أمبو بجنوب مصر صاحب الكثافة السكانية الأعلى غير النوبية، فى دائرة واحدة؛ حتى يخسر النوبيون مقعدي مجلسي الشعب والشورى.

فقال نابري: «لماذا تتحدثون في أمور السياسة العليا؟ فلنبدأ حديثنا بالأمور البسيطة وغير المتوفرة. لا يوجد أي اهتمام بالرياضة مع طاقة شبابية نوبية متفجرة؛ الجسد النوبي يستطيع صنع أبطال أهم من أبطال كينيا في ألعاب القوى، خذوا مثلًا حسونة في السباحة لا يهزمه أحد.. نحن أبناء النيل ولدنا كالتماسيح بين تياراته ولا يوجد مركز تدريب واحد للسباحة، وفي التجديف من يستطيع أن يهزمنا، ونحن نعيش في المراكب أكثر مما نعيش في منازلنا، ولا يوجد نادي تجديف محترف. كان يمكننا على الأقل أن نحصد لمصر بعض الميداليات الذهبية في الأولمبياد بدلًا من خيبتنا القوية. ماذا يتبقى أمام شبابنا إلا الثورة؟

جاء صوت حسونة الرخيم لينهي الحوار.

إننا أصحاب حضارة إنسانية رائدة هي من أعظم الحضارات ومن أقدمها على الإطلاق، وهى أصل الحضارة الفرعونية، بل سبقتها وتقدمت عليها، تجاهلوا شعبًا يتراوح تعداد سكانه بين ٤ إلى ٦ ملايين نسمة، ولا نعرف بدقة عددنا لأنهم يرفضون الإفصاح، كان كيان النوبيين قبل بناء السد العالي في أسوان بجنوب مصر، يمتد بطول ٣٥٠ كيلو مترًا في شمال النوبة، وأكثر من ١٥٠ كيلو مترًا في جنوبها. ولكن كيف يسمعوننا ونحن معدمون ولا نملك من قوتنا شيئًا. الحل أن نسافر ونجمع المال ونعود أقوياء لكي يصل صوتنا إلى القاهرة.

✦ ✦ ✦

لم تصدق فاطمة أذنيْها وحسونة يحكي لها ما جرى من الخواجة الإنجليزي على الرغم من كثرة ما سمعت من قصص مشابهة. أستاذ في جامعة هامبورج الألمانية أغرق مراكبي نوبي بالمال حتى اشترى سيارتي ميكروباص، وطبيب هولندي سقط في حب جمَّال فأرسل إليه دعوة لزيارة هولندا ومعها قيمة تذكرة طيران، وهو يعيش هناك الآن في أمستردام. ولكن أن يحدث هذا لحسونة لهو أمر لم يحسب له حساب. أغمضت عينيْها وسالت دموعها، والغريب أنها لم تبدِ أي اعتراض أو استحسان. إنما أبدت أسى على الأوضاع المالية التي يمكن أن تجعل السيد عبدًا، والملك شحاذًا.

✦ ✦ ✦

في طريقه لمقابلة سليم رمضان الذي وافق على مقابلته على مضض، وحدد له موعدًا بعد صلاة الظهر، التقى نابري بمبروك المنوفي السمسار على مقهى أمام مكتب سليم. كان مبروك في زيارة سريعة إلى أسوان للاتفاق مع ثلاثة وعشرين شابًا للسفر إلى إسبانيا قبل عودته إلى تلا في المنوفية.

كان نابري يريد أن يعرف كل التفاصيل لنقلها بالحرف إلى حسونة، ثم بدأ يسأله عن إمكانات السفر إلى ايطاليا هذه الأيام، وما الطرق الحالية الآمنة، وآخر أخبار بورصة الأسعار؟ وبدأ مبروك يجيب باستفاضة وبالتفاصيل المملة.

وعندما سمع نابري آذان الظهر، قام على عجل وأبلغ مبروك بأنه سوف يتحدث مع حسونة في الأمر.

أسرع نابري في اتجاه مكتب سليم وهو يفكر في حال حسونة، وكيف يمكنهم تدبير خروجه. وتوقفت الثواني عن الدوران عند ارتطام سيارة ميكروباص بجسده النحيل، وخرج صوته الهامس لآخر مرة وهو يتأوه.

مبروك المنوفي

جريت على نابري لقيت السواق ماسك إيده بيكشف على نبضه.

كان راح، روحه الخفيفة الجميلة طلعت بسهولة. باين مفيش غير الغتتين وولاد الكلب اللي بيعيشوا في البلد دي، زي حالاتي كده. أنا مرتين اتغرفت غَرفة سودة، مرة بعربية فيات ١٣٢ ومرة بلوري لكن أنا بقى غتت وناوي أطول في الدنيا دي.

مفيش في ثواني لقيت حوالين نابري أمة لا إله إلا الله. الأسفلت ولِد نوبيين في كل مكان وكام واحد منهم طلعوا قرايبه، رحت منسحب وطلعت على زاوية قريبة أصلي الظهر وأدعي له بالجنة.

إن شاء الله مصيره الجنة.

أنا يا ستي مشهور هنا باسم القنصل. وأنا وأعوذ بالله من كلمة أنا من مشاهير سماسرة الخروج من البلد ده. امسكي الخشب.. خرَّجت أكثر من ستة آلاف مصري آخر ١٥ سنة. فتلاقيني مركب خرزة زرقاء علشان زي ما سعادتك دارية عين الحسود فيها عود.

أنا من ميت أبو الكوم لكن عايش في تلا من يوم ما تنيلت على عيني واتجوزت، يعني منوفي وفخور إني منوفي.

تسأليني عملت ده إزاي؟

أقول لك إنه نمرة واحد بفضل الله وييجي بعد كدة إني وبدون فخر راجل فنان. لأن الراجل اللي يطلَّع ناس لبلاد برة لازم يبقى راجل عنده خيال. كل يوم بفكرة جديدة.

اسأليني ليه؟

لأن كل ما طريق نسفلته ويسلك، يكتشفوه ولاد الأبالسة، أعمل أنا بقى إيه؟ أقوم أخترع طريق تاني وأسفلته وأسلّكه. مش بأقول لك يا هانم خيال.

أحب في الأول أوضح إنه الكلام بإن أنا سمسار وابن كلب وبأموّت الناس، والصحافيين اللي قاعدين في أود مكيفة يكتبوا إن أنا دراكولا وبأمص دم ولاد بلدي وبانهب فلوسهم وبابيع لهم الوهم في قزايز صفراء. ده كله كلام هتش ولا له معنى.

لفي يا ستي حواليكي واسألي أولاد بلدي يقولوا لك أنا مين؟

عارفة حيقولوا إيه؟

حيقولوا لك إني عمري ما طمعت. أنا بأحاول أخدم.. علشان الناس دي تدعي لي.

هما يكسبوا بسفرهم وأنا اكسب دعاهم ليَّ.

أنا باعمل أكبر خدمة وطنية لمصر. ولو أنا سمسار زي ما بيقولوا، تبقى المهنة دي أشرف مهنة في مصر النهاردة.

البلد دي عايشة على تحويلات المصريين اللي برة، المنوفية كلها مبنية وعايشة على تحويلات ولادها في أوربا والخليج. وأنا والحمد لله مخرّج كل شباب البلد سالمين غانمين. عمر ما مات حد على إيدي. لكن حتى اللي ماتوا من بر مصر كلها.. عددهم كام؟ أنا نفسي أعرف عددهم كام؟ المراكب النهاردة بتاخد عشرين ولا ثلاثين ولا خمسين. غرقت كام مركب في السنين اللي فاتت؟ عشرين مركب.. ثلاثين مركب.. أربعين مركب.. يعني ماتوا ألف واحد، ألفين. ده كمان بالكثير. لكن الأهم سافر كام؟ ملايين وملايين. يعني كام نسبة الفاقد.

ولا حاجة.

ده في الجيش نسبة الفاقد في أسلحة بتوصل لخمسة وعشرين في المائة إنما في ركوب سفينة نوح النسبة أقل بكثير قوي من واحد في المية. وبصراحة النهاردة الخروج من مصر أهم بكثير قوي من الخدمة في الجيش. الخروج النهاردة هو الحاجة الوحيدة اللي معيشة البلد دي. الوحيدة وأنا عارف كويس باقول لك إيه.

الاقتصاد المستخبي هو الأصل في البلد دي زي كوكاكالا كدة، لأن على الورق إحنا لازم نكون متنا من الجوع من زمان.

اسأليني ليه ما متناش؟

علشان أنا شغال في تسفير الناس، وغيري شغال في نفس المهنة بما يرضي الله.

ما سمعتيش عن حكاية الخبير الألماني اللي جه علشان يلاقي حلول لوكستنا الاقتصادية ويحط نظام منظنظ. درس الرجل واتمحص وراح للوزير بتاعنا وقال له: المفروض يا لورد تبقوا في الباي الباي. أنا مش فاهم إنتم عايشين إزاي ؟ الحل الوحيد تكملوا على اللي انتم فيه وتنسوا خالص موضوع النظام ده.

سيستم هنا ما ينفعش.

وراح راجع لبلده قفاه يقمر عيش.

اللي الراجل ده ما عرفوش بالظبط الظبيط إن إحنا ما بنحولش فلوسنا لمصر عن طريق البنوك وإنما عن طريق أي حد جاي والفلوس لما بتيجي ما بتتحطش في بنوك بتتصرف فورا أو بنحطها تحت اللحاف. وحتى في أوربا بنقبضها كشكوش لأن الشغل معظمه في الدرا. اللي بيسموه العمل الأسود. حيحسب الخبير الاقتصادي الغلبان ده كل الفلوس دي إزاي؟

✧ ✧ ✧

هبط الظلام فجأة وهبت نسمة هواء أول الليل فخففت قليلًا إحساسي بحدة الرطوبة، مسحت عرقي بمنديل عطرته برائحة البنفسج، كي أتحمل رائحة الجلة المنتشرة في أرض الحديقة التي نجلس داخلها.

حكايتي....

حكايتي أنا طويلة.. بدأت سنة ٨٨، ولأن طباخ السم بيدوقه فأنا أصلا كنت زيي زي الملايين اللي ما لاقوش رزقهم في البلد دي.

العيشة ضيقة وزنقة على البدن، شغل مفيش ولو لقينا يبقى بملاليم تجوَّع مش تشبَّع، بلدنا أصبحت جثة بلا روح ولا نشاط ولا حركة.. طيب حنشتغل في إيه وفين؟ دي بلد ماتت خلاص.. وضع يخلينا نتصرف بطريقة غير طبيعية.

نعمل إيه؟

نموت احنا كمان؟

طبعا لأ.. لازم نلاقي حل.. كنا عيال وبنشوف الناس اللي سافرت راجعين فرخة بكشك. بيتعاملوا مع الناس من فوق. ده غير ناس كان عندها حرمان ولما رجعت بدأت تتمنظر على خلق الله. يعني أنا فاكر كويس إن فيه واحد بلدياتنا كنت تلاقيه في شهر أغسطس ماشي في عز جهنم لابس بدلة وكرافتة. حاجات كدة مش منطقية. ده طبعا بيعمل حالة غيرة وثورة عند الشباب اللي مش عارف يهبب إيه؟ بيخلي الكل عاوز يسافر النهاردة قبل بكرة. عايز يضرب هو كمان الكرافتة.

إمتى؟

كنا في الثمانينيات والموضة ساعتها كانت يا تِنْ تِنْ يا تِنْ تِنْ.. يا العراق يا الخليج.

أنا طلعت العراق.. قالوا لنا في الوقت ده إن فيه حوالي ثلاثة مليون مصري هناك. والله أعلم رقم مظبوط ولَّا لأ. بعد ما سافرت

لقيت كل الناس بتقول لي اتأخرت يا حلو، القشطة اتلحست خلاص. عافرت شوية وهُبَّة لقيت صدام دخل الكويت والدنيا ولَّعت. العبد لله قديم من صغره كنت أول واحد يكّت. طلعت على الأردن عدل وعبَّارة على نويبع وبقيت في بلدنا. رجعت لقيت الحال أسود من الخروب. مفيش خرم نعدِّي منه.

ساعتها جو التأشيرات كان لسة في السهولة البُني وكان معايا لسة الغلَّة اللي راجع بيها من العراق. عرفت آخذ فيزا بولندا.. كلفتني ساعتها ألف وميت جنيه. نزلت وارسو وهناك اتعرفت على جماعة بولنديين شغلتهم تسليك طريق لألمانيا بمبلغ صغير.. أنا لسة فاكر كان كام بالضبط. كانوا ميتين دولار. وفي ظرف ليلة واحدة لقيت نفسي في ألمانيا. سابوني في محطة قطر وقالوا لي:

- اختار يا عم المدينة اللي انت عايزها. من المحطة دي ممكن تركب قطر لأي مدينة في ألمانيا.

كنت سمعت إن هامبورج فيها شغل ياما. رحت فاطط على هناك. أول ما خرجت من محطة القطر لقيت واحد مصري في وشي شوفي بقى ربنا لما يعوز. اسأليني عرفته منين؟ من جزمته. لقيته لابس جزمة باتا، الباتا المصري المعفنة اللي كنا بنحط عليها بودرة العفريت علشان تِنْضَف كدة وتبيّض. رحت صارخ في وشه:

- انت حبيبي وابن حبيبي.

بيّتني عنده. كان عايش مع خمسة مصريين من الغربية..

قلت له:

ـ انت صحيح حبيبي بس لازم أدفع سكني مقدم.

طبعا لما شاف البنكنوت استريح.. قعدت شهر ألف زي المجنون على شغلانة مفيش فايدة. لغاية لما ربنا كرمني بشغلانة في مطبعة. اشتغلت هناك شيال، أو ممكن تقولي عتَّال.

كانت شغلانة متعة زي شغل العبيد بالظبط، لكن أكيد العبيد كانوا بيشتغلوا أقل شوية مني. سير من الكتب نازل من فوق ما بيخلصش. أقف أنا على السير وأشيل حوالي ٣٠ كيلو من الكتب في كل مرة وبعدين أرص الكتب على خشبة. والسير النذل ما بيقفش.. سير ما عندوش يا مَّا أرحميني. ما استحملتش.

اشتغلت بعدها في مدرسة للمعاقين. كان دوري أنظف المدرسة. لكن كانت شغلانة موسمية أشتغل أسبوع واقعد أسبوعين. المهم قعدت سنة بدون تقدم كبير غير إني اتعلمت شوية كلمات ألماني من الشارع. قلت لنفسي ألمانيا مش معمولة لي. ساعتها سمعت إن الحكومة في إيطاليا بتدي إقامات لكل القاعدين من غير ورق. قررت فورا السفر على إيطاليا.. حاولت ألاقي حد يدخلني إيطاليا بالعربية لكن ما لقيتش. أنا أساسا قلبي ميت قلت أسافر بالقطر على أساس إن مش كل يوم بيطلع كونترول في القطر.

كانت مجازفة لكن تستاهل وكان معايا اثنين مصريين طالعين لنفس السبب. ركبنا القطر وفضلنا قاعدين متوجسين وأي صوت ولا حركة تلاقي ودانا تطول ولا البولدوج. لغاية ما عدينا حدود النمسا. وفي أول مدينة نمساوية دخل علينا شاب تونسي معاه الجنسية الألماني كان واخدها بجوازة من عاهرة ألمانية ومعاه أخوه

عايش في النمسا من غير ورق، وكله ناوي على إيطاليا. مفيش بعد ساعة من تعرفنا على بعض بقينا أحباب.

تقولي لي إزاي؟

لأن في المصائب الناس بتقرّب من بعض بسرعة جدا. ولأني عشت كل حياتي على خط النار كل الناس اللي قابلتهم بقوا أحبابي وأصحابي. المهم قبل حدود إيطاليا بشوية فوجئنا بالبوليس طالع القطر بأعداد رهيبة وبدون تفكير نزلنا كلنا بسرعة ولقينا نفسنا في مكان ما نعرفش عنه أي حاجة. كانت الساعة في حدود الساعة ٢ بالليل ودرجة الحرارة تجيلها عشرين تحت الصفر. يعني موت. وقعنا في حيص بيص.. وفجأة شفنا موقف تاكسي. جرينا على هناك واحنا بنتنطط من البرد. حاولنا مع سواقين تاكسي كتير. كنا بنشرح لهم إننا عايزين ندخل إيطاليا وإننا شباب محترمين. ما كانش فيه فايدة، هرشوا إن إحنا شباب ولاد ستين في سبعين، كلهم رفضوا. وفي الآخر ظهر لنا سواق تركي وافق في مقابل ٤٠٠ مارك. إحنا كنا مستعدين نقلع له هدومنا. ركبنا معاه وفي الطريق قبل الحدود في جبال الألب جات له حالة رعب.. قال انزلوا اتمشوا المسافة اللي باقية من الطريق ومش حتلاقوا مشكلة.. نزلت أنا أول واحد من التاكسي لقيت نفسي مش قادر أضم أيدي من البرد كانت درجة الحرارة هناك حوالي ٣٠ تحت الصفر. ركبت تاني وقلت له إحنا حنموت من البرد مية في المية وبديت أخوفه وأقول له إن بعد ما البوليس حيلاقي جثثنا حتروح انت في الكازوزة. وكل الناس شافتنا بنركب معاك في الموقف. لو انت خايف رجعنا النمسا تاني

بس مش حندفع لك فلوس. قعد يفكر يرجعنا النمسا ولا يدخلنا إيطاليا. وفي الآخر قرر يرجعنا النمسا تاني.

إنما فاكرة النكتة المصرية القديمة أيام الاحتلال العثماني لما واحد تركي دخل على مسمط وطلب راس خروف. نده الجرسون بأعلى صوت وقال:

«واحد راس خروف بلدي وصَلَّحه».

فزعق التركي وقال له:

«لا.. لا.. أنا عايز راس خروف تُرِكي»

فالجرسون راح منادي على الطباخ وقال:

«وشيل المخ منه».

السواق ده كان كده.. مفيش مخ. عمل إيه؟ وهو بيلف علشان يرجعنا النمسا غلط ودَخَّلنا إيطاليا وما خدش باله. قلنا له خلاص يا عم نزِّلنا هنا وحنكمل احنا.. ودفعنا له الأجرة العادية.

قعدت في إيطاليا وقدمت على أوراقي هناك لكن الموضوع طلع حيأخذ وقت مش أقل من سنة. قلت سنة سنة، لكن مرة وأنا باتصل بصحابي في هامبورج قالوا لي تعالى جري.. فيه شغلانة بفلوس كتير.. تعالى رهوان. قعدت أفكر وأقول لنفسي ربنا سترها وأنا داخل إيطاليا لكن الرجوع مش عارف ممكن يحصل فيه إيه؟ لكن أنا رجل مجنون، رحت راجع بالقطر برضه ويحصل اللي يحصل. حجزت قطر نوم عشان لما بيطلع الكونترول أعمل فيها نايم.

النظام مع النايمين إن المسئولين في القطر بيكون معاهم جوازت السفر بتاعة المسافرين وبيوروها للكونترول. أنا كلمت البنت المسئولة عن الموضوع ده وكانت يونانية وقلت لها أنا معيش ورق وحكيت لها حكاية طويلة عريضة فرفضت في الأول. رحت منزل لها دمعتين بفحل بصل. رجعت نادت عليَّ تاني ووافقت. أنا كنت اخترت ليلة رأس السنة لأن ممكن الكونترول ما يطلعش. وده نفس الكلام اللي البنت اليونانية قالته لي. المهم الكابينة كان فيها خمس طلاينة وأنا.. يعني الكابينة كان فيها ست سراير. خدت أنا آخر سرير. واستريحت لواحد فيهم واتكلمت معاه وشرحت له الموضوع. وقلت له إن وقت تفتيش الكونترول حانزل أنا تحت السرير قال لي:

ـ احنا طلاينة وجدعان قوي وما تقلقش لو دخل البوليس وسأل حأتوهه وأدخل معاه في سكك ملهاش آخر حيخرج منها مش عارف هو في أنهي مدينة.

بعد شوية بدت المجموعة الطلياني اللي معايا تحتفل برأس السنة وقزايز الخمرة طلعت من الشنط والشرب بقى للركب ولقيتهم سكروا و قعدوا يغنوا. والله شربوا خمرة تغرق بحر فجأة كدة لقيتهم وقعوا وكأنهم ماتوا، ناموا بلبسهم وهما بيشخروا.

على حدود إيطاليا مع النمسا نزلت تحت السرير. كنت حاسس إني مطمئن. البنت المفتشة وعدتني إنها حتساعدني. وبين اليونان ومصر برضه عيش وملح. لكن سمعتها على الباب بتقول للكونترول فيه واحد مصري هنا ما عندوش أوراق. يا بنت الـ.... دخل وحش

طوله ييجي مترين وقعد يفتش ويصحي في الناس السكرانين على أساس إن واحد منهم المصري.. ما الطلاينة شبهنا.. كل ده وأنا تحت السرير. والطلاينة بيشخروا. لغاية ما دخلت البنت اليونانية النذلة وقالت له لأ دول طلاينة. صمم يصحيهم وطلع أوراقهم. وبعدين سألها هو فين؟ قالت يبقي أكيد نزل في المحطة اللي فاتت. ساعدني إنه عملاق فكان مزنوق في الكابينة ما عرفش يشوفني.

ودخلت ألمانيا.

أنا كدة مغامر. وصلت هامبورج وهناك اشتغلت أحلى شغل.

تسأليني طيب إيه اللي رجعك مصر؟

✦ ✦ ✦

كانت نسمة الهواء قد توقفت وتوقف معها حفيف ورق الشجر. لم يكن هناك صوت إلا الصوت الجهوري لمبروك المنوفي.

السبب في نزولي لمصر اسمه شريف عبد التواب، شاب من البلد عندنا.. أبوه بعت له شريط كاسيت وقال له فيه إوعي يا بني تنزل مصر قبل ما يكون معاك ١٥ ألف مارك. أنا لما سمعت معاه الشريط، لقيت نفسي معدي المبلغ ده بكثير. فقلت الحمد لله على كدة. ونزلت مصر والخطة ج جواز هي اللي مشعشعة في دماغي.

ما ضيعتش وقت.. شهر واحد كنت لقيت العروسة.. قراءة فاتحة ثم خطوبة ثم كتب كتاب في السريع ولقيت فلوسي وشقا السنين اتبخروا في مصاريف الشبكة وتجهيز الشقة إلى آخره من اللي بالك فيه. تعمل إيه يا واد يا منوفي؟ فكرت في السفر مرة تانية

بس النوبة دي على باريس لأن كان فيها «شاكر» أعز صاحب عندي في الدنيا.

تطلع إزاي باريس يا منوفي؟ ييجي بقى هنا دور الخيال.

دولة المغرب الشقيقة ما كانش ليها فيزا زي دلوقتي. رحت واخد تذكرة طيران القاهرة كازبلانكا عن طريق شركة إيبريا. بتعمل ستوب في برشلونة. وبمساعدة صديق جبت ترانزيت ٧٢ ساعة في أسبانيا. نزلت برشلونة وبعد التفتيش والذي منه، خرجت من الترانزيت وطلعت على محطة القطر وقطعت تذكرة ونزلت بلد اسمها فيجارس قبل الحدود مع فرنسا وهناك ومش عارف بصراحة ليه قابلت كمية عرب مالهمش عد.

قالوا لي ألف مين يدلك على كل السكك العوجة. وبالفعل واحد دلني على بلد اسمها بوردو في فرنسا. أركب القطر ليها. أنزل قبل الحدود وهناك أنزل سلالم ألاقي نفسي في مدق بيطلع على أول النفق اللي بين أسبانيا وفرنسا.

نزلت النفق في توقيت معين شرحهولي وركبت القطر في آخر عربية داخل النفق. وبعدين القطر اتحرك. كان قطر محطات. ومفيش دقائق ولقيت نفسي في فرنسا في القطر اللي طالع على بوردو. ومن هناك على باريس. وهناك حاولت ألاقي «شاكر». عرفت إنه اترحل قبلها بليلة.

إيه الحكاية؟

فيه واد جزائري بلّغ في القسم ضد صاحب السكن إنه مسكّن ناس ما عندهمش إقامات.

جات لي حالة من الذهول والجو شتاء وغيام وكآبة مالهاش حل. رحت نازل على مصر تاني وفي خلال ٢٠ يوم بالضبط كنت قطعت تذكرتين ليَّ ولشاكر ورجعنا باريس بنفس الطريقة تذكرة للمغرب عن طريق أسبانيا ولكن المرة دي من غير ترانزيت وهربنا من المطار ثم على فيجارس على النفق على بوردو على باريس. وما قلكيش بقى.. طلّعنا عين الجزائري ده، واللي عمله فينا بط بط طلعناه عليه وز وز.

النهاردة شاكر ربنا كرمه آخر كرم ولسه باني عمارة أربع أدوار عندنا هنا في البلد. ومن هنا بدت حكايتي كمسفراتي مالوش حل لأني أول لما وصلت هناك لقيت ناس طالبة مني أجيب قرايب ليها على باريس. نزلت وأخذت مجموعة تانية وسفرتهم بنفس الطريقة وكنت طبعا بأنبّه عليهم يتخلصوا من التذكرة أول ما يوصلوا عشان لو اتمسكوا مايرجعوهمش أما موضوع جوازات سفرهم بألمّها منهم بعد ما نطلع من المطار وبعدين أبعتها لهم مع أي حد مسافر رسمي على باريس ويكون عنده إقامة والحل التاني يعملوا باسبور بدل فاقد من القنصلية المصرية في باريس. وكانت بفضل الله كلها عمليات ناجحة مائة في المائة.

ومن يومها وأنا عامل زي ابن بطوطة، ما باهمدش، رايح بمجاميع وراجع لوحدي علشان أحمّل. أشاغل ضباط المطار وكل واحد يسلك على برة زي ما شرحت له.

أنا عارف إن منظري وشكلي ساعدوني في الحكاية دي تمام. وشي زي ما بيقولوا عليَّ غبي، وعيني ميتة وأصداغي مدلدلة.

طبعا بتوع الجوازات كانوا بيشوفوا خلقتي ويقولوا شكله غبي ومش ممكن ييجي منه مشاكل. ومش عارفين إني ألأم من أبوهم كلهم.

كنت دايما باعلِّم كل اللي بيسافروا معايا إنه يكون معاهم شنطة صغيرة مافيهاش غير لبس خفيف وشبشب. وأحاول أفهمهم كويس كل اللي حيحصل ليهم لغاية ما يوصلوا لمرادهم. أما الناس المتعلمين فكنت بارسم لهم المطار ومخارجه أو طريق النفق وكانوا بيفهموا على طول، وماباكونش قلقان عليهم زي قلقي على الناس اللي مش متعلمة.

أنا مرة كنت مسفَّر واحد على فرنسا عن طريق القطر اللي بنركبه من النفق وشارح له لما ينزل على المدق ياخد يمينه على النفق وفي مرتين بدل ما ياخد يمينه ياخد شماله فينزل على الرصيف. يعني بيقول للكنترول أنا أهو يا جماعة امسكوني. ويرجع لي على أسبانيا تاني.

أصل كان فيه اتفاق دايما لو حصلت مشكلة يرجعوا لي على قهوة معينة كانت مركز القيادة بتاعتي في فيجارس. في الآخر صرخت فيه:

ـ امسك لك طوبة في إيديك عشان تعرف شمالك من يمينك؟

بأقول لك إيه.. ركز شوية لأنه خلاص في المرة الثالثة مش حيسيبونا وحيعرفوا السكة وزمايلك مش حيعرفوا يعدوا».

أنا كنت بأعدي راجل راجل. وزي مانتيٍ ست العالمين ما ينفعش نحط أبدا البيض كله في سلة واحدة. ولا إيه؟

واحد راح الكل ما يروحش.

طبعا أنا كنت بأنوّع.

مرة تذاكر على المغرب مرة على السنغال ولما المغرب طلبت فيز بديت آخد تذاكر على الاكوادور دي بلد ما بتطلبش فيز من أساسه من المصريين وأطلع على إيبيريا، وأنزل في أسبانيا، وأهرب كالعادة من المطار.

وغير النفق بين أسبانيا وفرنسا كان فيه برضه طريق الأوتوستراد: عربيات محملة ثلاجات وسواقين من المغرب بيركبوا رجالتي ويعدوهم الحدود الفرنسية وكانوا بياخذوا ١٠٠ دولار على الراس. كانت أسلك وأسهل وأضمن من موضوع القطر.

يضرب بعنف مبالغ فيه بقبضة يده المضمومة ركبته اليمنى ويشد جفونه الثقيلة لأعلى:

شغلانة، محتاجة أعصاب من حديد، تشيّب قبل الأوان.

ويمسح يده برفق على شعر رأسه الأبيض تماما،

لازم أبقى قافش بإيد من حديد شبكة اتصالاتي مع كل الناس اللي أنا مسفرهم. الناس دي مسئوليتي الكاملة، ولازم اطمن إنهم فعلا دخلوا كلهم الحدود الفرنسية.

وبعد لما أطمن تماما أرجع تاني على مصر علشان الفوج اللي بعده.

لكن الحياة نهر جامح مالوش أمان. يوم الميه حنينة واليوم اللي بعده فيضان.

في مرة وأنا مسفَّر عشرة أفراد لقيت لك مطار برشلونة متعدل، والطريق اللي كنا بنهرب منه على برة اتقفل.

أتصرف ازاي وأنا عارف كويس الناس جايبة الفلوس اللي بتسافر بيها ازاي؟

يا إما مستلفين من بنك التسليف يا إما بايعين حتة أرض، يعني مسافرين بالدم، عشان كده كان بيبقي عندي استعداد أموت عشان موضوع السفر ده ينجح. المهم اتعرفت بسرعة على واحد مغربي بيشتغل في المطار واتعاملت معاه، ودفعت له رشوة خلتني أخسر خسارة كبيرة بس المهم خرجنا.

قلت لازم أفكر في أفكار جديدة وهنا أرجع وأقول تاني: الخيال وبس الخيال هو اللي بيخللي البني آدم مننا يتقدم في عمله وفي حياته.

أمال إيه.. ما أنا أصلا فنان كبير.

بديت فورا اشتغل على طريق بولندا ومنها على ألمانيا ومنها

ندخل على أي دولة في الاتحاد الأوروبي بدون طبعا كنترول. ما هو من فات قديمه تاه. وبعدها بديت أشتغلْ على محور تاني: فيزا على أوكرانيا وهناك بالقطر على أي دولة من أوروبا الشرقية على الاتحاد الأوربي ودي سكك سالكة وليها مافيا الله ينور يعدوا شعب مصر بكامل زيه من بحري لقبلي.

فمن يوم مشكلة المطار دي بديت أوسع بَرْجَلِي على الآخر.

أنام بالليل وأحلم بأفكار ما بتنتهيش لأهلي وناسي، وطول ما الإنسان بيفكر بيلاقي سكك.

سَفَّرت مرة مجموعة عن طريق مطرب مشهور والله أعلم هو كان عارف ولّا لأ؟ فالاتفاق كان مع الناس اللي بتشتغل معاه. كان طالع على فرنسا علشان يصور أغنية فيديو كليب وطلعت معاه سبع أشخاص على أساس إنهم عمال كاميرا وإضاءة وخلافه وخدوا فيز رسمي بختم وطلعوا زي الملوك وهما هناك والحمد لله لغاية دلوقتي متهنيين.

ومرة تانية عن طريق معرض دولي في ألمانيا منظماه شركة إدارة معارض.

ومرة ثالثة طلّعت مجموعة على إنهم رايحين يشتغلوا في معرض الأهرام الدولي في وارسو.

لقيت حكاية الفيديو كليب دي حلوة وماشية رحت عامل باسبور على أساس إني عندي شركة إنتاج فني ورايح أصور في إيطاليا. وطبعا لازم آخد معايا برضه ناس فنيين وعمال أمال أصور بطولي.

أنا كنت دايمًا كل ١٢ رحلة لازم أغير جواز سفري عشان طبعا كنت بسافر في أوقات قريبة وكل مرة كنت أكتب اسمي بالأجنبي بشكل مختلف وأغير عنواني.

في مطار القاهرة قابلني رائد شرطة كان شافني أكثر من مرة فسألني يا منوفي انت بتشتغل إيه بالظبط ؟ فقلت له أنا واخذ الناس دي عشان يشتغلوا برة وياكلوا عيش وفي النهاية إحنا بندخل عملة صعبة لمصر.

قال لي:

- «والله انت راجل جدع.. ربنا معاكم».

أما طريق المياه فأنا عمري ما سفرت حد منه. لأني كنت بأخاف عليهم. لدرجة إن لما كان شاب بيجي لي ويطلب مني أسفَّره، كنت بأطلب منه إن اللي بيجي يتكلم معايا يبقى والده أو كبير العائلة وكانت شروطي إن أنا بأفهم والده كويس إنه لو ابنه رجع حيرجع سليم، ولو سافر خلاص ربنا حيكرمه. يعني الناس كانت عارفة كويس إنها مجازفة لكن مادية مش جسمانية. وفعلا اتمسك ناس معايا قبل كدة ورجعوا، بتحصل في أحسن العائلات. لكن وحياتك سفَّرتهم تاني. أنا راجل عندي إحساس بالمسئولية بشكل كبير جدا ودي أمانة قدام أهل بلدي، وشباب بلدنا أنا شايلهم في رقبتي.

بس برضه علشان الأمانة، فيه اثنين بس في بلدنا ماتوا قبل هوجة السفر عن طريق المية اللي بدت من ست سنين. ومرة كنت أنا ذات نفسي اللي حاموت، بس ربنا ستر. ودى أعمار بتاعة ربنا.

الأولاني اللي راح أونطة كان اسمه عبد الحميد ـ الله يرحمه ـ مش ممكن أنساه أبدا كان زينة الشباب، طول بعرض، لكن كان قلبه خفيف. كانت أسبانيا قفلت، والمطار اتسوجر بالضبة والمفتاح. طلع لوحده على المجر ومنها على النمسا. وفي آخر بلد في النمسا نزل. ومعارفي هناك قالوا له يا ميدو الحكاية كيت وكيت وشرحوا له حيعمل إيه في القطر، ما بين النمسا وإيطاليا بالتفصيل. خاف وقال:

ـ حتكشف وحيبان على خلقتي إني مرعوب.

كلمة من هنا وكلمة من هنا قرر إنه يأخد طريق النفق جري و يطلع منه في إيطاليا.. ولا من شاف ولا من دري.

النفق طويل يا ميدو وضلمة ومالوش أمان.

لأ ده أسهل من تعدية الحدود في القطر ولّا في العربية

الطريق ضيق يا عبد الحميد ولو القطر جه قول على الدنيا السلام.

لأ.. حيكشفوني قوام حاجري أنا قبل القطر قوام.

ونزل النفق وقبل ما يخلصه القطر عدّى «وقل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا».

بعد حكاية عبد الحميد ده قعدت أدوقر لغاية ما وصلت لسكة جميلة. آه والله سكة عسل..

أركّب الراجل أي قطر بضاعة. ويبقى معاه أجنة وشاكوش.. يتحبس في العربية اللي اتفقنا عليها مع موظف المحطة. المسافة

بين المحطة في المجر والمحطة في إيطاليا ١٢ ساعة بالضبط. ياكل ويشرب ويعمل حمام زي ما هو عايز. وبعد ٤ ساعات من تحرك القطر يبتدي يخرم في أرضية القطر من تحت لمدة ٨ ساعات وبعد الـ ١٢ ساعة بالضبط حيلاقي القطر بيهدي.. ينط منه يلاقي نفسه في إيطاليا.

أما المرة الثانية فكانت قدر ونصيب عبد الملاك.. ما كله مقدَّر ومكتوب. كانت مجموعة كبيرة وركبتهم زي غيرهم في ثلاجة لحمة على إيطاليا. الكل وصلوا سالمين ما عدا عبد الملاك اتجمد ومات. كان باين عنده مرض. من يومُه عبد الملاك ممقوق وضعيف.. صوته مش طالع.. كان ابن موت ربنا يرحمه. قلش المجنون ابن المجنونة أي حاجة. كانت مناحة في البلد بس أنا كان عندي الشجاعة إني أروح لأبوه وأقول له في وشه اللي حصل. الراجل استرجِلني وطلعت ساعتها ابنه التاني بنص التمن فقط لا غير وكمان شُكك. وبعدين ابنه الثاني دفع لأخوه الصغيرعلشان يحصَّله.

أما قصتي أنا مع الموت فكانت في يوجوسلافيا.

أنا عارف طبعًا إنها اتقسمت بس أنا مش فاهم حاجة من التقسيمة دي.. لخبطة بنت كلب. فبالنسبة لي حتفضل كلها يوجوسلافيا لغاية ما أموت. ولادي بقى يبقوا يفهموا إيه اللي حصل هناك.

المهم كانت رحلة استكشافية علشان أخلق سكة جديدة لأولاد بلدي. قعدت هناك أسبوعين وتعرفت على عصابة تهريب حدود. ركبنا عربية لآخر قرية في يوجوسلافيا ونزلنا وقالوا حنمشي في الجبال لمدة ست ساعات في الأمان. كان معانا طبعا دليل. قال لنا بعد الست ساعات حنبقى في قرية على أول حدود ايطاليا. ومن

هناك حنركب عربية حتبقى في انتظارنا زي البشوات تودينا أول مدينة في إيطاليا فيها قطر.

الموضوع كان شكله سالك وجميل. إنما المفاجأة إن الدليل كان عايز له دليل.

اتحركنا الساعة عشرة بالليل وتاه الراجل وفضلنا تايهين والنهار طلع علينا وكانت ليلة كوبيا ويوم أسود من الخروب، الشرب خلص لأنهم ما جابوش مية كفاية. وبدينا نتقاتل على بق مية. وقلنا خلاص عزرائيل بيلف فوقينا في جبال يوجوسلافيا.

✧ ✧ ✧

ينظر حوله ويتأمل الجمع الجالس في الحديقة من أهالي بلده، وينظر فوقه لتأمل طائر كبير يحلق فوق الحديقة. ثم ينطق بكلماته الأخيرة وهو يحيطها برنة حكمة الدهر:

أيام وعدت وتاريخ عملناه للبلد وللناس. ما كل ده تاريخ. الخريطة دلوقتي اختلفت خالص. النهاردة تعدي من النمسا لإيطاليا ما حدش ممكن يفتح بقه.. فيز أوربا الشرقية بقت شبه مستحيلة. ترانزيت أسبانيا اللي كنت باخده بقى بعيد عن شنبي النهاردة، ترانزيت شينجن ده بقى المستحيل الرابع بعد المستحيلات التلاتة. والطرق الجديدة اللي بسفلتها بقت غالية ومكلفة على الناس ومن ساعتها الكل بيطلع عن طريق المية وبيروح وسط الأمواج. أنا قدمت الخير لبلدي والحمد لله.

ما تقول حاجة يا غول.

✧ ✧ ✧

يبتسم الغول ويضرب كفه على صدره وكأنه مطرب يلقي التحية على جمهوره، يتحدث الغول من منطقة غريبة من جوفه؛ ولذلك سمي بالغول على الرغم من وجهه الجميل وملامحه المتسقة.

ـ عم مبروك ده بركة البلد كلها.. والله من غيره مش عارفين كان إيه بقة حال البلد. مفيش بيت اتبنى ولا محل قام ولا جوازة تمت إلا بفضل جدعنته ومرجلته ومروءيته. كل مليم دخل البلد دي كان من خيره.

الفلاحة، شايلة نفسها بالتيلة، أما الفلوس اللي في البلد كلها فجاية من سفريات عمنا المنوفي.

وحنروح بعيد ليه ما أنا قدامك أهه.

بعد الدبلوم أبويا مات وأنا البكري وأمي قالت لي ما ينفعش يا غول تسيب البلد إحنا خلاص بقينا مسئوليتك. رحت اشتغلت في شرم الشيخ. في فندق على حمام سباحة. كان النظام شهر هناك وشهر هنا في البلد من غير شغل. اللي كنت باقبضه في شرم كنت باصرفه هنا. والشباب حواليا اللي متخرج قاعد عاطل بدون شغل ومستني عم المنوفي يحل له عقدته. ظروف ضعيفة واللي لقى شغل زي حالاتي مرتبه ما يناسبش مطالب الحياة الأساسية.

رحت لأمي وقلت يا أصيلة يا بنت الأصلاء ما لهاش حل وكوم اللحم اللي في رقبتي ده محتاج سفر والمنوفي حيحلها. وبالفعل رحت له وقلت له أدفع لك بعد ما سافر. وافق وقال لي حأطلعك فرنسا يا واد.

أنا ما كدبتش خبر ورحت مسافر على فرنسا من خلال أسبانيا بتذكرة للمغرب. كنا ٧ أنفار خرجنا من مطار القاهرة طالعين القاهرة - برشلونة - مالجا - كازابلانكا. كانت الخطة اللي وضعها لنا عم مبروك إن إحنا نخرج من مطار مالجا علشان مطار برشلونة خلاص اتقفلت كل سككه. يعني بالبلدي بقى مسوجر.. نزلنا مطار برشلونة من هنا وأنا من دون الخلق اتمسك. حظوظ.

جالي ضابط وراح قابض عليَّ ومدخلني مكتب. أنا اللي خدمني إن الضابط لقي تأشيرة في الباسبور بتاعة المغرب فعرف إن أنا نازل ترانزيت. رايح فين؟ رايح كازابلانكا. سألني إذا كنت لوحدي على الطيارة ترانزيت؟ قلت له: أيوة.

خرجت أدور على المجموعة فص ملح وداب.. عرفت بعد كدة إن البوليس اتلهى فيَّ فعرفوا هما يخرجوا من المطار من صالة الترانزيت. قعدت لوحدي أفكر حاعمل إيه في المصيبة دي. قلت أنا قدها وقدود. ركبت طيران داخلي من برشلونة إلي مالجا.

وأنا في الطيارة لاقيت كتب سياحية عن أسبانيا وفيها خرائط البلد. قعدت أقطع في الخرائط وأخذتها كلها. قلت أهه ممكن تخدمني في اللي أنا داخل عليه، وبرضه ممكن أتصرف من خلالها.. نزلت مطار مالجا وكان أخويا مبروك المنوفي قايل لي أعمل إيه بالضبط في المطار ده وراسمهولي حتة حتة. ومشيت زي ما قال لي.

كان طاقم الطيارة مستعجلين قوي لأن الطيارة كانت متأخرة ولسه حياخذوا ناس من مالجا لكازابلانكا. لقيت ست طويلة وشقراء ماشية في طريق الخروج مشيت جنبها. وكان المنوفي قايل

لي لو فيه ظابط سألني أقول له أنا مش فاهم ولا كلمة، وكنت فاكر إن أنا لسه حاعدي على مكاتب تانية من اللي بيشوفوا التأشيرات. لكن فجأة لقيت نفسي أنا والصاروخ الأصفر في الشارع. ما كنتش مصدَّق. رحت لسواق أوتوبيس وقلت له أنا عاوز أروح محطة القطر الدولي، راح مشاور لي على رصيف واقف قدامه أوتوبيس شكله في منتهى الفشخرة. دخلت فيه بس افتكرت إن أنا كان معايا دولارات وما كانش معايا عملتهم.. كانت ساعتها البيزا. رجعت وغيرت من قدام المطار بس سبت شنطتي على عتبة سلم الأتوبيس قدام السواق علشان ما يمشيش ويسيبني، ورحت راكب.

وصلت محطة مالجا حوالي الساعة ٢ الظهر. ودخلت قاعة كبيرة علشان أحجز التذكرة. الطبيعي هناك إنك لما بتحجز تذكرة في المحطة دي فيه ماكينة كدة بتاخد منها ورقة صغيرة عليها الدور بتاعك. أنا طبعا ما كنتش فاهم الحكاية دي. فوقفت والأرقام ابتدت تظهر على الشباك. أروح أنا الشباك كل شوية.. الراجل اللي جوة يتكلم معايا وأنا مش فاهم منه ولا حاجة. أرجع أقعد تاني. المهم على ما فهمت ورحت آخذ الورقة دي قال لي ما فيش مكان على قطر النهاردة. خليك لبكرة. ما عرفتش أعمل إيه؟

خرجت من المحطة لقيت اثنين عرب واقفين بيدخنوا.. اتعرفت عليهم وكلمة مني وكلمة منهم قالوا لي احنا حنعديك على فرنسا.

أنا كان في دماغي الخطة المتفق عليها. وهي إني أرجع برشلونة ومنها أركب قطر لبوردو، والباقي معروف.

لكن قلت أهُم عرب وشكلهم فاهم وعارفين المنطقة وممكن يساعدوني وأخلص.

اديت لهم فلوس علشان التذاكر، قطعوا تلات تذاكر وأخذوا الشنطة بتاعتي وحطوها في دولاب في المحطة وأخذوا المفتاح معاهم. وقعدنا في جنينة قدام المحطة وبديت أحكي لهم نكت وفضلنا نضحك. شوية وعدوا شوية شباب بيبعوا حشيش. اشتروا منهم وقعدوا يلفوا في سجائر ويحششوا. فجأة لقيت رأسي بتولع. اكتشفت إني ما شفتش التذاكر ولا عارف إحنا رايحيين فين من أصله.. طلبت منهم التذاكر علشان أشوفها ورحت معلي صوتي. طلعوها بس لقيت بلد ثانية غير برشلونة. انفعلت عليهم وأخذت منهم المفاتيح علشان أجيب شنطتي وكان خلاص طلع النهار والساعة بقت ٦ صباحا. رحت جبت الشنطة ورجعت لقيت معاهم بنت مغربية وفهمت منهم إنها رايحة بوردو زي حالاتي. اتفقت إن أنا أطلع معاها وفعلا ركبنا أنا وهي القطر. وبعد مرور ٣ ساعات في القطر طلعت لها الخرائط اللي قطعتها من الطيارة لقيتها بتقول لي إنها رايحة بوردوا تانية على الحدود الأسبانية البرتغالية مش بوردو الفرنسية. وحلفت لي على المصحف إنها كانت فاهمة إننا رايحين مكان واحد. نزلت في أول بلد كان اسمها سافيا تبعد عن مالجا بـ ٣ ساعات ناحية البرتغال. وقبل ما أنزل راحت فقعاني بوسة جامدة قوي علشان ما زعلش.

خدت البوسة في بقي ونزلت ورحت حاجز قطر طالع على برشلونة وكنت خلاص رجلي مش قادرة تشيلني. فغيرت الكوتشي اللي لابسه ولبست شبشب. ورحت لرجل أمن عشان أسأله على

الرصيف اللي بيطلع منه القطر. شم الراجل ريحة النتانة اللي طالعة من الكوتشي وبص على الشبشب وسألني على الباسبور. وعلى ما فهم إن أنا مصري وفهم إن أنا مش معايا باسبور وحكيت له إن أنا رايح أتفرج على مصارعة الثيران. انتهت الحدوتة إنه دخلني القسم بتاع المحطة وفضل يكتب على الآلة الكاتبة جواب وراء جواب واتصل بالقسم في البلد عشان ييجوا ياخذوني، فضلت أنا أتخيل إني خلاص انتهيت وإنهم حيرحلوني على مصر تاني.

في القسم اللي في «سافيا» دخلوني على الحجز ولقيت لك هناك قارة إفريقيا بكامل قوتها.

أنا كنت الأبيض الوحيد ده لو ينفع تقولوا عليَّ أبيض أساسًا.

أما الحجز فكانت ريحة الزريبة بالنسبة له كالونيا، أنا اللي قضيت نص حياتي في زرايب كنت تعبان من الريحة. سألت المسجونيين فيه حد فيكم بيتكلم إنجليزي. كلهم طلعوا بيتكلموا فرنساوي ما عدا واحد فيهم بيخبط زي حالاتي.. ضبشت معاه بالخمس كلمات الإنجليزي اللي أنا عارفهم على شوية إشارات وسألته:

حيعملوا فيَّ إيه؟

حيرجعوك مصر يا جميل.

قعدت ألطم زي الولايا.. الصبح دخلت المحكمة وكان فيه مترجمة زي القمر جت علشان تترجم كلام السيادة. عملوا لي فيش وتشبيه. لقوني سليم.. المهم خلصت الحكاية إني قلت أمام القاضي إن أنا جاي أتفسح مع أخويا والباسبور معاه وأخويا اتعرف

على بنت حلوة. القاضي قال لي امضي هنا على ورقة مكتوب فيها إني ملتزم إني أخرج من أسبانيا خلال ٣ أيام.. وما رجعش ليها قبل مرور ٣ سنين من تاريخه.

طبعا قالوا للحرامي احلف.. مضيت على الورقة وبقى معايا إقامة رسمي ٣ أيام.

عالم هبل والله.

✦ ✦ ✦

قاطعه مبروك المنوفي بحكاية جديدة:

ـ هما مش هبل أنا عندي رأي تاني، أنا مرة في سفرياتي الكثيرة قبضوا عليَّ ومحكمة وهيصة وبدون ما دخّلكم في التفاصيل صدر الحكم الرهيب بالترحيل الفوري. ورجعنا القسم وفوجئت هناك إنهم بيمضُّوني على ورقة إن أنا أخرج من القسم على المطار على بلدي.. رحت ماضي واستنيت يرحلوني على المطار. لقيتهم سابوني قدام القسم وقالوا لي على المطار عدل ومنها على القاهرة.. فاهمممم.

خرجت أضرب كف على كف ورحت رايح المطعم اللي كنت شغال فيه كملت شغلي عادي جدا.

أنا بصراحة رأيي إن البلاد الأوربية بتستعبط. هما عارفين كويس جدا كل اللي قاعدين في الخباثة والحكومات مطنشين بمزاجهم.. هما محتاجين عمالة ومحتاجين رجالة وشعوبهم بتقل مش بتزيد.. بس في نفس الوقت أحسن لهم تبقى عمالة رخيصة ومرعوبة

وملهاش أي حقوق وما تكلفهمش حاجة ويقدروا يلموهم في أي وقت يعوزوه ويضربوهم على قفاهم كمان.. وبعد ما يمصوا دم الرجالة دول لمصلحتهم ولمصلحة اقتصادهم، يولولوا بالصوت الحياني في أي مؤتمر معدّي ويقولوا احنا مظلومين وغلابة، والفقراء الوحشين المرعبين بيدخلوا بلادنا من غير إذننا ويقتحموا حدودنا الآمنة. يعني معقولة بالذمة مش عارفين يأمنوا مطار. طبعا مستحيل.. وأنا فرحان قوي بنفسي وعمّال أقول إن أنا بأسوي الهوايل. الحقيقة إن أنا مطّمن علشان عارف كويس إنهم ما يقدروش يستغنوا عن خدماتي.. ما إحنا بترول اقتصادهم.

لا مـؤاخـذة يـا غـول. قاطعتك يـا حـلـو. خـرجـت من المحكمة بقى.

✧ ✧ ✧

أيوة.. طلعت من المحكمة على القسم ومنها على الشارع إنما إيه زي الباشا معايا ورق إقامة رسمي أحطه في عين أجعص جعيص. طلعت على محطة الأوتوبيس قابلني ضابط بوليس في الشارع ولقيته سألني برضه على جواز السفر. قلت له مش معايا وطلّعت له الورقة اللي معايا من المحكمة ضرب لي تعظيم سلام.

لكن سألت نفسي ليه أنا بالذات اللي البوليس بيوقفني؟

بصيت على الشبشب وعلى الشرز اللي أنا لابسه.

وقلت بس، هو الشبشب الزنوبة ابن الكلب ده سبب كل البلاوي. ورحت قلعه ولابس الكوتشي. فحسيت إن أنا بقيت فجأة

رجل محترم. المهم رحت للشباك علشان أقطع تذكرة لبرشلونة طلع ثمنها ٧٠٠٠ بيزا وأنا كان فاضل معايا ٣٠٠٠ بس من اللي كنت غيرتهم.

سألتها:

بتتعاملي بالدولار؟

لأ.

خلاص حآخذ تذكرة بـ٣٠٠٠ بيزا وشوفي انتي بقى المبلغ ده يوصلني لأنهي بلد؟

وأخذت التذكرة وطلعت الأتوبيس.. قلت أهه أطلع من البلد الشؤم دي وخلاص. وهناك بقى حأبقى لابس الكوتشي مش الشبشب وما حدش حيوقفني.

كان فيه بقى ميزة كبيرة في الأتوبيس ده.. إن كل ٤ ساعات سواق جديد بيركب.. ياخد عدد الكراسي اللي فاضية ويروح طالع. أنا بصراحة فضلت راكب وقلت مش حأقوم لغاية ما ينزلوني.. النهار طلع علينا فطلعت أوراق الخرائط اللي قطعتها وسألت الراجل اللي جنبي فاضل قد إيه على برشلونة قال لي نص ساعة بالكثير.. أول ما وقف في برشلونة نزلت جري. خفت حد يسألني على التذكرة لكن مفيش.. بهوات.. ورحت طالع على محطة القطر الدولي عدل.

هناك في الشباك الراجل مافهمش أنا بأقول إيه.. قعدت أقول له عايز أحجز على بوردو بس مفيش فايدة.. أنا كنت حافظ كلمة سيربال من عمنا المنوفي.. وهي أول بلد على الحدود الأسبانية

الفرنسية. المهم دي فهمها وأخذت تذكرة على سيربال وأنا قاعد ملطوع في المحطة قابلت واحد مغربي. اتكلمنا وقلت له إن أنا عاوز أروح فرنسا ومش معايا باسبور. قال انت أكيد مجنون.. وانا بتكلم معاه سمعوني اثنين رجالة توانسة شكلهم بيتعاطوا مخدرات قالوا لي احنا حنعديك. ركبوا معايا القطر ومفيش شوية والمفتش طلع العربية علشان يشوف التذاكر لقيت دول اختفوا. قلت أكيد حرامية.

المهم قبل سربال وعشان تدخلها بتعدي على رصيف وهناك بتدخل ديوان يشوفوا فيه جواز السفر عشان تعدي. نعمل إيه؟ برضه المنوفي قالها لنا:

ـ على باب القطر يا جماعة ولو نزلتم في سربال، والناس نازلة وملهية بشنطها.. تفتحوا الباب اللي على الرصيف التاني. حتلاقوه معصلج في الأول لكن في الآخر حيتفتح.. تنزلوا وكدة خلاص حتكونوا عديتم التفتيش.

بعد لما نزلت على الرصيف التاني، قعدت شوية وأنا مش عارف أعمل إيه.. لقيت في وشي نفس الرجل المغربي اللي قلت له أنا عاوز أروح فرنسا من غير باسبور وقال لي مش ممكن.. طلبت منه يقطع لي تذكرة عشان أنا خايف أنزل من على الرصيف.. قال لي هات الفلوس وراح فعلا جاب لي التذكرة. قال لي: انت كده خلاص ماعندكش مشكلة خايف من إيه؟ قعدنا مع بعض وطلع رايح هولندا. سابني ومشي وأخذت أنا القطر من سربال الساعة

٨,٣٠ مساء وصلت باريس الساعة ٨ صباحا. أخذت تاكسي ورحت على العنوان اللي كان معايا اللي قاعد فيه ناس من بلدنا.

قعدت في باريس ٧ سنين.. اشتغلت هناك في النقاشة.. اتعلمتها بسرعة لأن هناك عندهم كل الأدوات جاهزة.. الحياة سهلة والناس مستريحة وطيبة.. كل حاجة مظبوطة.. كسبت كويس وإخواتي سافروا لي على هناك.

عندي أخويا الصغير عايش هناك لغاية دلوقتي.. وإخواتي الثلاثة التانيين سافروا لي هناك قبله لكن رجعوا مصر دلوقتي. أنا ما فكرتش أعمل إقامة هناك لأني ما كنتش حابب إني ارتبط بفرنساوية حتى لو كان على حساب إني أعمل مستقبل هناك.. جواز رجل شرقي من أوروبية صعب مش سهل.. يعني أنا مثلا عمي اللي كان شغال مع عم مبروك في ألمانيا متجوز ألمانية وعايش معاها هناك ومخلف ثلاث عيال ورغم إن هي أسلمت اللي إنه خلاص قال جاي منها.. الرجل طلع من هدومه ومش قادر. وشكله خلاص يا حينتحر يا حيطلقها ويرجع.. أخويا كمان اتجوز فرنساوية وخد إقامة رسمي وخلف منها وفي الآخر طردته وخدت العيل ومش عارف يا عيني يشوف ضناه.. والأمثلة كثير وما شفتش منها حالة جواز واحدة نجحت مع صنف الخواجات.

وبصراحة الحياة هناك مملة يعني مثلا لو فيه شخص مات في بيته ما تلاقيش حد يسأل فيه. حاجة وسخة.. احنا لسة في بلدنا الكل بيسأل على بعضه.. واللي بيعيش هناك ومابيكونش معاه أوراق ولا معاه لغة بيتبهدل.

أنا رجعت بعد ما حوشت مبلغ كويس وقلت خلاص كدة ارجع يا واد وكمل نص دينك.. عملت في مصر مشاريع كثير وخسرت كل الفلوس اللي حوشتها. ما هي أصل الحكومة بتحاربنا بكل الطرق.. الفلاح ده آخر همومها.. وشكلي راجع تاني. ولا إيه يا عم مبروك.

✧ ✧ ✧

راجع إيه بس.. أنا المرة دي حاطلعك أمريكا والبركة في الحاج عبد العزيز.

آهه الكباب جه أخيرا.. يا الله بسم الله يا جماعة علشان يبقى عيش وكباب على شرف الأستاذة.. لأ والنبي، واللي نبىَّ النبي ما الطبق راجع أبدا، ما تقول حاجة يا حاج عبد العزيز. ما انت برضه الخير والبركة، وبركة أمريكا حتيجي من حداك وبمساعدة بنت أخوك الأستاذة هاجر المحامية الكبيرة قوي. وآدي الشاي جه كمان.. سلامات يا أستاذة.

✧ ✧ ✧

يتكلم الحاج عبد العزيز بكتفه قبل أن يتحدث بلسانه.

ـ المنوفية منورة.. والله أول مرة نقعد في جنينة مبروك وفي البيت الحلو ده.. ما بنشوفوش غير في شقة تلا. ما أني عارفه بيخاف من الحسد.. لَشجر المنجة ينصاب من عينينا بفيروس سي وتبقة مصيبة.. والله يا مبروك يا خويا أنا ما قداميش حاجة في موضوع أمريكا ده.. أنا اديتك نمرة هاجر، على البيت وعلى الموبايل، وأنت كلمتها وخلصنا.. منك ليها بقى، وبين البائع والشاري يفتح الله.

وأنا على العموم عارفك مش حتسيبها. ما هو مبروك ده مش عاتق نفسه من أسوان لراس التين. عامل زي البارومة.

عارفين كيسنجر بتاع المكوك أهو المنوفي كدة مركب ديله في سنانه.

وكل يوم الصبح لما يشوف خلقة مراته يقول يا فكيك. ما هي دي ميزة الجواز الوحيدة.. بتحرك الأمم لقدام عن طريق نظرية الهروب الكبير.

ـ أيوة والله. عندك حق يا عبد العزيز يا أخويا، أصل الحكاية وما فيها إن أنا لما عزّلت من تلات سنين.. طبقت مَثَل اختار الجار قبل الدار.. كنت لسة متعرف على عبد العزيز وقلت في عقل بالي هو ده الجار ولّا بلاش وخدت الشقة اللي في وش شقته.. يعني الباب في وش الباب، ومن يومها وهو بصراحة نعم الأخ والصديق.. ومراته والحرباية بتاعتي بقوا زي الأخوات.. أخوه بقى أستاذ كبير في الجامعة.. راجل كبارة وقد الدنيا.. له بنت اسم الله عليها اتجوزت في أمريكا.. عايشة في نيو جيرسي.. أنا قلت لأخويا ياللا بقى نفرش لنا سكة لأمريكا بدل الغرق اللي احنا عايشين فيه وأنا بصراحة عمري ما هوبتها.. اشتغلت على أوربا وبعدها اشتغلت الخليج تاني.. وبعون الله أنا متخصص النهاردة في الكويت والإمارات.. سككهم حلوة وعسل والناس بتروح بتلاقي عيش وبغاشة.

طبعا المكسب أقل من أوربا بكتير بس أهه على الأقل سكة من غير موت. كلّمت أنا ست البنات هاجر كام مرة بس ما ادتنيش ريق حلو في الأول.. كانت في مشاكل كثيرة ودوامات. ربنا معاها.. آخر

مكالمة من يومين قالت لي إن جوزها الناقص كان بيضربها. راحت اشتكت للبوليس مرة واثنين وآخرتها رفعت عليه قضية وكسبتها وعرفت تاخد الطلاق.

قالت لي إنها حتطلب مني طلب ولو ربنا وفَّق أكيد حتساعدني.. مفيش بعدها بساعة لقيتها بتكلمني وقالت لي:

- أنا خلاص اتطلقت.

عايزة توصل لخطيبها الأولاني.. راحت مدياني عنوانه وقالت لي اتصرّف.

- لو وصلت له وجبته أمريكا حأدفع لك الطاق طاقين. أنا أصلي عندي له هدية عايزة أديهاله من زمان.

أنا إن شاء الله ناوي أروح له وأغزو أمريكا.. شاي كمان.

✦ ✦ ✦

أهلا أهلا.. ده بقى يا أستاذة الرجل الكبير.. رئيس المجلس الشعبي المحلي.. الحاج صفوان المرسي.. كباب تاني يا بني بسرعة.

- ما لوش لازمة لسة واكل. هات لي شاي يا عبد المنعم. إيه يا منوفي حتشوف لنا حل الست دي في المجموعة اللي تايهة؟

- آهه ربنا يكرم.. مين عارف يوضع سره في أجمل حريمه.

- شوفي يا ستي.. إحنا دلوقتي في مصر أصبحنا «حكم سلطة».. أخذوا الأرض بقانون المالك.. وادوها للأغنياء تاني.. وكأنك يا أبو

زيد ما غزيت.. أصبحنا في حكم: الفقير فيه لازم يموت. أصبحت القرية كلها مجروحة.

مصدر الزرق الوحيد عندنا موت.

موت غرقا في البحر الكبير... واحنا في طريقنا للبلاد اللي بحق وحقيق، البلاد اللي فيها شغل وبيزنس.

يعني هنا موت وهنا موت.. والناس تعبانة ومش عارفة تعمل إيه؟ وبيقول لك:

«إيه اللي رماك على المر قال اللي أمَّر منه»

فيه ٢٤ شاب كلهم مؤهلات سافروا من بلدنا من تسع شهور علشان يدخلوا إيطاليا عن طريق ليبيا من منطقة زوارة وهناك بيركبوا البحر بالليل. من يوم ما كانوا في «زوارة» اختفوا مش عارفين ماتوا ولَّا عايشين. بيقولوا مسجونين في سجن الحصان الأسود في ليبيا بتهمة سرقة لنش حربي تبع البحرية الليبية وناس بتقول ركبوا مركب وغرقت وأنقذوهم ودلوقتي مسجونين في مالطا. وناس بتقول البقية في حياتكم. رحنا من قسم الشرطة للنيابة لوزارة الخارجية ووصلنا لرئاسة الجمهورية وفي الآخر بعتنا تلغرافات باسم الأمهات للسيدة «سوزان مبارك» ومفيش فايدة.

واحد من الشباب دول أخويا الصغير.. قلت له يا أحمد «رب هنا هو رب هناك» قال لي لأ رب هناك أحسن.

إحنا عايزين نعرف مصير أولادنا إيه؟

دول طالعين يدوروا على رزق، على شغلانة ما لاقوهاش في

بلدهم.. شباب عاوز يبني نفسه ويتجوز ويكون له بيت في يوم من الأيام.. يعني يعيش زي ما ربنا قال.. لكن شاء القدر إنهم يقعوا في إيد نصاب. وكلنا تعبنا خلاص وأهالينا تعبت وأمهاتنا ادمرت بسبب أولادهم.. يعني والدتي بقت حالتها تصعب على أي شخص، المرض اتمكن منها وبينهش في جسدها.. دا ابنها ومش عارفة حي ولا ميت، المفروض يكون فيه رحمة بالأمهات والله حرام.. حرام.

طبعا ممكن حد يقول بدل ما يدفع ١٥٠٠٠ جنيه كان يعمل أي مشروع. لكن السؤال هنا حيعمل إيه؟ وهو لا توجد لدى الشباب دول أي خبرة.. والبلد مقفولة وكل اللي حاول يعمل حاجة بيتضرب بالجزمة من الكبار وبيخسر كل فلوسه.

لازم يسافر ويقبل أي عمل هناك ولو مسافرش لا منه حيتعين ولا منه حيعرف يعمل مشروع ولا فيه مصدر رزق. عشان كده بيغامر بنفسه. احنا نزل البلد عندنا عضو مجلس شعب وقال احنا بنعلم أولادنا علشان يكونوا مثقفين فقط لا غير.. مش عشان يشتغلوا .. تصوري حضرتك إن فيه شباب حاصلين على ليسانس حقوق ومتخرجين من ٢٠ سنة وبيشتغلوا في قهوة في البلد ودخلهم ما يصمدش عشر أيام في الشهر.. واحد منهم انتحر من شهرين.

إحنا خلاص بقينا في حالة حرب.. المرة دي مش حرب ضد إسرائيل لكن حرب حقيقية ضد الجوع.

ناس رايحة تحارب من غير تدريب ومن غير سلاح، حرب أسوأ بكثير من حرب ٦٧ .. ومنهم بيموتوا ومنهم بيختفوا ومنهم أسرى

في سجون ليبيا ومالطا وأوربا. اللي فاضل إن الحكومة تديهم نياشين وتعلن إنهم شهداء مصيرهم الجنة.

✧ ✧ ✧

يتدخل مبروك المنوفي:

ـ المصيبة إنها حرب جنرالاتها كلهم من مافيا التهريب. بيزنس كبير قوي. لأن الحدوتة مش مصرية إنما حدوتة عالمية.. بلاد غلبانة وبلاد في الهاي لايف والبلاد الغلبانة كثير قوي ييجوا مية ولا ميتين بلد وكلهم بيصدَّروا ولادهم، وفيه اللي بيبيعوهم، وفيه اللي بيقطعوهم ويعرضوهم قطع غيار. ومصانع التجميع بقت الله ينور منتشرة في الدنيا الواسعة. والموضوع لو استمر مش حتبقى ثورة في بلاد الجياع وإنما حتبقى ثورة على بلاد الاحتلال. والله حتشوفوا كمان خمسين سنة حنبقى كثير قوي هناك وحنقلبها ضلمة واللي عملوه فينا كل السنين دي حنطلعه دم للركب. أنا كنت في باريس يوم افتتاح كأس العالم في كوريا وماتش الافتتاح كان بين فرنسا والسنغال. يوميها السنغال كسبت. نزلت في الشارع بعد الماتش لقيت أمة لا إله إلا الله بادرين الدنيا من عرب على أفارقة من كل الملل بيهتفوا للسنغال. قلت أكيد أنا في حتة كلها أفارقة رحت حي تاني وتالت وبعدها رحت الشانزيليزيه مظاهرات فرح ما لهاش حل. والله أكيد في داكار كان العدد أقل من كدة.

يومها أنا قلت قرّبت.

بأقول لحضرتك إيه ما تشوفي لنا فيزا لفرنسا أو لهولندا وأنا تحت أمرك في أي حاجة.

سناء مهران

سناء هي الشخص الوحيد الذي لم يدفع قرش صاغ واحدًا لمبروك المنوفي مقابل تسفيرها إلى دولة الإمارات العربية المتحدة عبر تاريخه الطويل في سمسرة الخروج. فالمنوفي حريص على كل مليم لديه حرص أم رؤوم على طفلها الرضيع في أثناء مرضه الذي يكاد يفتك بحياته. ودائمًا ما يدعي الفقر فنظريته قائمة على أن المرء يمتلك مالًا فقط عندما يقوم بصرفه وليس عندما يمتلكه، وهذا منطقي جدًا من وجهة نظره، لأن المال في جيبه يمكن أن يسرق أو يضيع، وبما أنه لا يصرف إلا في الضرورات القصوى، فالمسكين وفقًا لتلك النظرية وبحق لا يمتلك مليمًا واحدًا أحمر أو حتى مليمًا برتقالي اللون. وقد تأكد المنوفي بعد أن حطت طائرة مصر للطيران بسناء مهران بسلامة الله في مطار دبي أنه كبر وخرف وانتهى أمره. فهل يعقل أنه في مقابل بعض القفزات الأمامية والخلفية والمتوسطية واللولبية، ومكر مفر مدبر مقبل معًا في جسد سناء لمدة لا تزيد عن الشهرين يخر ساجدًا كجلمود صخر حطه السيل من عل ويدفع لها تكلفة السفر كاملة. ولكنه يعود لاسترجاع

ملامحها بتمهل، لا، إنها تستحق كل مليم دفعه من أجلها فسناء قشطة مزروعة في بلاص عسل أسود برائحة مزارع البرتقال.

على الرغم من كثرة ما شاهد وعرف من محترفات الدعارة، فإن سناء شيء آخر، لها نكهة البنات البكر وروعة أداء المحترفات. في كل مرة يلتقيان كانت تشعره بأنه رجلها الأول. وبجسدها الصغير كانت تضمه بعضلات من فولاذ وتضغط عليه بقوة حتى تهرسه هرسًا فلا يملك فكاكًا من ضيق المحتوى ويعترف في كل مرة بأنها ولاشك أول مرة تمارس الجنس في حياتها البائسة.

كان لقاؤهما الأول هو الآخر يماثل غرابة أطوارها وجنوح سلوكها. فقد أيقظته زوجته يومًا من نوم القيلولة وعندما هب في وجهها صارخًا بأن تتركه في حاله قالت له:

ـ «امرأة تريدك».

خرج إلى الصالة نصف نائم ليجد فتاة منقبة مرتدية السواد من أخمص قدميها إلى أم رأسها ولا يظهر من جسدها إلا بياض عينيها وتتحدث بصوت خفيض وخجول:

ـ «دلوني عليك ولاد الحلال».

وتطلب وسيلة للسفر إلى الإمارات، ثم تؤكد أن لديها من المال ما يزيد وأكثر.

أغرته ببريق الذهب وهي تفتح حقيبتها وتعرض عليه أن تدفع له مبلغًا تحت الحساب، ولكنه رفض. لم يكن يعرف حينها أنه تورط في حلوانة لا أول لها ولا آخر.

كان ملف سناء لدى الحكومة أنظف من الصيني بعد غسيله بصابون ألماني معتبر. فالورقة الوحيدة الرسمية التي لم تكن حتى في حوزتها هي شهادة ميلادها التي استخرجها لها والدها سعيد مهران ومدون فيها اسم والدها ومهنته حارس عقار واسم أمها نبوية سليمان. أما ما عدا ذلك فلا أوراق لديها. وعندما سألها عن بطاقتها سألته بدورها باستغراب: ولماذا تورط نفسها مع الحكومة؟

ـ أليس البعد عنهم غنيمة؟

لم يعرف أبدًا كيف وصلت إلى منزله، ولا كيف سمعت عنه وهي تعيش في القاهرة. وصممت حتى النهاية أن يكون هذا سرها.

✧ ✧ ✧

يقولوا لي ده المنوفي لا يلوفي ولو أكلتيه لحم كتفك وفخذك وحتة من كلاويكي وانتي يا بت يا سناء مقدمة معاه السبت والأحد والاثنين، حياكل جتتك وينسى، ولا حيطلعك حتة وحيسيبك تولولي في القرافة.. وأنا أقول لأ لازم أراهن، واللي ما يراهنش في الدنيا دي ما يتحركش خطوة واحدة لقدام، بيفضل مكانه وسط العفرة والهباب. وأنا عارفة كويس إن الرهان لازم يبقى على الحصان العجوز.. دايما بييجي منهم.. وأنا شفت رجالة بألوان أطياف السماء واتأكدت أن مفيش حاجة اسمها غرباوي ولا إسكندراني ولا دمنهوري كلهم رجالة شايلين سيفهم ولا عنتر زمانهم وخايفينه يعطب، كلهم عندي صابون اللي يفرقهم عن بعضهم هو سنهم لأن كل سن وله نظامه.

مبروك كان في السن الدهبان اللي بيلبي النداء. ونديا دق في طبلة ودنه بوصية شلبية. نور أصلها علمتني حاجة وقالت لي حطيها حلقة في ودنك:

ـ خليكي يا بت يا سناء كريمة مع الرجالة.. إديهم كل اللي عندك لغاية آخر حبة عرق تنزل من بدنك، اقنعي نفسك يا بت إنك بتحبي الساعة دي.. وابسطي نفسك بنفسك، الانبساط والكآبة بييجوا من جوة الواحد مش من برة.. والكرم من شيم الناس الكويسة.. وصدقيني يا بت لما تبقي كريمة الدنيا حتبقى كريمة وياكي.

وصية شلبية أنا بأنفذها بالحرف وبالكلمة.

دلدقت عليه من كرمي نفحات ونفحات وما بخلتش لحظة. وهو كمان رد لي الصاع صاعين.

✧ ✧ ✧

ورثت سناء عن أبيها عينيْها اللوزيتيْن اللتيْن تنضحان ذكاء وخفة ظل مصرية أصيلة وشعرًا أسود مجعدًا ومجموعة كبيرة من الكتب كانت نور قد احتفظت بها وكأنها كنز على بابا. ولأن نور أمية لا تقرأ ولا تكتب فقد أحاطتهم بهالة من القدسية تكاد تصل إلى ما كانت توليه للمصحف الشريف من اهتمام وتبجيل.

ولأن رصة الكتب المضمومة بحبل مهترئ كانت ورثها الوحيد من أبيها؛ فقد ظلت سناء تنهل من هذه الكتب بشراهة وهي ابنة لم تَرَ أباها واعتبرت تلك الكلمات المرصوصة هي ما كان ينتوي أن يقوله لها والدها عبر حياتها. ولكنها تدريجيًا تركت كل الكتب

على جانب ووقعت فريسة عشق الشعر. وامتلكت مع أبياته ذاكرة من فولاذ؛ فهي لا تكاد تقرأ قصيدة إلا وتجدها مرصوصة في رف ذهبي داخل جمجمتها الصغيرة حتى لو لم تفهم حرفًا. وكأن الموسيقى تعزف في روحها لحنًا معروفًا لديها من قبل. ترك لها والدها دواوين لصلاح جاهين وفؤاد حداد وبيرم التونسي والخيام وأبي نواس والمتنبي وكان أغلب هذه الكتب على صفحتها الأولى ختم مستطيل أزرق حائل وبحروف أندلسية مكتوب عليه اسم «رؤوف علوان».

تفتخر سناء بوالدها وتحتفظ به في كليتها اليسرى التي تربت عليها كل يوم صباحا بحنان بالغ قائلة لها وله: «صباح الفل يا عسل». وكيف لا تفخر به وهو الذي استهزأ بضحكاته الهادرة وفطنته بالدولة وبالداخلية وبالوزراء والمخابرات حتى داخوا وراءه. أشعرهم بعجزهم وحقارتهم أمام التفاف الناس حوله فقط نكاية في السلطة. صحيح أنه قتل وسرق ولكن ـ وإنما الأعمال بالنيات ـ وهو لاشك كان يخطط لقطع دابر الفاسدين وهم كثر، وسرقة الأغنياء اللصوص.

غنى عبد الحليم حافظ لأدهم الشرقاوي الذي اعتبر في عصره قاتلًا ومجرمًا وتم ذبحه بلا رحمة، وغدًا يغني مطرب لم تلد مثله النساء لوالدها ويرفعه على الأعناق. واثقة هي أن العدل سوف يأخذ مجراه.. دِنْ تُدَنْ. فوالدتها السافلة التي أخذت عليش سدرة عشيقًا وهو كلب من كلاب والدها ووشت بأبيها لدى رجال الداخلية بالاتفاق مع هذا الخسيس وألقت بوالدها في السجن لتتزوج من عليش القذر، ها هو الزمن يدور دورته التي لا راد لها ويخونها

عليش مع أخرى بعد أن يكون قد نهب كل ما جمع سعيد مهران من مال ويلهث كالضبع القذر للبحث عن جيفة جديدة. وتعترف نبوية لابنتها بخطيئتها. وعندما تعلم نبوية مصادفة بتفاصيل سرقة يخطط لها، تشي بعليش للبوليس كما فعلت بزوجها الأول. ولكنه يفلت من قبضة البوليس ويعود لاهثا وعرقه يغطي لسانه القذر. حينها تأتي لحظة العقاب المقدسة عندما يهجم عليها في المطبخ وصفعة من هنا، وبصقة من هناك، يخترق السكين في يد نبوية قلب جامع السبارس «لتبرطع» روحه في جحيم الخلد، ويستقبل عشماوي نبوية بالأحضان.

✦ ✦ ✦

لماذا تتذكر سناء هذه الحكايات الآن وهي ملقاة في زنزانة كئيبة في دبي، ترافقها فتاتان من روسيا، وفتاة من الفلبين، وفتاة مغربية؟ هل لأن الروسيتين كانتا توليان ظهرهما لها وتتحدثان بالروسية دون انقطاع؟ حاولت سناء التحدث مع الفتاة المغربية، الوحيدة التي كان يمكنها تبادل الحوار معها، إلا أنها بلعت أقراصًا لا يعلم أثرها إلا الله، ولكن ما تعلمه سناء باليقين أنها غطت بعدها في نوم متقطع، لا تكاد تستيقظ حتى تنام مرة أخرى. أما الفلبينية فكانت في حالة صمت مطبق وكأنها تمارس طقسًا من طقوس ديانة غريبة تمجد الصمت. استعادت سناء في هذه الزنزانة حياتها لحظة بلحظة وهي تأكل وحدتها على مهل.

✦ ✦ ✦

الله يخرب بيتك يا «داريا» مطرح ما انتي.. يحط عليكي من غضبه راقات راقات.. هي السبب في اللي أنا فيه دلوقتي.. كنت قابلتها أول مرة في مركب في النيل.. كنت أنا مع زبون وهي مع صاحب المركب. حبتني لله في لله وادتني نمرتها.

كلمتها بعدها بأسبوعين.. أصل التقل صنعة. قلت لها: أنا سناء اللي قابل....، راحت رادة عليّ: طبعا طبعا فاكراك يا حبيبتي، ده انتي حلوة أوي وما تتنسيش.. كانت في العربي بربنط أكنها اتولدت في البلد دي لكن هي كان ما بقالهاش إلا خمس سنين بس في مصر. إزاي؟ مش عارفة. ولِيَّة مصحصحة على الآخر.

وطلعت الحكاية إن فيه عيادة دكتور علاج طبيعي في المعادي، كانت بعد ما بتقفل بتتحول لمكان للمساج الخصوصي. كانت داريا هي المسئولة عن الخصوصي.. هي اللي بتتفق مع الزباين وهي اللي بتجيب البنات اللي بيعملوا مساج. يقلّعوا الزبون ملط ويحمّوه حتة حتة وفي إيديهم جوانتي وبعدين يدهنوه بأعشاب سوداء وخضراء. ويبدوا بقة يشطفوه وهمَّ بيدعكوا بدنه بالراحة بس هنا يكونوا قلعوا الجوانتي. ياخدوه بعد كدة على أودة ويبدوا التدليك بزيوت جايبينها من بلاد برة. التدليك لوحده كان بيقعد ساعة. كانوا كلهم روس زيها.. قالت لي تعالى فيه شوية زباين بيحبوا يحدقوا بعد المساج بمصاج مصري.

كنت أدخل أنا آخر خمس دقائق مع الراجل اللي داريا تقول لي عليه وبالكثير عشر دقائق أكون خلصت. الحق يتقال فتحت لي طريق جديد في حياتي.. كتير حبوني وطلبوني برة فكرت كتير

أدخَل داريا في الموضوع ولّا لأ؟ وفي الآخر قررت أدخلها معايا كنت بأقول لها كل حاجة بالتفصيل، وتاخد اللي تاخده ما هي اللي جاياهم. أنا قلت يا بت ما تبصيش تحت رجليكي وبصي لقدام.. الغريب إن أنا فضلت للآخر الوحيدة المصرية اللي جابتها داريا. ادتني الدروس اللي نور ما عرفتش تديهالي.. حولتني بصحيح لليدي بيزنس بعد ما كنت ما سواش.

- إنتي يا سناء لازم تفهمي إن ده بيزنس. وبيزنس مهم.. اسمه «ليدي بيزنس». له أصول وتدريبات صعبة وتكنيك وفهم في علم النفس.. جسمك فيه هو راسمالك لازم تقضي كل يوم معاه على الأقل ساعتين ترعيه وتنضفيه وتدلكيه وتحطي عليه زيوت وروائح حلوة. لازم يا سناء تعشقي جسدك تقعي في حب تفاصيله وتنياته وتعطفي على كل سنتيمتر مربع فيه وتبوسيها وكأنك اكتشفتي الحب لأول مرة.

جسمك يا سناء لازم يكون حبك الأول والأخير.

وبعد الساعتين دول لازم تتدربي على الأصوات اللي حتطلعيها وانتي مع أي راجل. فكل صوت له معنى. عايزة تخلصي بسرعة فيه تكنيك معين في الصوت يخلصك.. عايزة تطولي تطلعي أصوات تانية. راجل هلكان ومش قادر وعايزة تساعديه فيه أصوات ثالثة.. علم كامل من الأصوات لازم تتدربي عليه. وبعدين فيه تدريبات معينة لتقوية عضلات الفخدين وتدريبات لتقوية عضلات أعضائك الجنسية.

أيوه كدة.. الحركة دي هايلة لازم تحسي فيها بآخر نقطة في عمودك الفقري. حاسة؟

التدريبات لوحدها يا سناء محتاجة ساعة على الأقل كل يوم.

يا حبيبتي ده علم اسمه «الفاكيولوجي». الحكاية مش فتح رجل والسلام».

اعتبرتها أمي الثانية بعد شلبية.. حسستني بنفسي وحسيت لأول مرة إني شخص مهم.

زيي زي أي بيزنس مان كبير أنا كمان بيزنس ليدي.

وبديت أحب جسمي لأول مرة وأحب نفسي.

كبرت وطولت واعرضيت وحلويت. كنت قبلها دايما خائفة، خائفة زي في بيتين لصلاح جاهين:

«أصل اللي أبوه يسيبه.. تطمع فيه الديابة»

كنت شايفة ديابة في كل حتة.. شلبية كمان ادتني الشعور ده، ما هي ست غلبانة وطيبة.. دلوقتي ومع داريا حاسة إن أنا كل الديابة اللي في الدنيا.

مشيت على السيستم اللي حطتهولي بكل دقة. حسست كل راجل إنه راجلي، وإني فجأة كدة حبيته. وزي ما قالت لي داريا:

ـ حتى لو ما مصدقكيش وانتي بتقولي له بحبك، حيتبسط برضه. الرجال أطفال بيحبوا النهنهة والمديح.

فضلت معاها أربع سنين يعني خدت معاها بكالوريوس

الجامعة، لكن النذلة قبل الماجستير خلت بيَّ. في يوم كنت خارجة من العيادة مع تاتيانا، ولقيت شبشب داريا في الطرقة مقلوب قلبي انقبض عدلته، وكملت ناحية الباب، وعلى الرخامة قدام الباب لقيت مقص مفتوح قلت أكيد فيه حاجة حتحصل.. وتاني يوم ما كدبش خبر، لقيتها بتتصل بيَّ وبتقول لي:

أنا رايحة دبي.

ما تسيبيناش يا داريا.

خلاص أنا حجزت التذكرة.

طيب وشغل العيادة؟

بخ.

والزباين؟

مسئولية تاتيانا.

دى الولية دي ما بتطقنيش.

وفعلا كلمتني تاتيانا بعد سفر داريا بأسبوع وقالت لي حاجيب روس وبس.

مفيش بعد أقل من شهرين لقيت داريا بتتصل بيَّ من دبي:

سناء أنا عايزاكي هنا في دبي، إحنا محتاجين بنات مصريات. حتقعدي هنا سنتين بمقام عشرين في مصر.

عملت أنا اللاللي علشان أطلع، ويوم ما أوصل الإمارات أمها تموت، وتطلع هي على موسكو وتسيبني أنا في وكستي.

✧ ✧ ✧

لم يكن قد مر على وجودها في دبي إلا يومان فقط وكان البوليس قد التقطها من الشارع ورمى بها في سجن في الشارقة تحرسه سيدات محجبات يرتدين السواد. تم إعلامها أنها سوف تُعرض قريبًا على محكمة. تخاف أن يُحْكم عليها بالإعدام شنقًا رميًا بالرصاص.

بدأت الفتاة الروسية الجالسة إلى جانبها في الالتفات إليها لأول مرة عندما سالت دموعها بعد أن فرطت منها آخر حبة أمل كانت قابضة عليها، بادلتها الحوار وبعد كلمات معدودات يخرج اسم داريا في فضاء الزنزانة كمفتاح الجنة لينهي أزمة سناء بالكامل.

كانت الفتاة كازاخية اسمها ديانا، اكتشفت سناء بعد أسبوعيْن من هذا التعارف وفي مدينة تبليسي أن اسمها الحقيقي «رسالة». لم تكن قد بلغت بعد الواحدة والعشرين من العمر عندما وصلت منذ حوالي العام والنصف إلى دبي من مدينتها «ألماطي» أكبر مدن كازاخستان والعاصمة القديمة لها. توفي والدها الذي كان يعمل سائقا في خناقة عبثية مع مجموعة من الشباب أمام منزله ولم تكن قد بلغت الثالثة عشرة. أخوها الأكبر سكير احترف اللصوصية بعد وفاة والده ولم يمر عام إلا وكان ملقى في السجن بحكم من المحكمة بخمس سنوات مع الشغل والنفاذ. وفي عيد ميلادها السادس عشر دعت أمها التترية الأصل في الاحتفال الصغير حول كعكة متناهية

الصغر رجلًا في الستين من العمر لم تكن رسالة قد رأته من قبل ثم عرفت من الأم أنه سوف يكون عشيقها في مقابل أن يتولى الصرف على المنزل. الذي لم تكن قد علمته الأم أن رسالة سوف تضطر أيضًا إلى أن تعمل في أحد مطاعم هذا الرجل لمدة تزيد عن عشر ساعات يوميًا وسوف تضطر، بالتالي إلى ترك مدرستها.

على الرغم من قرف ديانا الشديد من بكاء سناء؛ فهي تمقت الضعف الإنساني، وتعتبره إهانة لا يمكن أن تغفرها لأحد، فإن حبها الشديد لداريا جعلها تتصل من فورها بجالينا السيدة المسئولة عنها والتي اتصلت بدورها بداريا في موسكو، واتفقا على إخراجها على أن تصبح على قوة جالينا، وليس على قوة ماري التي كانت داريا تنتوي أن تمنح سناء لها.

أما الفتاة الروسية الملتصقة بديانا والتي كانت تشبه كثيرًا شكل الغجرية المتخيل في أذهاننا فهي ليست صينية بالتأكيد وليست كذلك سلافية ولا عربية ولا سلجوقية ولا فارسية ولا تترية، ولكن ملامحها تنضح بكل ذلك مع صدر ناهد ووجه طفولي، كانت تدعى أنفيسا واسمها الحركي ناديجدا ويبدو عليها أنهم انتزعوها أمس الأول من حضن أمها في مدينة ماخاتشكالا عاصمة جمهورية داغستان الروسية.

أخرجت جالينا الفتيات الثلاث من الحبس، وجمعتهم حول مائدة الحساب العسير بيضاوية الشكل وجلست على الرأس الصغير للمائدة في الناحية التي كان يفضل الـ«ليليبوت» كسر البيضة من ناحيتها في جاليفار داخل غرفة صغيرة ذات سقف واطئ.

ـ يا بنات .. لم تعد هناك إمكانية أن تستمروا هنا في دبي بعد القبض عليكن. فعلاقاتنا لن تسمح بإنقاذكن في المرة القادمة من السجن.

وجهت حوارها لسناء بعربية ركيكة:

كان الاتفاق بينك يا سناء وبين داريا أنك سوف تتدبرين أمر مجيئك إلى دبي، وبالتالي ليس لك علينا أي مديونية.

ثم عادت إلى الحديث بالروسية:

أما أنتما فقد هربتما قبل أن تقوما بسداد دينكما لنا.

هل تظنان أن مجيئكما هنا كان مجانًا؟

على أي حال، أظن أنكما قد عرفتما ما مصير من يهرب.

هو السجن أو اللجوء إلينا مرة أخرى.

صدقاني كل من هرب من حمايتنا سقط في النهاية مهما طال هروبه. أنتما في حاجة إلى الحماية يجب أن تعرفا ذلك جيدًا. نوفر لكما جواز السفر والتأشيرة والإقامة والحماية والزبائن وندفع كل ذلك مقدمًا.. ماذا تريدان أيتها الجشعتان البشعتان؟

ولكنني في النهاية متعاطفة معكما؛ فعودكما ما زال طريًا ومن السهل دفعه في أي اتجاه، يريده من يقوم بالزن على آذانكما الصغيرة.

لقد قررنا أن ننسى الماضي، ولنبدأ صفحة جديدة لكن جميعًا.

ثم حولت لسانها من الروسية إلى لغة أشبه بالعربية تتضمن كلمات انجليزية وروسية وداغستانية:

اسمعيني أيضًا جيدًا يا سناء. الآن أمامكن قرار يجب أن تتخذوه. إما العودة إلى دياركن وإما البدء معنا من جديد؟ وفي هذه الحالة سوف نتكفل بموضوع خروجكن من هنا، ثم نقوم باستخراج جوازات سفر جديدة بأسماء جديدة بجنسيات جديدة، ثم العودة بكن مرة أخرى إلى دبي. وسوف يكلفكن ذلك مبلغ خمسة عشر ألف دولار. وسوف نقتطع من دخلكن نصف ما تربحن ومن الممكن كما تعلمن جيدًا أن تربحن ما بين المائة دولار والمائتي دولار يوميًا، وبالتالي سوف نُحصّل منكن بين الخمسين دولارًا و المائة دولار يوميًا، وبهذه الحسبة البسيطة يمكنكن أن تدفعن مديونتكن خلال مائتي يوم عمل فقط لا غير.

لم تفكر الفتيات الثلاث كثيرًا وجاء ردّهن سريعًا:

ـ ومتى السفر؟ وإلى أين العزم؟

✧ ✧ ✧

فعلى قدر أهل العزم تأتي العزائم. سافرت ديانا أو رسالة إلى مدينتها ألما أتا. وبعدها بيوم سافرت ناديجدا أو أنفيسا إلى ماخاتشكالا، وهو الاسم الخواجة لاسم مدينتها الحقيقي «محج قلعة» وهي المدينة ذات التاريخ المهيب لتفاجأ باختفاء كل صديقاتها بعد إغلاق محل لعب القمار الذي كانت تعمل به؛ فقد اتخذت الهيئة التشريعية لعاصمة داغستان محج قلعة قرارًا بإغلاق

جميع محلات ألعاب القمار في المدينة اعتبارًا من الأول من إبريل عام ٢٠٠٦.

أما سناء فقد أيقظوها من نومها فجر يوم الجمعة الثاني من نوفمبر عام ٢٠٠٧ بعد سفر ناديجدا بثلاثة أيام وقالوا لها إنها سوف تتوجه إلى «تبليسي». وهي المدينة التي سماها عرب العصور الوسطى «تفليس» وهي عاصمة بلاد الكرج أو كرجستان والمسماة حاليًا بدولة جورجيا.

طمأنتها جالينا قبل أن تتحرك من شقتها في دبي قائلة: «هناك امرأة تدعى أزفير سوف تكون في انتظارك في المطار حاملة اسمك على لافتة صغيرة وسوف تتولى هي باقي مهمة إعادتك إلى هنا سالمة وبأقصى سرعة.. كوني مطمئنة».

ما إن ركبت سناء الطائرة البوينج ٧٤٧ حتى لمحت وجه حبيبها فأغمضت عينيْها وفتحتهما مرة أخرى لم يكن هو ولا حتى كان شبيهه، وبعد خطوتيْن أخريْن شاهدت مرة أخرى، وجه حبيبها وعندما حملقت في وجه هذا الرجل كان المشترك الوحيد بينهما هو سمرة الوجه. وعندما وصلت أخيرًا إلى مقعدها وجلست كانت في حالة هلع شديد وبدأت عضلات وجهها في الارتعاش. أغمضت عينيْها وسمعت صوته الرخيم وهو يغني لها مقلدًا كارم محمود: والنبي يا جميل حوش عني هواك.. دا أنا قلبي عليل ودواه وياك.

أغمضت عينيْها وذابت في كحل عينيْه وملأها صوته حتى ظنت أنها طائرة على موجات نبراته. وتسللت الطمأنينة إليها برعونة حبها له. كان منير هو حبها الأول والأوسط وقبل الأخير والأخير

والأبدي والأزلي. وعندما أوقفت التاكسي وركبت بجانبه ونظرت إليه كان سهم القضاء قد وقع. لم تستطع النطق. وعندما سألها: «على فين؟»

أدركت أن صوته أجمل من صوت عبد الحليم الذي فلقتها به نور، وسالت دموعها من جمال صوته وجمال وجهه وعينيْه وقوس حاجبيْه.

سخرت منها شلبية:

ـ ذوقك زبالة قوي مش كنتي تحب لنا واحد أبيض.. اتشمللتي يا فالحة وحبيتي واحد أسود، كان في حلمي حبيبك حيبقى واد زي شق اللفت.

كان نوبيًا جاء من أسوان تاركًا أخاه حسونة في حيص بيص بعد أن سافر أخوهما نابري إلى الكويت، وترك مسئولية المركب للأخويْن. جاء إلى القاهرة وعمل سائقا لتاكسي أحد النوبيين من معارفه.

المهندسين.. شارع البطل أحمد عبد العزيز.

اتأخرتي كده ليه؟

تعبانة يا منير.

إيه مالك؟

تجلس سناء بجانبه وفجأة تسيل دموعها على وجنتيها في صمت.

علشان خاطر دموعك دي ممكن أستنى هنا العمر كله، وهو حد يلاقي يقف قدام السيدة عائشة».

من أجلك أنت يا منير يمكنني الانتحار الآن وحالًا.

أثبتت البنت أنها بنت أبيها.. استطاعت أن تشبكه بموعد ثم آخر فتلميح فتصريح.. لم يعرف أبدًا مهنتها. كانت أذكى منه كثيرًا وأقنعته بأنها تعمل ممرضة في عيادة علاج طبيعي في المعادي. ولكنها حاولت بكل ما أوتيت من فطنة أن تجره إلى أي فراش، أن تفترسه وتنهش لحمه قبل عظامه ولكنه أبى واستكبر. «الصبر مفتاح الفرج».

تظن الآن أنه لم يحبها أبدًا، كان الأرجح حبًا من طرف واحد، ولكن على الرغم من ذلك ملأ عليها حياتها. عندما أوصلها بالسيارة إلى مبروك المنوفي بعد أن أسرت له برغبتها في الخروج من الجحيم والذهاب إلى الإمارات قال لها: «ما البلد دي أحسن من غيرها»، ولكنه عرَّفها على السمسار الذي لهف من أخيه آلاف الجنيهات في مقابل تسفيره إلى الكويت.

لو كان قد مد ذراعيْه ولو مرة واحدة وأحاط خصرها ليضمها إليه لظلت لصق ظله إلى ما شاء الله، ولكنه ظل مكبل اليديْن.. اكتفى من الدنيا بالفرجة. تتذكر الآن أنه لم يوصلها أبدًا مجانًا فالسيارة كما قال ليست ملكه: «ودي أمانة». حتى عندما أوصلها إلى المطار احتضنته غصبًا عنه. كان في منتهى الحرج والضيق ولكن في النهاية أخذ حساب المشوار بالعدل والقسطاس. المرة الوحيدة التي

ظل معها طوال اليوم ورفض أن يقبض قرشًا واحدًا، بل قام بدفع المصاريف الأخرى كافة كان يوم دفن نور.

تذكرت سناء ليلة الوفاة وبكت بحرقة حتى قلق عليها شاب جيورجيّ كان يجلس بجانبها في الطائرة، وأخرج من جيبه منديلًا ورقيًا معطرًا ومد يده ليمسح عنها دموعها وانتهى الأمر بأن أعطاها رقم هاتفه في تبليسي.

✧ ✧ ✧

كانت أزفير امرأة علاقتها بالأنوثة كعلاقة مايك تايسون بها.. طولها كعرضها، ذات شارب نحيف يعطيها قدرًا من الوقار وقدرًا مماثلًا من الرجولة. فأزفير امرأة لا تنقصها بأي حال من الأحوال الكروموزومات الذكرية. شعر رأسها خفيف وتضمه تحت إيشارب قرمزي اللون للتذكرة أنها امرأة وترتدي ملابس أقرب إلى الملابس العسكرية كابية اللون.

ظنت سناء عندما رأتها تحمل اسمها في المطار أنها سجانة في سرداب تحت قبو مبنى للـ «كي جي بي» وقد جاءت بالتأكيد لتقبض عليها في هذه الساعة وتقودها من فورها إلى آلة جديدة من آلات التعذيب تم اختراعها أول أمس على يد عبقري سادي من بيض جنوب إفريقيا. ولكن الحياة مخابر وليست مظاهر؛ فقد كانت أزفير امرأة ودودًا إلى أقصى حد. وأثبتت لسناء منذ اللحظة الأولى لجلوسهما في سيارة الأجرة التي نقلتهما من المطار إلى منزلها كم هي إنسان لطيف. أعطت سناء بكل لطف خمسين «لاري» وقالت لها: ابقهم معك في حالة الضرورة ثم أعطتها ورقة مدونًا عليها

أرقام تليفونات كثيرة وعنوان منزلها. كانا يتبادلان الحوار بلغة انجليزية أشبه بلغة البانتومايم، فكلتاهما تعرف من اللغة الانجليزية ما يعرف المراهق الريفي عن الجنس في القرون الغابرة، ولكن كان ذلك كافيًا لتبادل المعلومات الأولية، وكانت المعلومة الأخيرة التي أعطتها أزفير لسناء من فور ولوجهما من باب الشقة ـ الحجرة ـ عندما أشارت إلى مقعد متهالك «سوف تنامين هنا».

✦ ✦ ✦

أول مرة دخل منير شقتنا كنت منقوطة على مكسوفة على مقهورة، كان نفسي أتفشخر على منير، لكن أتفشخر إزاي و عمارتنا المفروض تكون وقعت من خمسين سنة على الأقل، واقفة مايلة في آخر شارع نجم الدين في قرافة النصر. وإنتي طالعة عندنا في الدور الأول حتلاقي السلالم المكسورة أكثر من السلالم السليمة. وكمان السليمة منها معضوضة كلها من حيوان أسطوري بلسان طويل وسنان مِهَتمة ما بياكلش غير سلالم العمارات بتاعتنا.

تدخلي تلاقي صالة حق مفتوحة على أودة النوم الحيلة اللي على طول شباكها مفتوح على القرافة.. لكن الحق يتقال هواها يرد الروح. ما هو بياخد أرواح الميتين الهايمة تحت السماء ويبعتهم في صدورنا بالنَفَس والشفاء.. علشان كدة أنا شكلي حاعيش فوق الميت سنة وأعوض عمر أبويا اللي اتقصف.

أكيد شلبية لو كانت عايشة كانت حتقول لي:

يا حسرة على بيته في أسوان.. ده تلاقي أهل منير دول ساكنين في أودة غسيل على السطوح.

أنا كنت عمري ما خدت بالي إن شقتنا صغيرة، غير لما بديت الشغل أنا كنت فاكراها زمان قصر.. لكن الشغل وراني القصور على حق، وعرفت إني حتة فار معفن عايش في جحر.

الله يرحمك يا أبويا كانت كلمته المشهور بيها:

الجحور للفيران أما أنا فأسد مكاني في أعالي الجبال.

منير كمان كان أسد كريم معايا، قعد في الصالون وقال لي: «لازم يوم تيجي نشربك شاي في بيتنا في جزيرة أسوان»، حكى لي إن بيتهم مفتوح على السماء وعلى النيل وفاتح دراعاته لدفا الدنيا كلها.. لكن ما بقاش فيه غير الحريم بعد ما أبوه طلع السودان بعد موت نابري وسافر أخوه على إنجلترا، منير كان بيعشق أخوه الكبير حسونة، لكن ما اعرفش ليه رفض يشوفه لما جه مصر قبل ما أسافر أنا بأسبوع علشان يركب الطيارة على بلاد برة.

كان نفسي يقول لي: لازم يوم تيجي تشربي الشربات هناك.. شاي إيه وزفت إيه ابن الهرمة ده، مش كفاية الشاي اللي كل يوم بيشربهولي بللوشي عند عمه في جروبي وسط البلد.

لما دخلت شقة أزفير رجعت تاني لنظرتي الأولانية لشقتنا، أكيد كنت ساكنة في قصر ملك أو فيلا في مارينا بمنافعها جنب الشقة دي.. شقة علشان تدخليها لازم تدخلي بالورب ولو فردتي إيديكي حتخبطي في الحيطان من الناحيتين وتكون لسة ما تفردتش..

بصيت على الكرسي اللي حأنام عليه «والله السجن في الشارقة كان أرحم».

✧ ✧ ✧

لم تحظَ أهداب سناء بلحظة سكون في تلك الليلة الأولى لها في تبليسي. ظلت تداعب ملاك النوم وتتحايل عليه وترسل له قبلات عبر الأثير على أمل تشريفه ولكنه أبى الحضور.. قامت ونظرت عبر النافذة فأدركت السبب الغائب عن ذهنها.. فعلى الرغم من أن القمر لم يكن بدرًا، فإن الليل كان رائعًا وأشعة القمر تنير الدنيا، صفع الضياء وجهها بعنف بنور رباني غامض. تعلم هي باليقين أن ملاك النوم يرفض النزول على الأرض، وأشعة القمر تضوي بهذا الزهو. نظرت فرأت مرة أخرى وجه منير حول حواف القمر.

نزلت في الصباح مع أزفير ولكن شاء الشعب الجورجي أن تعودا أدراجهما من فورهما خائبتي الرجاء، فإذا الشعب يومًا أراد تعطيل مسيرة سناء فلا بد أن يستجيب القدر.

فقد تظاهر نحو خمسين ألفًا في شوارع العاصمة الجورجية وتجمع عشرات الآلاف خارج مقر البرلمان مطالبين رئيس البلاد «ميخائيل شاكاشفيلي» بالتنحي عن منصبه، وبإجراء انتخابات برلمانية مبكرة بعد تفشي حالة الفقر التي تعيشها البلاد.

وسط هذه الأجواء الملبدة بغيوم سوداء قبعت سناء في قصر أزفير يومي السبت والأحد منتظرة الفرج، وأصبح حضور ديانا وناديجدا التي بالكاد تتذكر الآن وجوههما كالحلم يتهادى لمخيلتها فتبتسم.

في صباح الاثنين زارها شاب أصلع، ضئيل الحجم وأخذها إلى محل تصوير قريب من المنزل لاستخراج صورة لها لجواز السفر. قال لها إنهم اختاروا لها اسم «آسيا» ليكون اسمها. اختاروه لسهولته بالنسبة إليها حتى لا تنساه فمن يمكنه أن ينسى آسيا أكبر قارة على وجه الأرض.

✦ ✦ ✦

أبويا بيحميني.. بيقول لي أنا راضي يا بنتي عنك وفاهم الحال، وأنا معاكي دلوقتي وشايفك. بيبعتلي من فوق رسالة. صحيح بالإنجليزي اللي بافهم منه كلمة وخمسين لأ وصحيح عن طريق واد أصلع وخواجة وما يعرفنيش وما اعرفوش.. لكن أول ما قال لي اسم «آسيا». بدني كله اتنفض.. دي الرواية الأجنبية الوحيدة اللي سابها لي أبويا.. ساب لي كتب في السياسة وفي الشعر وفي الاقتصاد إنما دي الرواية الوحيدة.. الغلاف أخضر ومقطوع من تحت قطعة صغيرة بالورب ومكتوب بالكبير من فوق آسيا وتحتيها أصغر شوية جداول الربيع. اللي كتبه راجل روسي مش فاكرة اسمه إيه؟ باين إيفان حاجة.. وطول النهار معدية يمين ومعدية شمال وانا عمالة أقرأ اسم «آسيا». ما قرتش الكتاب كله قريت بس حتة منه لغاية ما الراجل حب آسيا وبعدها اختفت.. قلت إيه الخيبة دي كدة برضه تسيبي الراجل، هو حد لاقي حد يحبه.

لكن أبويا كان عارف إني فاكرة الاسم كويس.. آسيا.

طيب.. وليه كان الكتاب ده بالذات أول كتاب من فوق كومة الكتب؟

وليه الكومة دي هي اللي كانت على برة؟

مفيش حاجة اسمها حظ.. ومفيش حاجة اسمها صدفة.. أنا ما بصدقش في الحاجات دي.. كل حاجة مقصودة. ومتدبرة. والكتاب ده كان موجود في حياتي كلها علشان أبويا يقول لي اللحظة دي:

«أنا يا بت يا سُنسُن مراعيكي».

الورث اللي سابهولي مش صدفة إنما كود سري بيني وبينه لما يعوز يقول لي حاجة يبعث لي مرسال باسم كتاب.

إزاي يا سنسن يا هبلة يا بنت العبيطة ما تاخديش الكتب معاكي وانتي مسافرة؟

لازم أرجع وآخدهم.

✧ ✧ ✧

اجتمعت أخيرا ناديجدا وديانا وآسيا تحت سقف منزل أزفير كما انضمت إليهن فتاة جديدة تدعى سونيا وهي من مدينة «نفت چالة» على ساحل أذربيجان. لم تكن هناك أماكن جلوس لكل هؤلاء، فالمنزل تم تصميمه من المعماري بحيث يستقبل فردًا واحدًا فقط شريطة ألا يتعدى وزنه خمسين كيلوجرامًا. ولكنهن افترشن الأرض في اتجاه شمال شرق لأن أي اتجاه آخر كان سوف يرشقهن في أي حائط. وعندما أبلغتهن أزفير بأن الأوضاع انقلبت فجأة ألوانها حتى غلب عليها اللون البني الغامق، وبأن جوازات سفرهن سوف تتأخر قليلًا، ولولن بالصوت الحياني، ولكن لم يكن أمامهن جميعًا

إلا مضغ الزمن، وتبادل الحكايا على أساس أن سماع بلاوي الغير يهون علينا أمر بلاوينا.

لم تكن سونيا تتحدث كلمة واحدة انجليزية ولا عربية.. فتطوعت ديانا بالقيام بمهام الترجمة من العربية إلى الروسية وبالعكس باعتبارها الخبيرة الوحيدة في قواعد وأصول اللغة العربية. اتفقن أن تحكي كل واحدة قصة علاقتها الجنسية الأولى.

بدأت سناء حكايتها:

أمي كانت ناظرة مدرسة وأبويا كان صحفي وكاتب كبير لكنه مات صغير في حادثة غريبة قوي. كان نازل من الجرنال اللي بيشتغل فيه ولسة خارج من البوابة الكبيرة هجم عليه حرامي كان مرة كتب عليه بابا في الصحافة وراح مطلع المسدس وطاخ طاخ.. مات بابا. كنت أنا ساعتها لسة ما دخلتش المدرسة. أمي بقى هي اللي ربتني كان اسمها نور وكان نورها مغطي على المدرسة بحالها.. دخلت طبعا المدرسة اللي ماما الناظرة بتاعتها.. وكنت متفوقة جدا، بالذات في الشعر.. كنت كمان باكتب شعر وأساتذتي كانوا معجبين بيه جدا. بعد ثالثة إعدادي ماما نور طلعت على المعاش. دخلت أنا أولى ثانوي، وجه ناظر بشع كان بيكره ماما جدا.. أنا كنت ضعيفة جدا في الرياضيات وفضلت أجيب نمر كل شهر زي وشي.

....

يعني زي الزفت.

....

يعني سيئة.

(Bad)

المهم جالي المدرس ـ وكان أول سنة ييجي المدرسة ـ سألني: إنت يا سناء ناوية تنجحي السنة دي؟ قلت له: طبعا. قال لي: لازم تاخدي درس خصوصي.. سألت ماما. رفضت طبعا لأنها كانت ضد الدروس الخصوصية. قال لي المدرس تعالي أنا حاديكي دروس مجانا من وراء أمك. وافقت ورحت له على العنوان اللي اداهولي.

اتفضلي.

تشربي إيه؟

طب شاي؟

طب ما يصحش.

وبعدين قال لي:

بصي يا سناء مستواكي وحش جدا.. بس أنا ممكن أنجحك من غير دروس ومن غير حصص والسنة الجاية حتدخلي أدبي وتبقي نفدتي من السنة اللي مش حتعدي منها دي.

وراح مادد إيده وبدأ يفك لي زراير البلوزة.. زقيت إيده.. هجم عليَّ.. قلت له: حاصرخ.. قال لي يا ريت.

مش فاكرة قوي إيه اللي حصل بس اللي فاكراه إني نزلت دم كثير قوي.

دي يا بنات كانت أول مرة بس طبعا ما كانتش الأخيرة.

لم تعجب البنات بالقصة، فقصة المدرس والتلميذة مكررة جدًا وليس فيها شيء جديد وبدأت سونيا في حكاية قصتها:

أبي يعمل صيادا في بحر قزوين يصطاد الأسماك التي يخرج منها الكافيار.. ساءت الأحوال جدا واستمرت في التدهور لمدة طويلة بلغت العام، وفي ليلة عاد غاضبا إلى المنزل ضرب أمي ثم دخل عليَّ و..

صرخت سناء في وجهها فترجمت ديانا:

لا تقولي أن والدك هو الذي اغتصبك.

نعم هو أول من اغتصبني.

لا يمكن.. أنت كاذبة.

لا ولم أكذب؟

لم يعد هناك وقت لمحاولات ديانا للترجمة، فقد هجمت سناء كالمتوحشة على سونيا تريد قتلها دافعت سونيا عن نفسها ثم بدأت تبادلها العنف بعنف.. صرخات وتلتها ضربات ثم صفعات حتى تأكدت ديانا وناديجدا أن إحداهن سوف تموت الليلة.

✧ ✧ ✧

أقر البرلمان الجورجي يوم الجمعة ٩ من نوفمبر ٢٠٠٧ بالإجماع فرض حالة الطوارئ في البلاد بعد مظاهرات الاحتجاج

العنيفة التي لم تتوقف لمدة عدة أيام، ولكن لم تمنع هذه الأحداث في نهاية الأمر من إصدار جوازات السفر الخاصة بالبنات الأربع. صدر جواز سفر سناء بالجنسية الجيورجية تحت اسم آسيا تاسخورديا. وتم الاتفاق معها أنها سوف تلعب دور الخرساء في أثناء خروجها من مطار تبليسي. ثم بدأت إجراءات الحصول على تأشيرة دولة الإمارات العربية المتحدة ببيانات جواز السفر الجديد. ظلت العلاقات بين سناء وسونيا في حال أسوأ من العلاقات بين جورجيا وروسيا برغم ما بين الجميع من تشابهات. حفظت كل منهن اسمها الجديد ورقم جواز سفرها وظللن في انتظار تحديد يوم السفر إلى دبي للبدء في تسديد دينهن لوطنهن الجديد.

من أول السطر

اليوم عيد ميلادي، أتممت الأربعين.

الأربعين.

كنت أتخيل أن وقع تلك الكلمة سوف يحدث ثقوبًا غائرة في طبلة أذني.

استيقظت اليوم في السابعة صباحًا ووجدت نفسي أعلن بصوت واضح جلجل في جنبات الغرفة: «أنا في العقد الخامس من عمري»، طرقت ذبذبات صوتي الحائط الأيسر لكي ترتد بعنف إلى الحائط الأيمن، ولكن وجدتني أنهض من فراشي وأسير بصورة عادية دون أن أعرج أو أسقط أو أتلعثم، بل في خط مستقيم سرت حتى وصلت إلى المطبخ وأعددت كوب النسكافيه باللبن ثم عرجت إلى الحمام وخلعت ملابسي ونظرت مليًا إلى نفسي في المرآة. كم أنا جميلة. فوجئت بأنني لم أتغير منذ الأمس على الإطلاق. شعري الأشقر منسدل على كتفي بغبائه نفسه، لم يتحول إلى اللون الرمادي كما كنت أتصور وما زال كشعر الخيل مسدولًا ومفروقًا على الناحيتين لمنح خطواتي صوتا كالصهيل.

«يدي البخت لمكتكتي الشعور».

لم أجد تجاعيد جديدة تحت عيني الزرقاوين، وإنما النظرة الباهتة نفسها التي لا طعم لها. اقتربت من المرآة، بشرتي هي الأخرى لها اللون الأبيض الشاهق نفسه ولم تجد محاولاتي المستمرة لحرق بشرتي من شمسنا الساطعة.

«البياض على الحيطان.. والسمار نص الجمال».

كم كنت أتمنى أن تكون لي عيون سوداء وشعر كالليل في غموضه الساحر، ومكتكت حتى يمنحني الله الحظ الموعود في الأمثال الشعبية لمكتكتي الشعور، ولكنني ورثت عن أمي ما يجب أن أرثه منها بقواعد الجينوم الذين ما زالوا يفكون في شفرته بكل جد واجتهاد ويعدوننا بأنهم سوف يبدأون صفحة جديدة من تاريخ البشرية بعد هضم طلسمه، ربنا يستر وألا تكون صفحة الندامة، ولم أرث من والدي إلا أنفي الصغير.

لم أحصل بالتالي عبر حياتي على كأس الحياة الذهبية الممتلئة بخيوط الحظ الملساء التي ترفعنا إلى سماوات لم أرها إلا من مقاعد المتفرجين داخل السيرك الكبير.

رفضت أمس كل المحاولات للاحتفال بعيد رأس السنة أو بعيد ميلادي، التقيت بابنتي في السابعة مساء، نهلت من وجهها كمًّا هائلًا من السعادة خزنتها في حلقي، واحتسينا عصيرًا وعادت بعدها إلى منزل والدها. وكنت أنا في العاشرة مساء أغط في نوم عميق. تمنيت دائمًا أن أقضي عيد رأس السنة وعيد ميلادي وأنا ألتهم أطباقًا لا حصر لها من الأرز باللبن مع الملائكة ولكنني كنت

دائمًا أستسلم لضغوط المجتمع وألتهم مع بشر لا أعرف معظمهم فطيرة التفاح. ولكنني وأنا في هذه السن من النضج استطعت اتخاذ القرار الصعب بمواجهة الدنيا وصحت كما المحامي «محمد عبد الرازق عفيفي» الذي ألصق في وسائل المواصلات العامة مقولة: «من يسبح ضد التيار معي».

كنت في العاشرة من العمر عندما شاهدت ملصقات هذا المحامي في أوتوبيس رقم ١٣ الذي كان يربط باب اللوق بحي الزمالك، وكان منزلي وما زال يبعد أمتارًا قليلة عن الموقف المرحوم للأوتوبيس رقم ١٣ الذي اختفى من ضمن الأشياء العزيزة الكثيرة التي اختفت.

ظللت حتى الآن لا أعرف من هو هذا المحامي؟ أهذا هو اسمه.. أم أن ذاكرتي تخونني؟ وما التيار الذي يريدنا أن نسبح في عكس اتجاهه؟ ولماذا يكلف نفسه هذا الجهد لكي نسبح معه؟ كنت أنتوي أن أسأل والدي، أو على أقل تقدير أن أطلب منه مايوهًا جديدًا، ولكنه مات فجأة في شرخ الشباب وتركنا أنا وأمي وحدنا. ولكنني على الأقل وبعد أكثر من ثلاثين عامًا استطعت اليوم أن أستمع إلى نصيحة هذا المحامي، وأسبح ضد التيار معه وأنام ملء جفوني.

حصلت اليوم على إجازة من الجمعية، ورفضت أن أعطي دروسًا في البيانو، كنت مرتبطة بموعد واحد مع تلميذة جديدة في الزمالك في السادسة مساء ولكنني اعتذرت منذ أسبوع عن هذا الموعد. كنت أود حقيقة أن أقضي هذا اليوم وحدي. أن أسير

بلا هدى وليدفعني الهوا في لج الموج ما شاء له أن يفعل. قبلت جدتي وخرجت من منزلي في شارع هدى شعراوي وسرت حتى ناصيته مع شارع سليمان باشا، وقفت قليلا فلم أجد هواء يدفعني يمينًا ولا يسارًا.

✧ ✧ ✧

أمسك أبي يدي بقوة ورفعني إلى أعلى حتى أصبحت عيناي أمام عينيْه تمامًا، ثم قارب وجهه من وجهي وقال لي إن هنا بالضبط هي حدودي وممنوع بعدها أن أخطو خطوة واحدة إلى الأمام، مسموح السير في شارعنا هدى شعراوي، أما شارع سليمان باشا فهو في منتهى الخطورة، السيارات تسير فيه مسرعة بجنون. ويفضل ألا أصل إلى نهاية شارعنا، بل أكتفي بالوصول حتى مطعم فلفلة ثم أعود أدراجي إلى المنزل. ثم أجلسني على كتفه العملاق فنظرت إلى الدنيا من السحاب وأمسكت أمي بيدي ودخلنا معًا إلى المنطقة الخطرة ثم مررنا بممر مبلط وأمام مطعم كنا نرتاده أحيانًا، فوجئنا بفلاديمير صديق والدي الحميم ومعه ابنته، بدت صغيرة جدًّا وأنا أنظر إليها من سماواتي فوق كتف والدي.

آه يا والدي العزيز، كُسِرت رقبتي منذ أن تركتني أسقط من سماواتك. لا أذكر الآن اسم ابنة صديق والدي، لا أذكر أي أسماء على الإطلاق. إلا اسم والدي فأنا أحمله على كتفي كما كان يحملني هو دائمًا. جاء من الإسكندرية مهندسًا مرموقًا للمشاركة في بناء السد العالي، وصل إلى القاهرة عام ١٩٦٢ وسقط في بلاص منير من الفخار المصري المعتبر بعمق آلاف من الأعوام،

ولم يستطع أبدًا الخروج منه، فقد اكتشف لأول مرة حضارتنا المصرية بعد أن رفع لأول مرة عينيْه عن كتب الهندسة، ومن هنا كانت بدايتي. من النادر أن تلتقي بمهندس وشاعر، الكثير يدعي أنهما مهنتان متناقضتان ولكن والدي كان الاثنتين معا، وبنصفه المهندس عشق السد العالي، وبنصفه الشاعر عشق مصر. عرفها من شمالها إلى جنوبها، بالتأكيد موضوع جنوبها هذا يدخل في سياق حياته، فهو أحد بناة السد العالي. ولكنه من هناك زحف على بطنه بكل بطء وهدوء إلى كل ركن من أركان أجمل بلاد الأرض كما كان يطلق عليها. وفي زحفه وقعت عيناه على أمي «هالينا» داخل معبد حتشبسوت.

وكان الحب «من أول نظرة» بمباركة «سننموت».

دخلت اليوم كما اعترفت طواعية في عقدي الخامس ولم أعرف أبدًا الحب من أول نظرة.

أكذب عليَّ والداي وهما يحكيان لي حدوتة غرامهما.. أم أن هذا الحلم يمكن أن يحدث للبشر.. أم لأنني لست مكتكتة الشعور كوالدي فبخل عليَّ القدر بمثل هذه الهدية الرائعة؟

كنت دائمًا أنتظر من الدنيا تلك الهدية تحديدًا. ولكنني أقنع نفسي الآن أنه ما زال أمامي الكثير لأحياه وما يخبئه الزمن لي هو بالتأكيد أجمل مما مضى؛ فكلمات ناظم حكمت لا بد أن تهبط من عرشها السماوي على دقائق حياتي مباشرة وإلا سوف يكون لي معه شأن آخر. قلبي الأهوج لم يتخذ عبر مسيرته الخرقاء قرارات صائبة حتى الآن، ولكنه يبدو لي اليوم وهو يملؤني بسطوع غير اعتيادي،

أنه وصل إلى مرحلة من النضج بعد كل النيران التي كادت أن تحرقه بدلا من أن تنضجه. حصل المسكين في طريق صعوده بين أشواك شائكة على بعض الطعنات واللكمات والكثير من البصاق، صحيح أنه مثخن بالجروح بعضها غائر وبعضها سطحي وصحيح أيضًا أنه تصور دائمًا أن الألم والسعادة هما وجهان لحقيقة واحدة، إلا أنه الآن مستعد وفي أفضل ما يكون الاستعداد لتلقي حسنة الحب من أول نظرة و يمكنني حتى قبول الحب من ثالث نظرة.

حتشبسوت ابنة حتحور إلهة الأمومة والطفولة، وإلهة السماء والأرض سقطت صريعة في هوى سننموت ابن أرمنط من أول نظرة، ورفعوا معًا راية الفن حتى فاضت على البشرية، كل منمنمة في حياتهما أضحت أسطورة في حياتنا. حمت حتشبسوت بالقوة الممنوحة لها من أمها حتحور حب والدتي لوالدي. ظهرت لها في المنام وهي نائمة في فراشها في مدينة «لوبلين» ببولندا البعيدة، امرأة غاية في الروعة والبهاء، أنوثة متفجرة، غدير دائم، ترتدي عقدًا من النجوم، نظرت لأمي بعينيها السوداوين المكحلتين، "يا هالينا جوافادسكا يا ابنة مدينة لوبلين أطلب منك الحضور في فناء الدير البحري". كانت أمي في الثامنة عشرة من عمرها، قررت بعد هذا الحلم أن تدرس علم المصريات في جامعة وارسو. اعتبرتها جدتي يادفيجا مجنونة تمامًا. ولكن لأن جدتي تحتضن الكرة الأرضية بيديها وتضعها مساء في عقد جيدها، فقد وافقت في النهاية على سفر ابنتها من لولبين إلى وارسو وحدها لدراسة علم المصريات.

كانت أمي تعلم يقينًا أن مصيرها النهائي هو الحضور إلى مصر.

وكما خططت تم إرسالها في بعثة بولندية أثرية من المعهد التابع لجامعة وارسو إلى الأقصر، وإلى معبد حتشبسوت.

كنت أسألها، ما علاقة بولندا بالبر الغربي بالأقصر؟ فتجيب هي علاقة الشمس بالقمر؛ فهي دورة واحدة ندور كلنا في مسارها. فأسألها: وما حكاية حب حتشبسوت وسننموت من أول نظرة؟ فتجيب لم تعترف لي أي قطعة أثرية بتلك الحقيقة. أغضب منها وأدخل غرفتي. لماذا يقف المؤرخون دائمًا ضد الحب؟ عندما يتعلق الأمر بنظرة ناعسة يرفعون راية العلم العليم ويطلبون الدلائل المادية والبرهان الدامغ، في حين أن هؤلاء المؤرخين يتحفوننا بحقائق لا نهاية لها ولا برهان عليها شريطة ألا تتعلق بأمور العشق. أتساءل: ألم تلعب الجينات الوراثية الفرنسية أثرًا يجعل أمي تهتم قليلًا بقلب حتشبسوت، فعلى الرغم من أن أمي لا تعرف كلمة واحدة فرنسية فإن أباها فرنسي، فيادفيجا كانت في صباها في شقاوة الأرنبة الجبلية وفي جمال الغزالة البرية.

التقى «أوليفيه بجدتي في رحلة نظمها له القدر إلى بولندا، فقبع في مدينتها بلا حراك بعد عشق من أول نظرة، ثم ذاب العشق من شدة البرد وسمع صوتًا بعيدًا يطلب حضوره فسافر إلى أسوان للبحث عن إيزيس في الجزر المحيطة بجزيرة فيلة ولم يعد أبدًا، ترك جدتي قبل أن تولد هالينا نطفة في رحم القدر.

عندما حضرت أمي إلى فناء حتشبسوت طلبت من حتحور أن تمد لها يدها، وتأتي لها بأبيها الذي نادت عليه نداهة مصرية منذ زمن طويل. لكنها لم تجده أبدًا وماتت هي قبل ميلاد هذا العنكبوت

الجبار الذي يحضر بشبكته العجل من داخل رحم السيدة والدته. سألت جدتي يادفيجا التي تعيش معي الآن في باب اللوق، «هل تريدين أن أبحث لك عن جدي؟ ابتسمت في شقاوة وعيناها تطل منهما فتاة في السادسة عشرة: «أنا حتى لا أتذكر ملامح وجهه.. أتركيه يعيش مع إيزيسه، وابحثي لي بالأحرى عن آخر أكثر شبابًا».

✦ ✦ ✦

اتجهت يمينًا ناحية ميدان سليمان باشا، هذا السليمان الفرنساوي أو جوزيف سيف ولد في مدينة ليون بفرنسا، وهي المدينة نفسها التي ولد بها جدي، جاء إلى مصر بتوصية خاصة إلى محمد على الذي عهد له بمهمة تكوين النواة الأولى من الضباط الذين سوف يعاونونه على تدريب الجنود المصريين، وكان مكان التدريب: مدينة أسوان.

الغريب أن جدتي يادفيجا تؤكد لي أن جدي سليل عائلة سليمان باشا فاسمه هو «أوليفيه سيف» وينحدر من البطن نفسه وينتمي إلى العائلة نفسها. ما حكاية أسوان مع أبناء عائلتي؟ في البداية سليمان وبعدها يختفي جدي هناك، ويترك يادفيجا الجميلة في بولندا ثم من بعدهما أبي. الطريف أن سليمان باشا هو جد الملكة نازلي زوجة الملك أحمد فؤاد وأم الملك فاروق. أنا بالتالي قريبة الملك فاروق، وابنة معشوقة حتشبسوت البولندية وأبي هذا السكندري الصلد الذي مات وهو يطمئنني أن حكم الفقراء مؤكد، وإن لم يكن في هذا القرن فسوف يكون في القرون القادمة وأن العدل سوف

يسود، وأننا لمنتصرون. ولكنني وقبل كل ذلك ابنة القاهرة المدينة ذات الألف وجه والألف مئذنة، وقد قبّلت عبر حياتي كلثومها.

مثلي مثل الكثيرين وقعت أذني أسيرة الست أم كلثوم عندما تلعثم فؤادي وفقد القدرة على الخفقان بشكل سليم، كنت قد التحقت بكلية الألسن جامعة عين شمس لدراسة اللغة الألمانية التقيت به في عرض مسرحي بالجامعة. إيهاب يسري، طويل بصورة منفرة بينما لم أرث أنا عملقة والدي، نحيف حتى يتلامس صدره مع ظهره، له أنف عظيم يفوق في ضخامته أنف كمال أحمد عبد الجواد. ينحدر من عائلة فنانين تشكيليين. كان حينها ينهي رسالته للماجستير.

جذبني في البداية صوته. له صوت عميق يخرج من عدة حناجر بينها انسجام ومودة، عندما سمعت صوته لأول مرة بدا لي في طلاوة صوت عبد المطلب، اكتشفنا العالم معًا والتحمنا مع كل عرض فني في القاهرة. مسرح ولمَ لا؟ فنحن كان لا بد أن نلتحق بالفنون المسرحية. معارض تشكيلية، تلك هي معشوقة حبيبي الذي ولد لكي يصبح مثل والده فنانًا تشكيليًا، أفلام سينمائية، يا خسارة معهد السينما، فقد عباقرة أفذاذًا. عروض موسيقية، نحن فرقة موسيقية كاملة أنا بعزفي على البيانو والكمان ويمكنني أن أعلم إيهاب الدق على الدفوف. زاوجنا سيد درويش في «العشرة الطيبة» مع شارل جونود في «فاوست» ومعهم يوجين يونسكو في «الكراسي» وهم يجلسون جميعهم أمام لوحات ساندرو بوتيتشيللي. صنعنا منهم جميعًا عالمًا مصريًا خالصًا برائحة التقلية.

منحني أبوللو فأعطته يوتيربي راعية إلهامي.

سرنا على السحاب وتأملنا المنظر من أعلى، فلم نر شيئا من شدة التلوث. قررنا الهبوط والمشاركة في إزاحة التلوث من قاهرتنا. سرنا في كل المظاهرات وهتفنا لمصر وحملنا أعلامها، وصرخنا معًا لا للاستبداد وسرنا قدمًا في طريق الإصلاح. «التجمع» بجوار المنزل والناصريون يعترضون والوفد لم يعجبنا. ظللنا نبحث عن مكان في أي سيارة متحركة. ولكن كانت محركاتها كلها تعاني من مشكلات ميكانيكية حادة. كان إيهاب على شفا مناقشة رسالته للماجستير وحبه لي كما اعتاد أن يقول لي كان يجعله يرسم ويرسم من دون توقف، على ورق المناديل، في الكشاكيل وعلى يدي وعلى قدمي. أنتج لوحات لا عدد لها وأحب رسم صواميل المحركات وهي معشقة في أجساد عارية، قال لي يومًا إنه لا فكاك من هذا المجنون سلفادور دالي وإنه يود لو يقتله بفرشاة رسم يقوم بغمسها في لون أحمر قانٍ. إنما لا يجد لذلك طريقًا.

كان قلبي يرتجف وأنا أجلس في القاعة التي احتضنت مناقشة رسالة إيهاب، وثلاثة أساتذة يناقشونه بلا رحمة، كان الدكتور مرتضى البارودي المشرف على الرسالة التي استمر إعدادها ثلاث سنوات مرتديًا «الروب» الأسود المهيب، وملامح الصرامة الشديدة تطل من وجهه وصوته يزلزل القاعة ولكن انتهت الليلة على خير بحصول حبيبي على درجة الماجستير. كنت أنا حينها في السنة الثالثة وهو العام الذي انتقلت للحياة خلاله من حجرتي إلى داخل البيانو وتركت حبيبي يعيش في رحاب علم الدكتور مرتضى.

✦ ✦ ✦

اخترقت شارع صبري أبو علم وعرجت على قصر النيل وحاذيت لاباس.

لو راكمنا كل كرات الآيس كريم التي التهمتها هنا مع أبي لصنعت جبلا من الجيلاتي يفوق في ارتفاعه جبل المقطم. فبعد مولدي بأشهر قليلة ترك والدي العمل في السد العالي وقرر أن يستكمل حياته في القاهرة ويترك إسكندريته إلى الأبد.

تم تعيينه في شركة المحاريث والهندسة في مبناها العملاق نصف الدائري بباب اللوق الذي يحتضن الميدان ويطل على الشارعيْن الرئيسيْن شارع البستان وشارع التحرير. كان أبي يعمل هناك من الثامنة صباحا وحتى الثالثة ظهرا، ويقضي معنا بعد الظهيرة وفي المساء كان يلعب الشطرنج في مقهى الحرية بباب اللوق، كان نجمها الأول.

كنت أبكي له بعد الغذاء فيحملني ويضعني على كتفيْه وفي خطوتيْن من خطواته العملاقة نقف أمام «لاباس»، بالضبط في المكان الذي أقف فيه الآن. لم يعد هوالمحل نفسه، فالموجود أمامي أطلال. نظرت إلى الناحية الأخرى وبحثت عن شارلي، كنت دائمًا أجده هناك ينظر لي وأنا ممسكة بالآيس كريم في يدي، أول مرة شاهدته صرخت فرحة: «شارلي شابلن». أسقطت البسكوتة بجيلاتي الفراولة على رأس والدي. فضحك شارلي واقترب مني بحركاته الميكانيكية وبعصاه السوداء وبدلته التي حال لونها الأسود ثم أرسل لي قبلة بفمه الأهتم فتحرك شاربه المربع حتى لامس أنفه.

✦ ✦ ✦

خرجت من منزل الزوجية وعدت إلى منزل والدي وكأن القدر قد أدار كالعادة دفة الزمن بحكمته الأزلية. فقد مرضت جدتي فجأة ولم يعد أحد يهتم بها بعد وفاة ابنها الوحيد الذي يقيم في لوبلين، ذهبت إلى بولندا وأحضرتها لتعيش معي هنا، كانت أول مرة في حياتها تخرج من مدينتها، دك هتلر المدينة ولم تخرج، تغيرت الأحوال من شيوعية إلى بامية إلى رأسمالية إلى انضمام لاتحاد أوربي ولم تتحرك. كانت تنظر إلي في لوعة وكأنها طفلة يتم اختطافها من منزل أهلها.

بمجرد وصولنا قررت أن أذهب بها لمدة أسبوع إلى الفيوم لدى أحد أصدقائنا المقيم بعزبة تونس؛ فهواؤها سوف يكون العلاج الناجع لجدتي، وكما تمنيت تحسنت صحتها جدًا وهي جالسة بلا حراك تستمتع برؤية بحيرة قارون. كانت الفيوم بالنسبة إليَّ هي وطني الثاني بعد أم الدنيا، فهناك كنا نسافر أنا وأبي وأمي بصفة دائمة نلتهم البط وسمك الموسى، ثم عملت أمي لفترة هناك. وبعد أن زغطت جدتي ببطتيْن عظيمتيْن طبختهما لنا أم عبد اللطيف جرت الدماء مرة أخرى ثخينة في عروقها، وحينها اطمأننت عليها وعدنا إلى القاهرة. وعادت جدتي تدب في الشقة بقوتها البولندية المعهودة حتى اشتكى الجيران الذين يقيمون تحتنا من وقع خطواتها.

ولكن كانت صدمة عودتي إلى منزل باب اللوق أن جارتنا التاريخية طنط «آمال» زوجة المرحوم المحاسب وليد صبحي قد توفيت في اليوم نفسه. علاقتي بها بدأت منذ الأزل، فالباب أمام الباب والدور في عمارتنا شقتان، «ممكن طماطماية يا طنط؟» «ممكن ٦ كبايات علشان عندنا ضيوف؟» ظللت أبكي كالمجنونة.

تاريخي الذي يمضي بلا عودة وأنا ألاحقه ولا ألحقه، بكيت والدي ووالدتي، وبكيت وأنا أتذكرها وهي تصرخ ملتاعة لحظة خروج جثمان والدي العملاق من باب الشقة. تركتني وحيدة في الدور الثالث.

جاء في اليوم التالي ابنها الوحيد «أيمن» من الولايات المتحدة وهو في حالة ذهول، احتضنته فبكى على كتفي كالطفل، كنت دائما المسئولة عن الإشراف على نومه عندما كان والداه يسهران خارج المنزل. عاد مرة أخرى طفلًا وهو يودع أمه الوداع الأخير. قبل عودته إلى الولايات المتحدة أعطاني أرقامه وعنوانه وطلب مني زيارته في نيو جيرسي، حكى لي عن تحسن أوضاعه وأن مطعمه علاء الدين يسير بخطى لا بأس بها وحكى لي عن حظه التعس في زيجته. ووعدته أن أحاول وأنا أعرف باليقين أنني لن أسافر إلى الولايات المتحدة.

بعد طلاقي من زوجي، استقبلني منزل العائلة وهو في حال تأنف الفئران من السكن فيه؛ فمنذ زواجي ثم وفاة والدتي لم يدخل الشقة إلا العناكب وجحافل من نمل وصراصير لم تهتم للأسف بتنظيف الشقة من أطنان التراب التي تكاثفت كالسحب فوق كل شيء. وجدت البيانو القديم ينتظرني في المكان نفسه، نظر لي نظرته التي أعرفها جيدًا عندما أبتعد عنه لفترة طويلة، ولكنني كنت في تلك المرة قد زودتها حبتين، بدأت من فوري - وقبل أن أمد يدي في أي شيء آخر في المنزل - أحيطه بكل حناني، اهتممت بكل تفاصيله التي كنت أحفظها عن ظهر قلب حتى بات شابًا في مقتبل العمر

وكأن دورة الزمن قد عادت بتروسها الصماء إلى الخلف. يكلمني هذا البيانو البوسيندورفر ويبث لي أشواقه وأحزانه.

✦ ✦ ✦

عام ١٨٢٨ توفى الموسيقار «فرانز شوبرت» في فيينا، حضر الجنازة المهيبة «إيجناز بوسيندورفر»، خرج من الجنازة محزون الفؤاد وحيدًا، ولمغالبة حالة غمه قرر أن يصنع شيئًا للموسيقى التي يعشقها، بدأ في اليوم التالي في استصدار التراخيص اللازمة لتصنيع البيانو، وبدأ من حيث انتهى أستاذه في هذا المجال «برودمان».

كان «فرانز ليست» معجزة العزف على البيانو يبحث عن بيانو يستطيع تحمل ألاعيبه الجديدة في فن العزف، حتى التقى يومًا ببيانو بوسيندورفر وكان لقاء مدويًا في المسرح الإمبراطوري النمساوي.

ويحكى أن هذا البيانو لم يتحمل برد النمسا، تفكر مليًا ماذا هو فاعل؟ ركب سفينة إلى الإسكندرية والتقى هناك بعائلة من العمالقة عدد أبنائها قد تعدى عشرة أبناء، لم ترحم أيادي هؤلاء الفراعين أصابعه الإيفوارية التي جاءت من جنوب دولة كينيا. فبحث في كل مكان عن مخرج لعذابه، حتى وجد هالينا تنظر إليه بإعجاب قبل أن يأتي إلينا بحضوره الإمبراطوري العظيم.

منذ مثولي في حضرته لم يسمح لي أبدًا بأن يمر يوم واحد دون أن أداعب أوتاره، حتى في الأيام التي أعطي فيها أكثر من درس بيانو لتلاميذي يهزأ بي، ويطالبني بالجلوس إليه لمحاورته. تجلس إلى

جانبي هالينا أو كما أسموها الجيران «حليمة» وتبدأ في إعطائي أول درس لي في الأسبوع الأول لتشريفه منزلنا المتواضع. صوت أمي حليمة وهي تعطيني أوامرها التي لا مزاح فيها تطن في أذني. أمي ملاك ضاحك إلا فيما يتعلق بحتشبسوت وبالموسيقى فكلتاهما بنات حتحور المقدسة. وأمامنا وضعت أمي فوق البيانو الإلهة «باستيت» المعروفة أيضًا بإلهة الموسيقى والرقص. لم أعرف أبدًا أهذه الإلهة التي لازمت وجهي طوال حياتي تدعى باستيت أم باست، فوالدتي كانت تطلق عليها باست وهي سعيدة بأدائي الموسيقي أما لو انحرف المزاج فكانت تطلق عليها باستيت. لم أسألها أبدًا عن سبب تسميتها باسمين مختلفين، كنت دائمًا ما أقول: سوف أسألها يومًا عن أصل اسمها. ولكنها ماتت قبل ذلك اليوم. أما أبي فكان يجلس عادة خلفنا على مقعده الوثير القريب جدًّا من الأرض ولكن بظهر عالٍ جدًّا وهو يستمع إلى محاولاتي الأولى المتعثرة.

✧ ✧ ✧

تمنيت أن تدوم الدراسة في الجامعة للأبد ولكنها انتهت عندما سهوت وأغلقت عيني لثانية. عندما فتحتها ثانية كانت السنوات قد مرت كلمع البرق. حصلت على شهادة التخرج بيدي اليمنى، وقبضت في يدي اليسرى على خطاب رقيق من إيهاب مرفق به استمارة ٦.

عشت مع إيهاب حلم الغد باتساع الأفق، وآمنت بأنني سوف أعيش هذا الحلم ولو مد الزمن في نومي لقرون قادمة. كان فراقه

كفراق الروح للبدن. تقابلنا ووقف كل منا خلف حائط شفاف لم يستطع صوته الجسور أن يحطمه. كان قد حجز تذكرته إلى كندا بعد حصوله على منحة لنيل درجة الدكتوراه من جامعة ماكجيل في مدينة مونتريال. وقبل أن يرحل مد وجهه عبر الحائط فعبرت أنفه العظيمة الجدار وقال لي من طبقة صوتية جديدة لم أكن قد سمعتها من قبل إنه لن يعود مرة أخرى.

✦ ✦ ✦

أكملت طريقي في شارع قصر النيل ومررت بجانب شارع البورصة الذي بلطوه مع الشوارع الجانبية المؤدية إلى شارع شريف خلف البنك الأهلي حتى تكون منطقة للمشاة، ثم تحولت بسرعة وكالعادة إلى مقاهٍ وتم فرش الكراسي في كل مكان حتى أصبح من المتعذر أن تسير بهدوء ولكن عليك أن تجلس وتطلب وتدفع. لم ألتفت في البداية إلى النادل الذي ظل ينادي ويمسك المقعد ويرفعه إليّ وهو ينظر لي نظرة إعجاب، لم يكن قد تخطى العشرين من العمر، نحيف كالمسمار وتطل من وجهه حالة أنيميا حادة، اقتربت منه وأعطيته جنيها وطلبت منه أن يشتري به عصير برتقال لنفسه وأكملت مسيري. وصلت إلى تقاطع شارعي قصر النيل وشريف، وقفت أمام محل أحذية ومرت عيني بسرعة على عدد هائل من الأحذية المختلفة الأشكال والأذواق.

مددت يدي وأمسكت يد أمي التي ربتت على شعري برقة حتى أغمضت عيني من فرط السعادة. كانت واجهة المكتبة مملوءة بعشرات الكتب، تعلقت عيني بكتاب ضخم أزرق اللون على

غلافه عدد لا نهائي من علامات الاستفهام كل علامة بحجم ولون مختلف. دخلنا واشترت أمي الكتاب، رافقني هذا الكتاب طوال حياتي وهو الآن منتصب بكل فخر في مكتبة ابنتي:

يجب أن تعديني أنك سوف تقرئين هذا الكتاب، فالكتب تحزن وتموت عندما لا يقرؤها أحد، وتعيش للأبد لو قرأها الناس.

وعدتها أن أقرأ هذا الكتاب وكل الكتب في منزلنا، أتذكر جيدًا وجه المرأة التي باعت لنا هذا الكتاب بالذات، امرأة في الأربعين من العمر ذات عينيْن لوزيتيْن تضحكان بصفة متصلة خلف نظارة طبية مستطيلة حتى تكاد أن يخرج إطارها من وجنتيْها، كانت ترتدي فستانًا أزرق بخطوط رمادية يشبه مريلة مدرستي. وقبل أن نخرج أعطتني كتيبًا صغيرًا كهدية وقالت لي أن أكتب على صفحاتها الوردية يومياتي.

يجب أن أبحث اليوم عندما أعود إلى المنزل عن مذكراتي، كتبت في هذا الكتيب عن أول قصة حب لي وأنا في الثالثة الابتدائية في إحدى صفحاتها الوردية، اختفى حبيبي الأول ماجد واختفت المكتبة، أغلقت في السبعينيات وظهر لنا الحذاء بديلًا أكثر رقيًا وتحضرًا من الكتاب، بكت أمي كثيرًا بعد اكتشافها تحويل المكتبة إلى محل لبيع المنتجات الجلدية، عادت يومها إلى منزلنا وهي تحمل حزنًا وكمدًا ظل يرافقها لفترة طويلة بدلًا من أن تحمل لنا كتابًا جديدًا.

بعد أن رحل إيهاب إلى كندا بأسبوع نهضت بصعوبة من فراشي، ووقفت تحت سيل منهمر من الماء وبدأت أفكر لأول مرة بجدية

في مستقبلي، أهملته تمامًا هذا المستقبل بينما كانت روحي مشغولة بالأحلام. فكرت وأنا رافعة وجهي ومغمضة عيني تحت الثقوب الصغيرة التي تقذف المياه بعنف داخل جفوني أن أعمل في مكتبة لبيع الكتب. أنا أعشق رائحة التراب الذي يعشش بين أوراقها.

ولكن وجدتني فجأة أعمل في جمعية اجتماعية لتنمية المرأة. وفي غضون أسابيع صرخت يوريكا هذا هو ما أريد أن أفعله في حياتي. كان المشروع الذي عملت به داخل النشاطات المتنوعة للجمعية هو استخراج بطاقات شخصية للسيدات. فبدون بطاقة هوية لا تستطيع المرأة ممارسة أبسط حقوقها، وأهم تلك الحقوق هو الطلاق من زوج اختفى أو هاجر أو تبخر منذ سنوات طويلة، أو الاقتراض من جمعيتنا أيضا ضمن نشاط مشروع آخر لمنح قروض بمبالغ صغيرة لتبدأ النساء نشاطا تجاريا يعينها على الحياة. كنا نعمل في مناطق جغرافية محددة في مدن محددة، وكنت أنا أعمل في حي منشية ناصر بالقاهرة، وكان الطريق طويلًا وبدا لنا بلا نهاية، حيث إننا كثيرا ما كان يجب أن نبدأ من البداية، فمئات ومئات من النساء كن لا يمتلكن حتى شهادة ميلاد. تعرفت على زوجات ومطلقات ومحترفات دعارة وأطفال شوارع فعرفت عن نفسي أكثر.

✦ ✦ ✦

قبل أن أصل إلى شارع جواد حسني، وقفت أمام محل البسبوسة في شارع قصر النيل. نظرت إلى صواني البسبوسة المرصوصة أمامي وبدأت المرارة في حلقي تنادي بأعلى صوتها مطالبة بملعقة من هذه البسبوسة وهمست لي: «ولا تنسي القشطة». سبقتني

عيني إلى الداخل، والتهمت في طريقها صوابع زينب وبلح الشام والكنافة بالكريمة وعيش السرايا بالمكسرات، وبدأ جوفي يصرخ في التياع. طلبت بسبوسة سادة وقررت أن أقضم برموشي ما لا أستطيع أن أهرسه بأسناني. كان البائع في الستين من العمر ذا صلعة فاخرة ووجه في بشاشة الكنافة، وجه مثلث كسيناء ودقة حسنه رأس محمد، ناولني الطبق ففتحت مرارة الأحوال فمها لالتهام المحل ببائعه.

في فرح «فرح» زميلة فصلي التقيت الرجل الذي أصبح زوجي، جاءني من عالم المال والأعمال، يعمل في بنك فيصل الإسلامي، متحفظ، هادئ، قليل الكلام. كالصيادين رمى شباك الصياد. لم أسعَ أنا إلى الخروج من شبكته.

كنا خطيْن متوازييْن يلتقيان ضد قواعد علوم الرياضيات والمنطق.

كان أسرع زواج في القرن العشرين، في غضون شهرين من اللقاء الأول كنا في عش الزوجية، كان يكبرني بنحو عشرة أعوام، عندما التقيت به كان الزواج بالنسبة إليه مطلبًا فوريًا. لا أنسى أنه في أول لقاء لنا تحدث معي عن الخطوبة، قال لي إنه لا ينقصه شيء ثم أضاف بفخر: إن شقة الزوجية لا ينقصها هي الأخرى شيء على الإطلاق، فحتى أطباق السمك موجودة في الدرج المخصص لها.

كنت أتمنى أن يحاول تقبيلي مرة واحدة قبل الزواج لكي أشم رائحته وأطمئن، ولكنه لم يفكر إلا في الترتيبات العملية. لا ألومه أبدًا فقد كان دائمًا نفسه، وهذا أمر أراه بعد كل هذه السنوات على

قدر كبير من الأهمية، ولكنني لم أكن أبدًا نفسي وأنا معه وهذه خطيئة لا يمكنني أن أغفرها لنفسي. بذلت جهدًا كي أرى العالم من عينيه ولم أبذل الجهد نفسه لكي يراها هو ولو لمرة واحدة من عيني. على مدى زواجنا لم نذهب أبدًا إلى عرض مسرحي، لم نمر أمام دار الأوبرا. كنت أحب أن نجلس مساء في المنزل نتجاذب أطراف الصمت ونستنشق بعض الزمن الذي يجمعنا معًا، ولكنه يأبى إلا أن نكون وسط قوافل من الرحل تدق أبواب مطاعم مجهولة في الليالي الباردة. لم نقف معًا لوهلة فالجري كان القدر الذي فرضه علينا. كانت الدنيا تتزلزل من حولنا ولا يهتم هو إلا باختلاف أسعار العملات. اقترحت يومًا الذهاب إلى معرض تشكيلي فذهبنا إلى ملهى ليلي، كنت أحلم بمشاركته أحلامي لوطني، ولكن كانت الحروف تتكسر في جوف الفراغ قبل أن تصل إلى أذنيه. عشت الحياة التي يرغبها وتاهت بوصلتي حتى إنني لم أعد أتذكر ما أحب.

كنت حين التقيته في فرح «فرح» في حقبة من أزهى فترات حياتي، أتذكر أنني كنت في حالة من النشوة الدائمة بسبب حالة الإنجاز التي كنت أعيشها، فما كنا نقوم به جميعًا في الجمعية لمئات من هؤلاء النساء في منشية ناصر، كان يشعرني أنني أقوم بعمل وطني جليل. كنت قبل أن أضع رأسي على وسادتي أبتسم راضية عن نفسي وامتلأ زهوًا وأنا أقول إن مشروع الألف ميل يبدأ بخطوة.

كنت أتعلم كل يوم دروسًا جديدة. فهؤلاء النسوة يحملن في جعبتهن آلامًا وأمراضًا وآفات جهل وذكاء ربانيًا متوقدًا وجدعنة،

وبأسًا وإصرارًا على الحياة وقدرة لا نهائية على الابتسام، مدرسة حقيقية منحتني ثروة أستطيع أن أنفق منها على البشرية حتى يوم الدين ولا تنضب.

هذا هو تبريري اليوم لحالة البله التي تعاملت بها مع زواجي، تبريري الذي يبدو لي أحيانًا بلا معنى عن قبولي هذا العالم الغريب تمامًا عني، بل سعادتي حينها للانضمام إليه. كنا في فترة الخطوبة نخرج يوميًا، بلا يوم واحد راحة. تصورت أنه يحتفل معي بتعرفنا، ولكنني اكتشفت بعد ذلك أنه لا يستطيع الحياة إلا بالخروج يوميًا، كنت أرى أصدقاءه أكثر مما أرى نفسي، في هذه الفترة كان صديقه الصدوق وزميل عمله هو طلعت ذهني، أحببت كثيرًا زوجته «هند» التي كنت أخرج معها بالتالي يوميًا، وكان زميل دراسته نبيل شاروبيم يخرج معنا أحيانًا وحده؛ فزوجته نيفين كانت يوميًا تعمل في عيادتها.

✧ ✧ ✧

وصلت إلى ميدان مصطفى كامل. نظر لي بعظمة فرددت عليه قائلة: «لو لم أكن أعيش في القاهرة، لوددت أن أعيش في القاهرة». فابتسم لي فرحًا بفصاحتي وقال لي مقولته الشهيرة: «إن الأمة التي لا تأكل مما تزرع وتلبس مما تصنع، أمة محكوم عليها بالتبعية والفناء». نظرت إليه في سترته الأنيقة وكل الأبهة التي تحيط باسمه وتاريخه وتساءلت: هل من الممكن أن تتخيل أن هذا الرجل مات وهو في الرابعة والثلاثين من العمر؟

الميدان كما هو منذ أن وعيت على الدنيا ما عدا اختلافات طفيفة في أسماء بعض المحال. كنت آتي هنا مع أمي لمتابعة صالة المزادات.

ألا أونا ألا دو ألا تري..

مبروك يا حليمة هانم، فازا سيفر أصلي بـ ٢٨ جنيهًا.

اشترينا من مزاد هذا الميدان العديد من الأشياء الحميمة في منزلنا. كان الأستاذ موريس هو الرجل المهيمن على المزاد يرتدي دائمًا حلة سوداء وربطة عنق حمراء، كان يتصل بأمي تليفونيًا كي تأتي قبل المزاد لتحديد ما تنتوي شراءه أو شراءه بالسعر المحدد مسبقًا، وهذا الأمر لم يحدث إلا في حالة الإله باست التي اشترته أمي قبل بدء المزاد.

وفي هذا الميدان أيضًا حجزنا لدى شركة تركية للملاحة البحرية تذاكر سفرنا إلى ميناء نوفوروسيك. بدأت الرحلة من الإسكندرية إلى أثينا فإسطنبول ثم نوفوروسيك ومن هناك قطار إلى فولجاجراد. أخذنا هناك ابن عم والدتي بالأحضان، ثم إلى سمارا حيث كان يقيم. أحببت هناك ابنه. لم أره منذ ذلك التاريخ البعيد إلا أنني أذكر ملامحه جيدًا. رحلة لا تنسى على سفينة كارا دينيس، وهي تعني البحر الأسود كما علمت من البحارة الأتراك، كنت مقيمة طوال تلك الرحلة في حمام السباحة وهو حمام صغير من الحديد وله غطاء حديدي بمزلاج ضخم من كل ناحية.

سيطرت في أثناء الرحلة على منامي كوابيس لم تذهب عن ذاكرتي أبدًا:

أسبح داخل حمام السباحة، وفجأة أجدني وحدي داخل الحمام. وحينها يبدأ البحارة في إغلاق الحمام بغطائه الحديدي، تسود الظلمة وأنا أسمع صوت المزلاج وهم يحكمون إغلاقه، صوت صرير التحام الحديد بالحديد. ترتفع المياه تدريجيًا. أحاول التنفس حتى تلامس المياه السقف الحديدي. أصرخ ولا من مجيب.

✦ ✦ ✦

طلقني زوجي بعد أن ماتت علاقتنا بهدوء. ظللت أتابع موتها البطيء على مدى سنوات وأنا عاجزة عن إنقاذها فلم أكن قد درست الطب قبل ذلك، ودراستي للغة الألمانية وعملي في مجال تنمية المجتمع لم تسعفني داخل غرفة الإنعاش وأنا أرى زواجنا ممددًا على فراش أبيض يلفظ أنفاسه الأخيرة. ظل الهواء يخرج من المنزل دون صوت ودون إزعاج، كل يوم قبضة ريح من الأكسجين لطفل مسالم تتسرب من نافذة صغيرة غير مرئية، حتى استيقظنا يومًا ولم نجد أي هواء نتنفسه

بعد أن جاءت نادية إلى الدنيا توقفت عن العمل الاجتماعي، ولكنني بدأت واحدة من أهم الخطوات في حياتي، بدأت أكتب يومياتي، تسجيل كل خلجة، كل لمحة، كل شبح ابتسامة يلوح على شفتي نادية. سيطرت ابنتي تمامًا على حواسي ومن حركة أرنبة أنف ابنتي انفتحت نافذة الدنيا عبر أحرفي المسطورة، تأملت العالم بأعين جديدة وشاهدت كرم الدنيا وتقتيرها حتى فاضت صفحاتي

الصفراء. ظللت أكتب يوميًا حتى أصبحت مدمنة طقس عشقي مع القلم.

على الرغم من أنني كنت أعد أيام زواجي الأخيرة، وأترقب الضربة القاضية على زمني معه فإن ذلك لم يمنع أن تكون لحظة النهاية بطعم العلقم، كان حوارًا هادئًا عبر الهاتف، غريب أن نعلن لأول مرة صراحة حتمية الانفصال عبر الخطوط السلكية، هل كانت المواجهة بهذه الصعوبة بين اثْنَيْن تشاركا الفراش نفسه لمدة تزيد عن العقد من الزمان؟

عندما أغلقت الهاتف بدأ تنميل طفيف يزحف ببطء من أنامل أصبعي التي ضغطت على الزر الأحمر الدائري إلى يدي اليمنى. ومن معصمي بدأ الزحف نحو ذراعي ببطء حتى وصل إلى كتفي، وجنتي، جبهتي، عيني، ظلام خفيف، سحابة سوداء تكاثفت ففرشت بملاءتها ظلام كوني، حاولت أن أفتح عيني فوجدتهما مفتوحتين، استعذبت الحلكة واستسلمت، وعندما بدأ يضغط على صدري، انتشر التنميل بسرعة الضوء في جسدي كله، تحجرت الدماء في عروقي واختفى شعوري بأطرافي بعد أن كانت تؤلمني من ضغط أنامل النمل على دقائق أعصابي، حينها بذلت رئتي جهدًا في إيجاد غذائها، وضعت يدي تحت مؤخرتي آملة أن أشعر بها ولكنها كانت وكأن جراحًا عبقريًا قد استأصلها من جسدي. خرجت للبحث عن شكل السماء وفي يدي أحد دفاتر يومياتي. احتضنتني بكل عشق ومحبة سيارة فارهة، وقعت في غرامي من أول نظرة انتقلت بعدها إلى المستشفى، وهناك حلمت لأول مرة بإيهاب في منفاه الثلجي وخفق جسدي برعشة حسية.

أنقذتني على الأغلب الدماء التترية التي تتهادى في عروقي من أم جدتي التترية معلنة في بعض الأحيان أنني ابنة إمبراطورية الجحفل الذهبي، فلم يجد الطبيب الذي فحصني أي كسور أو شروخ، بضعة كدمات ليس أكثر. لم تؤثر في مشيي الآن في اتجاهي إلى شارع عبد الخالق ثروت، ولكن لم تسعفني دمائي في حزني الأبدي على دفتر يومياتي الذي رحل عني، وكأن الدنيا استقطعت من عمري سنوات. ففي لحظة ارتطام مقدمة السيارة بمؤخرة جسدي، طرت في الهواء وقفزت يومياتي من يدي، وسقطت في البلاعة نفسها التي سقط فيها ريال فيروز وأنور وجدي. قررت أخيرًا الجلوس في جروبي عدلي وقررت الاتصال بابنتي كي تأتي إلى هناك.

وتحت لافتة «اتكلم براحتك» رفض الشاب أن أقوم أنا بالاتصال فأمليته الرقم وقام هو بعملية الاتصال:

ـ أنا رايحة جروبي عدلي اللي في وسط البلد، ظروفك إيه؟

ـ انتي يا مامي عيد ميلادك النهاردة المفروض أكون معاكي من الصبح، كلمتك في البيت وسبت لك رسالة، حأجيلك حالا حالا.

كان الباب الزجاجي العملاق لجروبي عدلي مشغولًا بخطوط سوداء رائعة، ويتوسطه مزلاج خشبي دائري دفعه أبي ومرقنا أنا وأمي معًا ثم لحقنا أبي، كانت تلك بوابة شارع عبد الخالق ثروت، حيث البقالة ومحل الحلواني، شعرت ببعض البرودة من تكييف القاعة، يموج المكان بحركة دائبة، يقف عدد كبير من الزبائن أمام ثلاجة بيع الشيكولاتة، وعدد أكبر يقف لشراء الجاتوه والتورتات في الناحية المقابلة، الجارسونات في كل مكان بملابسهم المميزة

الزرقاء ذات الأزرار المعدنية اللامعة، ضيقة من الصدر وتنسدل كالتنورة من أسفل، ملابس تشبه قليلًا ما يلبسه الدراويش في أثناء دورانهم اللانهائي حول مركز الكون. توجهت أمي إلى ناحية البقالة لشراء جبن قشقافان الذي نعشقه جميعًا وتوجهت أنا وأبي إلى الناحية المقابلة حيث الحديقة. الشمس ساطعة كالعادة، منحتني أشعتها بعض الدفء الذي كنت أحتاجه بعد برودة التكييف. لم نجد مكانًا فكل المقاعد كانت مشغولة، اقترب منا بسرعة عم صالح، الجرسون النوبي الذي كان يحبني كثيرًا. وقال لوالدي إن أمين بك يدفع الحساب ودقائق قليلة وسوف نجلس، وبسرعة وضع عم صالح في يدي قطعة صغيرة من بونبون النعناع الذي يعرف كم أحبه، نظرت بسرعة إلى أبي للتأكد أنه لم يلاحظ. ووقفت أنظر إلى أمين بك. رجل في السبعين أكثر أناقة من مصطفى كامل باشا بسترته الرمادية، وفي جيب الصديري الداخلي تظهر السلسلة الذهبية لساعته.

✦ ✦ ✦

شعرت عندما خطوت داخل الجمعية لأول مرة بعد أعوام طويلة من الغياب بغصة في حلقي. بدأت حياتي في هذه الجمعية بعد أشهر قليلة من إشهارها. خطونا معًا طريقنا للخروج من رحم العدم. تشكلنا معا وحفرت الأيام التي قضيناها ملامحنا معًا فأصبحت أشبهها، ثم تركتها. وها هي الآن مفعمة بحيوية الشباب وأنا على العكس آثار الطلاق ما زالت أظافرها محفورة على جسدي. المقر جديد لم أعهده من قبل، واجهتني لافتات كبيرة عليها صور لنساء

لا أعرفها، شابة في العشرين من العمر تطل على من اللافتة بعينيْها الواسعتيْن وهي ترتدي جلابية سوداء وطرحة سوداء وفوق رأسها مكتوب «الوجود القانوني للنساء»، سكرتيرة لا أعرفها أيضا سألتني وكأنني غريبة عن المكان عما أريد. أجبتها باسمي فرحبت بي وأدخلتني إلى رئيسة الجمعية. بدأت العمل في اليوم التالي وعادت لي حياتي مرة أخرى. كان المكان خلية نحل من الشباب، الكثير منهم من المحامين الشباب، ولكنني تعلقت كثيرًا باثنين هويدا سعد وأحمد عز الدين. وبدأت مع هؤلاء الشباب أرى الدنيا بأعين جديدة.

خرجنا أول أمس مجموعة كبيرة وقمنا باحتلال مقهى في شارع متفرع من شارع شريف بمنطقة وسط البلد، جلست بجانب أحمد عز الدين، فتح لي قلبه وحكى لي عن حبه الوحيد الأزلي الأبدي هاجر، وبالحوار اكتشفت حقيقة مذهلة أن هذه الفتاة نفسها كانت متزوجة من جاري التاريخي أيمن صبحي. سألته:

إنت مش سعيد معانا هنا في الجمعية وانت بتمنح بالقانون فرص حياة أفضل للستات دول؟

سعيد جدًا.

وليه وانت سعيد جدًا ومبتسم لي ابتسامتك الجميلة دي مصمم على الرحيل؟ أنا سمعت إنك خلاص طالع أمريكا!

أيوة مسافر لهاجر، حنتجوز هناك.

إنت مش شايف إنك بتزرع هنا في أرضك ولو سافرت لأمريكا زي ما بتخطط حتفضل هناك غريب للأبد؟

مش شايف في البلد أي أمل في مستقبل، هناك حنزرع عيال عندها أمل تتعلم وتعيش كويس، هنا اللي باكسبه مش ممكن يعيشني، ما انتي عارفة البير وغطاه، اطلبي من صديقتك تدينا مرتبات تعيشنا.

مشكلتك مشكلة فلوس؟

إيه عيب تبقى مشكلتي مادية؟ أيوة يا ستي المشكلة بالأساس مادية. مش بس فلوس، إنما كل الأسس المادية، ما بقتش متوفرة في البلد دي.

✧ ✧ ✧

أعيش اليوم بفضل أبي، فقد علمني أن أغمض عيني عن كل ما هو غير ضروري في الحياة، بعد طلاقي رفضت الحصول على مليم واحد من زوجي. حاولنا معًا ولم ننجح، لم أقتنع أن أحصل منه على معاش، كان من اللطف أن عرض: «إنها خمسة عشر عامًا من الزواج. أنت قطعة من حياتي ولا بد أن أرعاها»، لم أنكر أبدًا عرضه السخي وأنا أعرف طلاقات كثيرة انتهت بمعارك طاحنة تليق بفيلم «حرب الروز». دروس البيانو ومرتبي الهزيل من الجمعية كافيان لإعاشتي. ولكنني يجب لكي أظل على قيد الحياة أن أرفض عروض الاستهلاك التي تدك الرؤوس. رفضت امتلاك تليفون محمول؛ فجهاز الرد الآلي الذي اشترته والدتي منذ عشر سنوات يعمل بكفاءة، ومن يرد ترك رسالة فليسجلها على حسابه.

رفضت الانصياع لكل الإعلانات التي تغازل بأكثر الطرق جنسية وإباحية فم الغول الذي بداخل كل واحد فينا، لا أملك سيارة ولا طيارةولا موتوسيكل ولا حتى عجلة؛ فالموتورجل هو أفضل الوسائل للوصول إلى بر الأمان. والإسكافي بجانب منزلي يرتق حذائي ويعود شبشبي لي دائمًا أفضل مما كان. أعزف في كل صباح ومساء «شد الحزام على وسطك غيره ما يفيدك».

قال لي يومًا صديقي عادل وهو رجل أعمال ناجح إن شد الحزام هو الحل الوحيد لنهضة مصرنا؛ ففي شركته يهمه تقليص مصروفاته بقدر اهتمامه بزيادة مبيعاته، ولكن للأسف سارت بلدنا في الاتجاه المعاكس وفكت الحزام حتى آخر ثقب فيه حتى ترهلنا وبركنا دون حركة. عندما طبقت على نفسي ما طلبه مني الشيخ سيد وجدت أنني امتلكت أعز شيء يمكن للإنسان امتلاكه ألا وهي حريتي. بعض الخس والخيار وعلبة سلامون والكثير من باخ وبرامز والأشيا معدن.

✧ ✧ ✧

هزني ما سمعته من أحمد عز الدين وما أسمعه من جميع أبناء جيله من العاملين في الجمعية، أتأكد كل يوم أننا من عالميْن مختلفيْن، بدأ أول اقتراب لي مع هذا العالم الجديد بميلاد ابنتي نادية عام ١٩٩٣.

عندما التحقت نادية بالمدرسة وهي في الخامسة من العمر بدأت أنا رحلة جديدة في حياتي بغوصي داخل تفاصيل فصل ابنتي. وغريب ما شاهدت وما عاينت، عالم جديد وكأنني ما عشت في هذه القاهرة منذ ولدت وحتى الآن.

فعلى مدار تاريخي المدرسي لم يهاجر من مصر أي من زملاء فصلي، ولم يلتحق بفصلي أي زميل قادم من حالة هجرة مؤقتة، الحالات الوحيدة التي اعتبرناها حالة هجرة هي وجود تلميذة في فصلي جاءت إلى القاهرة بعد تهجيرها من بورسعيد، وحواراتي معها حول الحرب الممزوجة بأصوات القنابل ما زالت تطن في أذني. أما علاقتي الوحيدة بزميلة فصل تركتنا وسافرت إلى الخارج فهي نهى وكان لها في سفرها مبرر قوي؛ فوالدها يعمل في وزارة الخارجية، وقد سافرت مع والديْها ونحن في المرحلة الابتدائية إلى زائير، وكانت على ما أتذكر حالة السفر الوحيدة التي عاصرها فصلي.

أما على مدار التاريخ المدرسي لابنتي، وفي فصلها المدرسي الذي لم يتعد عدد التلاميذ فيه خمسة وعشرين تلميذًا، هاجر أو عاد من هجرة مؤقتة عشرون زميل فصل لها، أتصور أن هذا الرقم يحتاج إلى مؤثر صوتي، ولكن للأسف لم يخترعوا بعد كيفية أن تصدر الورقة مؤثرًا صوتيًا عند التقاء عينيْك بالكلمة المقصودة، سافرت ليلى وهي أعز صديقة لابنتي مع عائلتها في هجرة مؤقتة إلى الكويت بعد أن حصل والدها على فرصة عمل هناك، هاجر سيف زميلها في الفصل إلى الولايات المتحدة مع أهله، هاجر محمد مع أهله إلى كندا، هاجر والد مهند إلى الولايات المتحدة وسوف يلحقه ابنه في العام المقبل، هاجرت جيرمين جارتنا وزميلة ابنتي منذ الحضانة إلى كندا مع والديْها، هاجرت شيرين إلى الكويت في سن الرابعة وعادت في سن الثانية عشرة هي وأمها بسبب مشكلة قانونية خاصة بشقتهم في القاهرة، وتركوا الأب والأخت في الكويت، وعندما تم حل مشكلة الشقة كانت الدراسة قد بدأت، فقرروا أن تدرس هي هذا العام في القاهرة، وانضمت إلى فصل ابنتي واضطرت خلال

العام أن تسافر إلى الكويت لتجديد الإقامة وزيارة والدها وأختها. شريف ومحمد وحسين وميرنا حصلوا على الجنسية الكندية مع عائلاتهم ويستعدون للرحيل، عادت سلوى من الولايات المتحدة بشكل مؤقت بعد أن قضت كل حياتها هناك والتحقت بفصل ابنتي وسوف تعود إلى الولايات المتحدة من فور انتهائها من الدراسة الثانوية. يعيش أحمد في الإمارات مع أهله، ويعود في الصيف للحصول على مواد صيفية والتحق مع ابنتي في الصف الدراسي الصيفي نفسه، ويستعد للالتحاق بالجامعة في «أبو ظبي».

أما بالنسبة إلى زملائها في مراكز تدريس الأى جي وهي الثانوية البريطانية الدولية فتؤكد لي ابنتي أن ربع التلاميذ في الفصول يعيش أهلهم في الخارج.

وفي تقديرها أنها تعد هي واثنان فقط الذين لا يخططون للهجرة بعد تخرجهم في الجامعة، أما ما عدا ذلك فجميع زملائها فى المدرسة بلا استثناء، يأملون، ويخططون للهجرة إلى الخارج.

✦ ✦ ✦

كنت أمتص رحيق البونبوني الذي أعطاه لي عم صالح من وراء ظهر أبي عندما حطت يد حانية على كتفي من الخلف، وجدت ابنتي نادية تحضنني بشوق. وتصرخ: «كل سنة وانتي طيبة يا أحلى أم في الدنيا». دمعت عيناي من الفرحة وأنا أراها آنسة رائعة، لم تأخذ مني أي شيء؛ فهي قطعة من أبي بهذه السمرة الرائعة وشعرها المكتكت الجميل.

ناديت على عم صالح الذي عاند وجهه الزمن فلم يأخذ منه حدة تضاريسه البديعة، تبادلنا بعض الذكريات، وبعد تلعثم سألني

أن أبحث لابن أخيه السائق عن وظيفة، فأعطيته عنوان الجمعية وطلبت منه أن يزورنا منير في صباح الغد في مقر الجمعية، ثم ذهب ليحضر لنا عصير الليمون المعتبر.

كانت عينا ابنتي تبرقان بوميض غريب، وظلت تتحدث بسرعة فائقة وبحماسة بالغة ثم اعترفت لي أنها تحب، «حسين» مثل فلقة القمر.

تغير صوتها واختلف لون عينيْها، تحولت في لحظة من الطفلة التي أعرفها إلى امرأة ذوَّب حنان جرس صوتها حدة نظرتها المعتادة.

ـ حبيته أول ما شفته، كنت معزومة على العشاء من ثلاثة أيام عند ليلى، شفنا بعض وزي المغناطيس لقينا نفسنا بنقرب بنقرب، زي الأفلام يا مامي بالضبط، كنت عايزة أكلمك بس قلت أقول لك إيه؟ لسة شايفة واحد طويل وزي القمر وشعره أسود وطويل. لكن التلات أيام دول أكدوا لي إني حقيقي بحبه.

حكت أنه معماري نابغ درس العمارة في الجامعة الأمريكية بلندن وعاد منذ فترة وجيزة ويستعد للسفر إلى دبي للاستقرار والعمل هناك.

دبي..

✦ ✦ ✦

تداخل الصوت واللون والمعنى وتاهت الكلمات مع الخطوط الفاصلة للبلاطات المرصوفة على النجيلة، غصت داخل روحي ولم أعد أسمع إلا نبض قلبي الملتاع على ابنتي.

سارت دروب حياتي داخل قاهرتي لتتقاطع دومًا مع دروب وقنوات تصب في بحر الخروج هربا من طوفان حل بنا. وقد بدأت قصة روايتي من رحمي؛ فمن الرحم تبدأ دائمًا كل القصص والحواديت. تشابكت الخيوط الرقيقة كالحرير، والصلبة كالحرير، ودارت دورتها المحكمة حول كفي وحركت أناملي رغما عني لتسطر حواديت الخروج.

نظرت إلى عيني ابنتي وقررت أن أكتب حواديت من لحق بسفينة نوح أو يعد العدة للحاق بها، ولأبدأ بأحمد عز الدين، الذي سألتقيه غدًا صباحًا.

ظهرت لي سفينة نوح وهي طافية فوق طوفان أغرق اليابسة. بدت لي كبيضة العالم تنتظر الفقس. كنطفة تستعد لخلق عالم لا نعرفه، ولا يمكننا التكهن بطبيعة أحواله. بدت لعيني السفينة كحرف النون، نصف دائرة لأسفل وفوقها شمس مضيئة وتستكمل الدائرة بنصف دائرة علوية: قوس قزح. يشكلان معًا وحدة كون جديد يتشكل بتفجير الكون القديم. سفينة نوح على شكل هرم، وتبدو قمة الهرم كشعلة فوق سطح سفينة الخروج، شعلة تتجه إلى بلاد بعيدة.

مرسومة في خيالي السفينة على شكل قلب سوف يحمل نبضًا مختلفا سيعيد تشكيل العالم.

تمت